alexandra.ahlamontada.com

منتدى مكتبة الأسكندرية

الوجه العارى للمرأة العربية

نوال السعداوى

الوجه العَاري للمَرأة العَربية

د. نوال السعداوى

alexandra.ahlamontada.com
منتدى مكتبة الأسكندرية

الإهـــــداء

إلى ابنتي وأبنـــائي شـــباب العـــالم العربـــي ومن بينهم ابنتي ((منى)) وابني ((عاطف)) على أمل أن يكون المستقبل أكثـــر صـــدقاً ووعيًـــا مـــن الماضي أو الحاضر.

الفـــــهرس

*الوجه العاري للمرأة العربية
الأهداء
الأفكار الأساسية التي تضمنها هذا الكتاب
السؤال الحائر بغير جواب
الآلهة الانثي و المعرفة
المرأة قبل أن يلدها آدم
جزر أمومية في محيط أبوي
المرأة المصرية القديمة
مولد الازدواجية الأخلاقية
تحرير العبيد لم يحرر المرأة
منابع إيجابية للمرأة العربية
الحب و الجنس عند العرب
المرأة في الادب العربي
كارهية و جب مشبوب
الكيد و السحر و الفتنة في ألف ليلة و ليلة
المرأة في الملاحم الشعبية العربية

الشرف و الدم في عصرنا الحديث

حواء, الانثي ,البغي, مريم الأم الطاهرة الرواد العربيـــة الثائرة

العمل والمرأة في المجتمع العربي

عمل المرأة داخل البيت

المرأة العربية والاشتراكية

الزواج و الطلاق في المجتمعات العربية

الاعتداء على الطفلة البنت

العدالة ليست عادلة

اللا أخلاقية في القيم الأخلاقية

الأجهاض و مشكلة النسل

الأفكار الأساسية التي تضمنها هذا البحث

١ـــ أن الثقافة الإسلامية أو العربية ليست هي الثقافة الوحيدة التي حولت المرأة إلى سلعة أو عبـــدة ولكـــن الثقافـــة الغربية والمسيحية أيضا فعلت ذلك بل إن قهرها للمرأة كان أشد وأفدح.

٢ـــ اضطهاد المرأة لا يرجع إلـــى الشـــرق أو الغـــرب أو الإسلام أو الأديان الأخرى. ولكنه يرجع أساسًـــا إلـــى النظم الأبوية في المجتمع البشري كله.

٣ـــ تتضمن الأديان الكبرى في العالم مبادئ متشـــابهة مـــن حيث تبعية المرأة للرجل وتمتع الإله بصفات ذكوريـــة وتثبيت القيم الطبقية وسلطة الذكر في البيت والمجتمع.

٤ـــ ليس عقل المرأة دون عقل الرجل كما يعتقد الكثيـــرون، والتاريخ يدلنا على أن المرأة سبقت الرجل في التفكير بعقلها وهي التي بدأت المعرفة في تـــاريخ البشـــرية، وكانت الآلهة الأولى للمعرفة امرأة هي إزيـــس ومـــن قبلها كانت حواء.

٥ــ الإسلام والمسيحية مراحل تقدمية وتطورية بالنسبة لتطور – المجتمع البشري في كثير من النواحي إلا أن القيود زادت على المرأة.

٦ــ الإسلام أعطى المرأة حقوقًا جديدة وسلب منها حقوقًا قديمة، وحظيت المرأة في حياة الرسول محمد بحقوق تسلب منها اليوم في معظم البلاد العربية.

٧ــ في تراثنا العربي والإسلامي إيجابيات يجب البحث عنها وإظهارها وتقويتها، أما السلبيات فيجب علينا أن نتركها بشجاعة وفهم: وتعتمد قضية تحرير المرأة العربية على الجمع بين إيجابيات التراث القديم وإيجابيات الفكر المستحدث.

٨ــ المرأة التي صورها الأدب العربي القديم أو الحديث ليست هي المرأة العربية الحقيقية.

٩ــ لن يحرر النساء إلا النساء أنفسهن، وبعد أن يصبحن قوة سياسية لها قدرتها على الفعل واتخاذ القرارات الكبرى، وهذا لن يتم إلا من خلال قوة نسائية منظمة واعية لحقوقها وأهدافها.

١٠- التاريخ يدلنا على أن الثورات الاشـــتراكية وحـــروب التحرير تسرع بعملية تحرير المرأة فـــي الشـــرق أو الغرب، وقد ساهمت حرب التحرير الجزائرية في كسر كثير من قيود المرأة بالجزائر، وكذلك تســـهم حـــرب التحرير الفلسطينية في تحرير المرأة الفلسطينية ممـــا يربط بين قضية تحرير الشعب ككل وقضـــية تحريـــر نسائه.

السؤال الحائر بغير جواب

كنت في السادسة من عمري. نائمة في سريري الدافئ أحلم أحلام الطفولة الوردية حينما أحسست بتلك اليد الباردة الخشنة الكبيرة ذات الأظافر القذرة السوداء، تمتد وتمسكني، ويد أخرى مشابهة لليد السابقة خشنة وكبيرة تسد فمي وتطبق عليه بكل قوة لتمنعني من الصراخ، وحملوني إلى الحمام، لا أدري كم كان عددهم، ولا أذكر ماذا كان شكل وجوههم، وما إذا كانوا رجالا أم نساء، فقد أصبحت الدنيا أمام عيني مغلفة بضباب أسود ولعلهم أيضا وضعوا فوق عيني غطاء، كل ما أدركته في ذلك الوقت تلك القبضة الحديدية التي أمسكت رأسي وذراعي وساقي حتى أصبحت عاجزة عن المقاومة والحركة وملمس بلاط الحمام البارد تحت جسدي العاري، وأصوات مجهولة وهمهمات يتخللها صوت اصطكاك شيء معدني ذكرني باصطكاك سكين الجزار حين كان يسنه أمامنا قبل ذبح خروف العيد.

وتجمد الدم في عروقي، ظننت أن عددا من اللصوص سرقوني من سريري ويتأهبون لذبحي، وكنت اسمع كثيرًا من هذه القصص من جدتي الريفية العجوز.

وأرهفت أذني لصوت الاصطكاك المعدني، وما إن توقف حتى توقف قلبي بين ضلوعي، وأحسست وأنا مكتومة الأنفاس ومغلقة العينين أن ذلك الشيء يقترب مني، لا يقترب من عنقي، وإنما يقترب من بطني من مكان بين فخذي.. وأدركت في تلك اللحظة أن فخذيّ قد فتحا عن آخرهما، وأن كل فخذ شدت بعيدا عن الأخرى بأصابع حديدية لا تلين، وكأنما السكين أو الموسيّ الحادة تسقط على عنقي بالضبط، أحسست بالشيء المعدني يسقط بحدة وقوة ويقطع من بين فخذي جزءا من جسدي.

صرخت من الألم رغم الكمامة فوق فمي، فالألم لم يكن ألما، وإنما هي نار سرت في جسدي كله، وبركة حمراء من دمي تحوطني فوق بلاط الحمام.

لم أعرف ما الذي قطعوه مني، ولم أحاول أن أسأل كنت أبكي وأنادي على أمي لتنقذني، وكم كانت صدمتي حين وجدتها هي بلحمها ودمها واقفة مع هؤلاء الغرباء تتحدث معهم وتبتسم لهم وكأنهم لم يذبحوا ابنتها منذ لحظات.

وحملوني إلى السرير ورأيتهم يمسكون أختي التي كانت تصغرني بعامين بالطريقة نفسها فصرخت وأنا أقول

لهم: لا، لا، ورأيت وجه أختي من بين أيديهم الخشنة الكبيرة.

كان شاحبا أبيض كوجوه الموتى، والتقت عيناي بعينها في لحظة سريعة قبل أن يأخذوها إلى الحمام، وكأنما أدركنا المأساة في تلك اللحظة، مأساة أننا خلقنا من ذلك الجنس، جنس الإناث، الذي يحدد مصيرنا البائس ويسوقنا بيد حديدية باردة إلى حيث يستأصل من جسدنا بعض الأجزاء.

لم تكن أسرتي من الأسر المصرية غير المتعلمة، كان أبي متعلما تعليما عاليا بل كان مراقبا على التعليم في محافظة المنوفية في تلك السنة [1]، وكانت أمي قد تعلمت في مدرسة فرنسية قبل أن يزوجها أبوها الذي كان مديرا للقرعة العسكرية في ذلك الوقت، ومع ذلك فقد كانت تلك العادة المعروفة بختان البنت (أو الطهارة) منتشرة، ولم تكن تفلت منها أي بنت سواء في الريف أو المدن، وقد سألت زميلاتي في المدرسة (بعد أن شفيت وعدت إلى المدرسة) فإذا بهن جميعا قد تمت لهن عملية الختان سواء من كانت منهن من أسرة عالية أو متوسطة أو فوق المتوسطة.

---

(١) سنة ١٩٣٩، ومحافظة المنوفية إحدى محافظات الوجه البحري بمصر.

أما في الريف والأسر الفقيرة غير المتعلمـــة، فقــد علمت من بنات قريتي ((كفــر طلحـــة)) أنهــن جميعــا مختونات، ولا تزال هذه العادة شائعة في الريف حتى اليوم، بل أن كثيرًا من الأسر في المدن ما زالوا يؤمنون بها، إلا أن التعليم وازدياد الوعي قد ساعد بعض الآباء والأمهات علـــى الإحجام عن إجرائها لبناتهم.

وقد ظلت حادثة الختـــان تراودنـــي فـــي أحلامـــي كالكابوس، ولم أكن أعرف بالضبط ما الذي ينتظرنـــي فـــي المستقبل، وما إذا كان هناك من حوادث أخرى تخبئهـــا لـــي أمي أو أبي أو جدتي أو المجتمع من حولي الـــذي أشـــعرني منذ فتحت عيني على الحياة أنني بنت، وإن كلمة ((بنت)) حين ينطقها أحد فهو لا يبتسم.

وبعد أن كبرت وأصبحت طبيبـــة ١٩٥٥ لـــم تفقــد ذاكرتي الحادث المؤلم الذي أفسد طفولتي والذي حرمني في شبابي وزواجي من حياة جنسية ونفســية مكتملـــة، وظـــل كابوس من هذا النوع يراودني في الأحـــلام، خاصـــة وأنـــا طبيبة ناشئة أعمل بالريف، حين كانوا يحملون البنت الطفلـــة لإسعافها وهي تنزف دما بسبب الختان، وكم من بنات أطفال

نزفن حتى الموت بسبب هذه العـادة البشـعة، أو تعرضـن للالتهابات الحـادة أو المزمنـة بسـبب تلـوث الجـرح أو لتعرضهن للمشاكل النفسية أو الجنسية فيما بعد.

وساقتني ظروف عملي إلى أن أفحص بعض النساء السودانيات، وكم كانت دهشتي حين رأيت أن البنت السودانية تتعرض لعملية ختان أبشع من تلك التي تحدث في مصـر، أنهم في مصر يقطعون البظر فقط والشفاه الأربعة الداخلية ثم يخيطون الجرح ويغلقون فتحة المهبل تمامًـا إلا مـن ثقـب صغير لمرور دم الحيض، وعند الزواج تفتح الفتاة بالموسيّ أو المشرط حتى يمكن لعضو الزوج أن يدخل في المهبل، أما المرأة السودانية المطلقة فإنهم يغلقونها مرة أخرى حتـى لا يمكنها ممارسة الجنس، فإذا تزوجـت مـرة ثانيـة عـادوا وفتحوها بالموسيّ أو المشرط.

كم كنت أشعر بالغضب والثورة يتجمعان في صدري وأنا أفحص هؤلاء النساء أو أسمع ما يقولـون عـن ختـان البنات السودانيات. وكم بلغ بي الغضب حين سـافرت إلـى السودان ١٩٦٩ وعلمت أن هذه العادة السيئة لا تزال تمارس في الريف والحضر.

رغم أنني كنت طبيبة وأنظر إلى نفسي كامرأة متعلمة إلا أنني لم أعرف في ذلك الوقت لماذا يفعلون تلك الأفعال البشعة بالبنات! كثيرًا ما سألت نفسي السؤال.. لماذا؟ لكني لم أعرف الجواب، وكثيرا ما لاح لي السؤال وأنا طفلة صغيرة، لماذا؟ فعلوا ذلك بي وبأخواتي البنات؟.

لماذا يميزون أخي عليّ في الطعام والملابس وهدايا العيد والحرية في الخروج من البيت؟ لماذا يضحك أخي بصوت عال، ويحرك ساقيه بحرية، ويجري ويلعب كما يشاء، أما أنا فبنت، والبنت يجب ألا تحملق في عيون الناس بل تخفض عينيها حين تنظر إلى أحد، وإذا ضحكت تضحك بصوت لا يسمعه أحد أو تبتسم فقط، وإذا لعبت فيجب ألا تحرك ساقيها بحرية وإنما تشي بأدب، والبنت عليها أن نظف البيت وتساعد في الطبخ وتذاكر أيضًا إذا كانت في المدرسة أما الولد فليس عليه إلا أن يذاكر فقط.

ولأن أسرتي كانت متعلمة وترسل بناتها إلى المدارس للتعلم فلم تكن التفرقة بين البنات والأولاد شديدة كما كانت في الأسر الأخرى، وكم كنت أشفق على البنات من أقاربي حين كنت أرى الواحدة منهن تترك المدرسة

فيزوجوها إلى رجل عجوز لديه قطعة أرض، أو أرى الواحدة منهن وهي تضرب أو تهان من أخيها الأصغر لمجرد أنها لم تسمع أوامره.

وكان أخي يحاول فرض سيطرته عليّ لكن أبي كان رجلا واسع الأفق وكان يحاول أن يساوي بين البنات والأبناء. وكانت أمي تقول لنا أحيانا إن البنت مساوية للولد لكني كنت أحس أن هذه المساواة ليست كاملة في أحيان كثيرة.

وكنت أثور دائما حين أشعر بهذه التفرقة الواضحة، وأسأل أمي وأبي لماذا يحظى أخي بامتيازات لا تعطى لي مع أنني في المدرسة؟ ولم تكن أمي وأبي يجدان جوابا عن سؤالي سوى: كده، [١] وأرد وأقول: كده ليه؟ ويجيئني الرد: هو كده، (هو الأمر كذلك).

وأبالغ في العناد فأسأل مرة أخرى: هو كده ليه؟ (لماذا هو الأمر كذلك) وحينما تضيق أمي أو أبي بسؤالي الملح يقولان: هو ذكر وأنت بنت.

---

(١) الكلمة العامية المصرية لكلمة كذلك وتعني أن الأمر كذلك، أمر واقع لا يتغير.

وكأنما كانا يتصوران أن هذه الإجابة كافية لإسكاتي أو اقتناعي، لكنها كانت على العكس من ذلك تزيد تساؤلي حدة فأقول: وما الفرق بين البنت والصبي؟، (لماذا الأمر كذلك).

وهنا قد تتدخل جدتي العجوز إذا كانت قد جاءت في زيارة لنا وشهدت ذلك الحوار الذي كانت تسميه دائمًا خروجًا على الأدب، وتنهرني بحدة قائلة: لم أر في حياتي بنت لها مثل لسانك الطويل، طبعا أنت لست مثل أخيك، أخوك ذكر، ليتك ولدت ولد مثله.

ولم يستطع أحد في البيت أن يرد على سؤالي ردا مقنعا وظل السؤال حائرا في رأسي، يتردد من حين إلى حين كلما وقع شيء جديد يؤكد لي أن الذكر يعامل في كل مكان أذهب إليه على أنه الجنس الأعلى من الجنس المؤنث.

وحينما ذهبت إلى المدرسة لاحظت إنهم يكتبون اسم أبي فوق كراساتي وكتبي ولا يكتبون اسم أمي، وسألت أمي عن السبب فقالت لي: كده، أما أبي فقال لي إن الأطفال ينسبون إلى الأب فقط، وحينما سألته لماذا قال: كده.

واستطعت أن أسأله مرة أخرى: لماذا كده؟.

وأدركت من وجه أبي أنه لا يعرف الإجابة، ولم أسأل أبي مرة أخرى حتى حدث بيني وبينه جدال من نوع أخر بعد أن دخلت رأسي معلومات جديدة.

الآلهة الأنثى والمعرفة

((من حق الناس أن يطلبوا من الآلهة الخير والطعام و الأمن والستر، أما الفلاسفة والعلماء والفنانون فيطلبون من الآلهة المعرفة، وأول هذه المعرفة ،معرفة حقيقة الآلهة أنفسهم، والفرق بين إنسان وإنسان هو المعرفة، بل الفرق بين إله وإله هو المعرفة أيضًا)).

أظن أنني قرأت هذه العبارة وأنا طفلة صغيرة في أحد الكتب القديمة، ولعلها من كلمات الفيلسوف اليوناني بلوتارخوس (Plutarchos) في كتاب عن الآلهة المصرية القديمة" أوزوريس" ورغم مرور السنين الطويلة فما زلت أذكر هذه العبارة وأذكر أيضًا أن ((هوميروس)) قال إن الإله زيوس كان أفضل من الآلهة أوزيس لأنه كان أعظم منها في المعرفة، أما الآلهة إزيس فقد كانت أكثر الآلة معرفة بل إن اسمها ((إزيس)) يعني لغويا المعرفة والحكمة، ويدل ((هيكل إزيس)) على إدراك الحقيقة فهو

يسمى ((إيزيون)) ليدل على أننا سوف ندرك الحقيقة إذا دخلنا ((زونة)) [1] الآلهة أو بيت الآلهة إزيس.

وقد أكد لنا كل من كتب عن الآلهة ((إزيس)) أن عابدها الحقيقي لم يكن هو الكاهن الذي يرتدي الأثواب المقدسة وتتدلى لحيته فوق ذقنه، ولكنه هو الذي يبحث عن الحقيقة والمعرفة بلا كلل أو ملل.

ومن يقرأ قصة إزيس وأوزوريس يرى أن إزيس كانت تقوم دائمًا بالفعل والعمل والخلق، بل إنها كانت تعيد خلق وبناء ما قد يهدمه الرجال من أمثال ((توفون)). إن ((توفون)) كان يرمز إلى كل ما هو غير نافع وغير عاقل وغير مرتب.

وكل ما هو مرتب ونافع من عمل إزيس، هذا العمل الذي كان يأخذ شكل ((أوزوريس)) فأوزوريس لم يكن إلا الصورة أو الشكل الذي يتجسد به عمل إزيس.

وقد انتصرت إزيس بعقلها ومعرفتها على الداهية توفون الذي مزق جسد أوزوريس إربًا إربا، وأكل سمك النيل عضوه الذكري، لكن إزيس استطاعت أن تجمع أعضاء

(١) الزونة هو معبد الأوثان الذي يزين. الإفصاح في فقه اللغة ص ٦٩٧.

أوزوريس وتعيد خلقه، بل وتعيد خلق عضوه الذكري وتضع له عضوًا ذكريًا آخر مكان العضو المفقود.

وتدل أسطورة ((إزيس)) بوضوح على أن المــرأة القديمة كانت هي الخالقة والفاعلة أما الرجل فقد كان المفعول به أو الذي ينتج عن فعل المرأة وحركتها السريعة. إن كلمة ((إزيس)) تعني لغويا تعنـــي العقــل والمعرفــة والحركــة السريعة، أما أوزوريس فلا يعني إلا ((التقى)) أو الشـــيء المقدس. فقد خلقت إزيس أوزوريس، وهو لم يكن إلا إحدى نتائجها، لأنها أنتجت أيضًا ((هورس)) ابنهــا أوجدتــه أو ولدته، بل إن ((إزيس)) هي في منحت الحركة والمعرفــة ((لزيوس)) الإله الأكبر الذي قال الرجال عنه إنه هو الذي ولد ((إزيس)) و ((أثينا)) من رأسه.

ويقول يودكسوس إن قــدماء المصـــريين صـــوروا ((زيوس)) على أنه كان عاجزًا عن السير والحركـــة، لأن ساقيه كانتا ملصقتين، وقد ظل في عزلة شديدة بسبب عجزه عن الحركة بسبب خزيه أيضًا من شكل ساقيه الملتصـــقتين،

لكن ((إزيس)) هي التي شقت ساقيه، وبفضل إزيس أصبح في إمكانه السير والحركة [1].

والمعنى الواضح في هذه الأسطورة أن إزيس هي التي منحت الحياة والحركة والمعرفة لزيوس وأوزوريس وهورس.

لكن الرجال الذين فسروا هذه الأسطورة لم يدركوا هذه الحقيقة، أو أنهم أدركوها ثم حوروها وغيروها بحيث يصبح الإله الرجل هو الأصل وهو الخالق، وتصبح المرأة أحد مخلوقاته، فهو يلدها من رأسه كما روي عن زيوس، أو هو يلدها من ضلعه كما روي عن آدم.

ولا تختلف أسطورة آدم وحواء كثير عن أسطورة إزيس وزيوس، اللهم إلا أن أسطورة آدم وحواء جاءت في الكتب السماوية المقدسة فاكتسبت بذلك قدسية تبعد الكثيرين عن مناقشتها مناقشة عقلية موضوعية.

وقد سلبت حواء قدرتها على المعرفة والحركة والخلق رغم أن من يعيد قراءة الأسطورة في أصلها الأول

---

(١) إزيس وأزوريس، ترجمها عن اليونانية حسن صبحي البكري، الألف كتاب ٢٣٥، دار القلم، القاهرة، ص٩٣.

في التوراة يرى بوضوح كيف كانت حـــواء هـــي صـــاحبة المعرفة والعقل والذكاء وأن آدم لم يكن إلا إحـــدى وســـائلها لتحقيق هذه المعرفة وتجسيد هذا الخلق.

وتقول الأسطورة كما جاءت في التوراة إن آدم أطاع حواء وأكل من شجرة المعرفة التـــي أكلـــت منهـــا حـــواء، فاكتسب المعرفة التي سبق أن اكتسبتها حواء، لكـــن الـــرب خشي أن تزيد معرفة حواء وآدم فتمتد يدهما بعـــد شـــجرة المعرفة إلى شجرة الحياة فيعيشان إلى الأبد مثـــل الآلهـــة، وخشي الرب أن تنافسه حواء وآدم في الألوهية فطردهما من الجنة إلى الأرض حيث يعيشان ثم يموتان كالبشـــر ولـــيس كالآلهة.

((قال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ مـــن شـــجرة الحياة أيضًا ويأكل ويحيا إلى الأبد، فطـــرد الإنســـان وأقـــام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف تتقلب لحراسة طريق شجرة الحياة))[1].

---

(١) التوراة ، التكوين ، الإصحاح الثالث، الآية ٢٢ – ٢٤.

رغم وضوح ور المرأة القديمة أو الآلهة القديمة من حيث المعرفة والعقل والخلق فإن هــذه الأســاطير فســرت تفسيرا عكسيًا، وأصبح الرجل هو الآلهة، وهو الخالق وهــو الذي ولد المرأة وليست هي التي ولدته.

واستولى الرجل الذكر على العرش والقوة والأصالة وألصق بالمرأة تهمة الضعف والسلبية والتبعية.

في حين أن المرأة لم تكن تابعة للرجل، بــل إن آدم هو الذي كان تابعا لحواء، وكانت إزيس أكثر قوة من أكثــر الرجال قوة وطغيانــا وهــو ((توفــون)) فقــد انتصــر ((توفون)) الداهية السياسي الشرير على أخيه أوزوريــس الطيب الخير المسالم، لكن ((إزيس)) هي التي انتصــرت على ((توفون)) وحاربته بنفس سلاحه وذلك بأن اشــترت الشيطان وأغرته بمالها.

كانت المرأة أعرق من الرجل معرفة وقدرة، كانــت المرأة أقوى بعقلها وذكائها من الشيطان وكانت تنتصر دائمًا بمعرفتها وحكمتها على الشياطين والآلهة معا فقد انتصــرت حواء على الإله وجعلت آدم يطيعها هي ولا يطيع الإله.

أما الرجل فقد كان دائما يسير وراء المرأة، مسترشدا بعقلها وذكائها وحكمتها، وقد يكون نصيبه الحركة والحياة والمعرفة كما حدث لزيوس وأوزوريس وآدم، وقد يكون نصيبه الهلاك كما حدث لتوفون وغيره من الشياطين.

لكن الرجل لم يكن أبدا موضوعيا في تفسيره لهذه الأساطير القديمة التي تدلنا على المكانة العالية التي كانت تحتلها المرأة في عهود ما قبل التاريخ وما قبل الأديان السماوية.

وهناك من يقولون إن الرجل استطاع في فترة ما قبل التاريخ أن يحارب المرأة ويقهرها بقوة السلاح، ويسلب منها منصبها الإلهي، ويسلب أيضًا عقلها وقدرتها على الخلق وينسبها لنفسه.

وفي أسطورة إزيس يروى أن ابنها ((هورس)) بتر رأسها وأطاح بالتاج الملكي أو الألوهي من فوق رأسها لأنها أطلقت سراح ((توفون)) وعفت عنه حينما جاء إليها مقيدا بالسلاسل والأغلال.

وقد بترت التوراة أيضًا رأس المرأة، وجعلتها جسدا بغير رأس، وزوجها هو رأسها، وتبع ذلك تلك الأقوال التي

تشيد بأن المرأة بغير عقل أو ناقصة العقل في حين إنها كانت في الأصل هي صاحبة العقل والمعرفة، والرجل لم يكن إلا تابعا ومطيعا لما تقوله.

ولكن كم تغير التاريخ، وكم استطاع الرجل أن يفسر تلك الأساطير بحيث تتفق مع مصالحه الأبوية الطبقية بنشوء الأسرة الأبوية ومجتمع العبيد.

ولم يستطع أحد أن يرد على سؤالي: لماذا اختفت الآلهة الأنثى من تاريخ الإنسان، ولم يعد إلا الإله الذكر في الأديان السماوية الحديثة؟.

وقد ظللت لسنين طويلة في طفولتي وصباي أفكر في حقيقة الله، وكنت أسمع من بعض من حولي أن التفكير في حقيقة الله أمر مكروه، أو على الأقل غير مستحب، ولا يشجعه أحد لكني كنت لا أزال أذكر عبارة ((بلوتارخوس)) (Plutarchos) أن من حق الإنسان أن يطلب المعرفة، وأول هذه المعرفة هي معرفة حقيقة الآلهة. وكنت أقرأ دائمًا أن ما من شيء يمتلكه الإنسان أقدس من المقدرة على التفكير. وحينما كانوا يتهمونني بأنني أنتهك المقدسات حين أفكر في حقيقة الله أقول لهم إنه ما من شيء يمتلكه الإنسان.

أقدس من المقدرة على التفكير والمعرفة، وأول هذه المعرفة هي معرفة حقيقة الآلهة.

وقد قرأت في الأساطير المصرية واليونانية القديمة أن القدماء قالوا إن التمساح [1] صورة الله، لأنه الحيوان الوحيد الذي لا لسان له، ولأن العقل الإلهي (أو الكلمة الإلهية) لا تحتاج إلى صوت، وقالوا أيضا إن زيوس كان ((أطرش)) أي بغير أذنين، إذ لا يليق بسلطان الأشياء وربها جميعا أن ينصت لأحد.

وقالوا أيضا إن ساقيه كانتا ملتصقتين وكان عاجزا عن السير ويزحف كالتمساح وأن ((إزيس)) هي التي شقت ساقيه.

ومن هذه القراءات كنت أجد أن كثيرا من الرجال يعطون أنفسهم الحق في التفكير في حقيقة الله، فلماذا لا أعطي نفسي هذا الحق؟ ألست إنساناً؟ أليس أقدس ما يمتلكه الإنسان هو القدرة على التفكير؟

([1]) plotaschos) ، بلوتارخوس، إزيس وأوزوريس ترجمها عن اليونانية حسن صبحي البكري، الألف كتاب ١٣٥، دار القلم ، القاهرة ، ص ١٠٨.

المرأة قبل أن يلدها آدم

ما زلت أذكر ذلك الحوار القديم الذي حدث بيني وبين أبي عن حقيقة الله، ولماذا عاقبني مدرس الدين لما اعترضت عليه حين قال لي إن الله ذكر وليس أنثى، وما زلت أذكر محاولاتي اليائسة لأعرف لماذا نسب الإثم والشر إلى حواء مع أنها هي التي كانت صاحبة المعرفة وهي التي قادت آدم إلى شجرة المعرفة، ولولا معرفة حواء ما جئنا نحن وما جاءت البشرية كلها.

ولا شك أن قصة آدم وحواء بكل ما فيها من رموز قابلة للتفسيرات المختلفة تصور مرحلة من مراحل التطور الإنساني في اكتساب المعرفة التي حصل عليها الإنسان بالتدريج، وارتباط هذه المعرفة بالجنس والمرأة. وقد كان الأجدر بالمفكرين والفلاسفة الرجال لو كانوا متحررين من النظرة الأبوية الذكرية المتسلطة، وأن يدركوا أن اكتساب آدم لمعرفة الخير والشر بأكله من الشجرة لم يكن ((سقوطا)) وإنما كان ارتفاعا بالعقل وبالمعرفة عن مصاف الحيوانات، وإن حواء لم تكن سبب ((السقوط)) وإنما كانت سبب

((الارتفاع)) وإن ((الجنس)) لم يكن سبب ((المــوت)) ولكنه كان سبب ((الحياة)) واستمرار البشرية، ومن هنــا يمكن أن تتغير النظرة إلى كل من المرأة والجنس، فترتفــع مكانة المرأة ويتخلص الجنس من فكــرة التــأثيم والخطيئــة والذنب الذي ألصق به.

إلا أن الرجال أنكروا التاريخ، وطمسوا كثيــرا مــن الحقائق عن المرأة، وفرضوا على النســاء وضــعا أدنــى، وجعلوا هذا الفرض مقدسا، ودينا لا يناقشه أحــد، وقانونــا يعاقب بالقتل أو بالحبس كــل مــن حــاول التفكيــر فيــه بموضوعية. وبرغم أن العلم موضوعي وحيادي إذا قــورن بالدين، إلا أن كثيرا من الرجال حتى اليوم ينكــرون العلــم، ويصلون بين العلم والدين. وتجد الرجل منهم يؤمن بنظريــة التطور الدارونية التي تقول بأن الإنسان ولد من إحدى إناث القرود، وتجده في الوقت نفسه يؤمن بأن آدم هو الذي ولــد حواء من ضلعه.

وما زال كثير من الناس وبالــذات فــي مجتمعاتنــا العربية يتصورون أن حواء هي أول امرأة ظهــرت فــوق سطح الأرض، وينسى هؤلاء أن المرأة ظهرت فوق الأرض

قبل ظهور الأديان السماوية الثلاثة بنحو مليـــون ســـنة، وإن حواء لم تظهر أول ما ظهرت إلا منذ أربعة آلاف سنة تقريبا وقد ظهرت بظهور التوراة فحسب.

ولكن كم ينسى هؤلاء التاريخ، أو علـــى الأقـــل لا يحاولون قراءته والبحث عن ماضيهم وحقيقتهم الأصلية.

إن تاريخ الإنسان الأول الذي تطور عبـــر ملايـــين السنين من فصيلة معينة من القرود يحتوي على حقائق هامة تكشف عن أن الإنسان الذكر والأنثى كليهما صارع الطبيعة والبيئة المتقلبة ليعيش ويستمر، وإن الأنثى صارعت بمثل ما صارع الذكر من أجل البقاء، وأن كليهما صارعا معا جنبـــا إلى جنب ضد كوارث الطبيعة وضد وحشية أســـود الغابـــة ونمورها، ولم يكن لديهما من سلاح أمام كـــل تلـــك القـــوى الأقوى منها إلا أن يتطور عقلهما وذكاؤهما بحيث ينتصران بالعقل والذكاء على أقوى وحوش الغابة جسدا وعلى أعظـــم كوارث الطبيعة فتكا.

بعد أن تخلص الرجل والمرأة البدائيان من الخطـــر المحدق بوجودهما فوق الأرض، وبعد أن تطور عقلهما أكثر وأكثر لسد حاجتهما المتزايدة إلى الطعام والنســـل والأمـــن،

استقرت بهما الأمور أكثر فأكثر، واستمر تعاونهما معا من أجل الحفاظ على حياتهما واستمرار النوع أي البشرية.

وكان تعاونهما متساويا بل إن المرأة حظيت بمكانة أكثر لأن مساهمتها في استمرار البشرية كان أكبر لأنها هي التي كانت تلد الأطفال، لم يكن الرجل البدائي يفهم بعد أسرار الحمل والولادة. وتصور أن قدرة المرأة على الولادة إنما هي قدرة على خلق الحياة، وأصبحت المرأة في نظره هي خالقة الحياة فعبدها على إنها آلهة الحياة ومجد جسمها وأعضاءها الجنسية.

لقد ظهر الإنسان فوق سطح الأرض قبل ظهور الأديان السماوية بملايين السنين، هذه الأديان التي لم تظهر إلا منذ أربعة آلاف سنة على الأكثر، والتي لا يمثل عمرها بالنسبة لعمر الإنسان شيئا يذكر، وقد عثر على جماجم بشرية عمرها أكثر من ٢٠ مليون سنة وهناك من العلماء من يقول إنه هناك ما يثبت أن عمر البشرية قد يصل إلى ١٢٠ مليون سنة.

وتقول المصادر التاريخية إن أقدم التماثيل صورت المرأة البدائية أكثر مما صورت الرجل، وهناك رسوم عثر

عليها في كهف ((لاسيل)) في فرنسا تصور المرأة الراقدة في كبرياء وعظمة كالآلهة والرجل راكع رافع يديه نحوهـــا، وفي بعض الكهوف بأسبانيا cogul عثر على نقوش لنســـاء كاملات أما الذكر فقد رسم على شكل عضو التناسل، وعثــر على مثل هذه النقوش في بقاع مختلفة من العالم في الصـــين وفي الهند.

وكلنا يعرف عن حضارتنا المصرية القديمة منذ أكثر من خمسة آلاف سنة وقبل ظهور الأديـــان المســـاوية هـــذه الحضارة التي عرفت من آثار قدماء المصريين الموجـــودة حتى اليوم ومن كتاباتهم على ورق البردي ومـــن تمـــاثيلهم ونقوشهم الباقية حتى اليوم.

وكان اخناتون المصري (١٣٧٢ ق. م) هـــو أول من بدأ شريعة توحيدية، واتخذ معبودا واحدا هو الإله ((رع حاراختي)) الذي تألق في الأفق بمظهره ((شو)) النـــور، ويكمن في قرص الشمس [1]. وقد تأثر موسى نبـــي اليهـــود بأفكار اخناتون ونقل عنه الكثير مما هو ثابت من تشابه فـــي

---

(١) مصر الفرعونية، جان يوبوت، ترجمة سعد زهـــران ، الألف كتاب (وزارة التعليم العالي. بالقاهرة) ١٩٦٦، ص ١٢٩.

كتابات اخناتون وبعض الآيات التـــي وردت فـــي التـــوراة (العهد القديم). وقد نقلت المسيحية عن اليهودية، كما نقـــل الإسلام عنهما معا بحكم تطور المجتمع.

والآلهة عند قدماء المصريين لم تكن ذكـــورا فقـــط ولكنها كانت آلهة من الإناث ومن الذكور، وعرفت مصر في تلك الفترات عهودا حظيت فيها المرأة المصرية بمكانة عالية في الدنيا والدين وعلى حد سواء.

وليس المجال هنا للإفاضة في تاريخ المرأة القديمـــة أو آلة الأنثى، إذ إن التركيز مطلوب على المرأة في حياتهـــا الحاضرة في ظل الدين الإسلامي وفي المجتمع العربـــي إلا أنه لا يمكن أن نتعرض للحاضر دون أن نلقي بعض الضوء على الماضي.

ولا يمكن أن نعرف الأسباب الحقيقية لتدني مكانـــة المرأة في الأديان السماوية دون أن نعـــرف وضـــعها فـــي المجتمع قبل هذه الأديان.

ومن الخطأ أن نتعرض للمرأة في الدين الإســـلامي بمعزل عن الأديـــان الأخـــرى الســـماوية وهـــي اليهوديـــة والمسيحية، إذ إن الإسلام أخذ عنهما وتأثر بهما إلـــى حـــد

كبير، كما أننا لا يمكن أن نتعــرض للمــرأة فــي الأديــان السماوية بمعزل عن الأديان غير السماوية السابقة هنا، حيث إن المجتمع البشري كائن متصل الحلقات والمراحل، وكــل مرحلة تؤثر في المرحلة التي بعدها،ولا يمكن لنا أن نعــرف مثلا الأسباب التي جعلت القيم الدينية والأخلاقية المفروضــة على المرأة تختلف عن القيم الدينية والأخلاقيــة المفروضــة على الرجل في مرحلــة تاريخيــة معينــة، إلا إذا عرفنــا الظروف الاجتماعية والاقتصادية في هــذه المرحلــة وفــي المراحل السابقة لها، ولماذا تعامل الدين مع المرأة على نحو مختلف عن الرجال.

وكلمة ((الدين)) تعني الجزاء والطاعــة والقهــر والغلبة، والديان القهار والقاضي والحاكم والجازي الــذي لا يضيع عملا بل يجزى بالخير وبالشر، ويشتق مــن الأصــل الثلاثي نفسه كلمة الدين أي religion في اللغات الأوروبية مأخوذة من اللاتينية religio وهذه من ligare وتعني الربط والقيد، وقد اشتقت منها أيضا كلمة obligation أي الالتزام والدين، وخلاصة القول إن اصطلاح الدين religion سواء في اللغة العربية أو في الأوروبية يعني من الناحية اللغويــة

القيد والقهر وإحساس المرء بوجود قوة غالبة مسيطرة عليه[1].

وقد نشأت فكرة الدين عند الإنسان قبل أن تعرف الأديان السماوية، خلق الإنسان البدائي فكرة وجود آلهة، أو قوى غامضة فوق طاقة البشر تؤثر في حياة الإنسان، وتيسّر له الخير أو المطر أو الزرع، أو تسبب له العواصف والمرض والموت. وتدل المصادر التاريخية على أن الآلهة القديمة كانت أنثى، وفي تاريخ مصر الفرعونية القديمة ما يدل على وجود آلهة من الإناث ومن الذكور. ومن الإلهات المصريات القديمة ((ماعت)) كانت ربة الحقيقة، ((ونايت)) ((إلهة الحرب وإلهة الفيضان))، ((وإيزيس)) و ((سخمت)) و ((حتحور)) وغيرهن.

وكان ارتفاع مكانة المرأة إلى حد حصولها على منصب الألوهية مرتبطا بارتفاع مكانتها في المجتمع قبل نشوء الأسرة الأبوية والملكية الخاصة ونشوء الطبقات.

---

(1) ثروت الأسيوطي، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين ، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٦،ص ١٨.

قبل بدء انتساب الطفل إلى الأب كان الأطفال ينسبون إلى أمهم لأنها هي التي تلدهم، وعرف ذلك المجتمع بالمجتمع الأمومي [1].

وعرفت الحضارة المصرية القديمة انتساب الابن الشرعي لأمه، وكان نظام التوريث في بعض العهود يأتي عن طريق الإناث [2] فلم يكن الابن الذي يرث وإنما كبرى البنات. وقد ورد عند المؤرخ الإغريقي ((هيرودوت)) أن شعب الليفيين كانوا ينسبون الولد لأمه،وجاء عن المؤرخ الروماني ((تاسيت)) أن قبائل الجرمان كانوا يعطون الأهمية للأخت، وكانت بعض القبائل عند عرب الجاهلية قبل الإسلام ينسبون الطفل لأمه [3] وهناك بعض القبائل حتى اليوم في آسيا وإفريقيا ممن ينسبون الأطفال إلى أمهاتهم.

([1]) انظر في شرح النظام الأموي أعمال بكوفين (١٨٦١)، موري ودافي (١٩٢٣)، إدوارد ويسترمارك (١٩٢٥) فرديك انجلز، ومورجان وبريفولت.

([2]) انظر وليم نظير، المرأة في تاريخ مصر القديم، دار القلم، ١٩٦٥، ص ٤٣.

([3]) جواد على، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، القسم الديني مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٥٥، ص ٢٥٨ وما بعدها.

ومن المعروف في تاريخ البشرية إن مكانة المــرأة العالية في المجتمع والدين كانت مرتبطة بنسب أطفالها إليها. وقد حظيت المرأة في المجتمعات الأموية بمكانة اجتماعيــة عالية، وكذلك حظيت بمنصب الألوهية أيضا ولم يحتكر هذا المنصب الآلهة الذكور كما حدث بعد نشوء النظام الأبــوي وانتساب الأطفال إلى الأب بدلا من الأم.

وفي المجتمع الأموي كانت النساء مــن الإلهــات، وكان الملوك الرجال يقدمون قربانــا للآلهــة، وقــد اثبــت ((فريزر)) إن الملك (من نيجيريا) كان مجرد مخصــب للملكة، إذ لا بد للملكة من الحمل حتى تعطي الأرض ثمارها وبعد أن ينهي الرجال (الذين اعتبروا ممثلين للإلــه القمــر على وجه الأرض) مهمتهم التناسلية تقوم النســاء بقــتلهم. وكان ((الحيثيون)) ينثرون دم الملك المقتول فــوق أرض الحقول، أما جسده فتأكله الجنيات اللاتي هن وصيفات الملكة بع أن يرتدين أقنعة من رؤوس الكلاب أو الخنــازير. ومــع التحول من المجتمع الأموي إلى المجتمع الأبوي سلب الملك سلطة الملكة، وأصبح يرتدي ملابس نسائية ويضــع أثــداء

صناعية ليأخذ دور الملكة، وأصبح هناك نائب للملك يقتل بدلا منه، ثم استبدلت الحيوانات بنائب الملك [1].

وتعد النظم القانونية المتعلقة بالمنسب أو الأسرة مرآة تعكس الأوضاع الاقتصادية في أي مجمع، وقد اعتمدت الحياة الاقتصادية في العهود الأولى للبشرية على قطف الثمار وقطع البذور وعلى التقاط السحالي والجرذان وصيد بعض الحيوانات. وكانت هذه الحياة الاقتصادية تضطر الرجال والنساء إلى الترحال المستمر بحثا عن القوت والصيد، ولم يكن في وسع أحد أن يملك شيئًا أو يحفظ شيئا مع هذا التنقل المستمر، وبغياب الملكية الخاصة لم ينقسم المجمع إلى حكام ومحكومين بل كان الجميع رجالا ونساء سواسية أعضاء الجماعة، كذلك لم يعرف شيئًا عن مبدأ تقسيم العمل بين الرجال أو النساء أو بين فرد وفرد، فهو مجتمع بلا طبقات وبلا سادة وعبيد [2].

([1]) انظر: ارنست فينشر، الاشتراكية والفن، دار القلم بيروت – لبنان. (ترجمة أسعد حليم) ١٩٧٣، ص ٦١.

([2]) اقرأ عن جماعات البوشمن والجماعات الاسترالية ، فريزر، شابيرا، سبنسر وجيلين، توماس دايموند. لبنورنو (الملكية نشأتها وتطورها لندن ١٨٩٢).

وبدراسة حياة جماعات البوشمن اتضح أن المرأة كانت تشترك مع الرجل في التقاط الطعام. وكانت حرة في علاقتها الزوجية به، والمرأة التي ترغب في علاقة جديدة تستطيع أن تهجر رجلها الأول وتتزوج بالرجل الثاني. وفي الجماعات الاسترالية أيضًا تساوت المرأة والرجل من الناحية الاقتصادية فكلاهما يعمل من أجل الرزق، لذلك تتبع بعض القبائل النظام الأمومي فينسب الولد إلى أمه ويلتحق ببطن الأم [1].

وفي قبيلة Dieri أدى التساوي بين الرجل والمرأة اقتصاديا إلى التساوي جنسيا وأخلاقيا فقد كان من حق الرجل أن يتخذ لنفسه زوجة رئيسة و زوجات احتياطيات، وكان من حق المرأة أيضًا أن تتخذ لنفسها زوجا رئيسا و عددا من الأزواج الاحتياطيين (سميت هذه الحالة pirrauru) [2].

---

(1) مثل قبيلة الديري Dien انظر نورنكوت وتوماس . تنظيمات القرابة والزواج الجماعي في استراليا.

(2) راجع الأعمال لينورنو. وجورس، وروبرس لوي (المدخل إلى الإنثروبولوجيا الحضارية نيويورك ١٩٤٧).

ويرجح ((ليتورنو)) أن تكون المرأة هي مكتشفة الزراعة البدائية لخبرتها الطويلة في التقاط الثمار والجذور في فترات الالتقاط ومجتمع الصيد. وقد تولت المرأة الزراعة أول الأمر ونشأ عن ذلك ارتفاع مكانتها الاقتصادية وما ارتبط بها من ارتفاع مكانتها الاجتماعية، ونسب أطفالها إليها، ولهذا ساد النظام الأمومي في أولى فترات نشوء الزراعة.

وفي هذا المجتمع الزراعي البدائي شعر ت المرأة بأهميتها العظيمة في الاقتصاد الاجتماعي واحتلت مكانتها بالتساوي مع الرجل في التنظيمات السياسية، وكانت لها الصدارة في نظام الزواج والأسرة. لبطون أمومية، وينحدر النسب عن طريق الأم ويتبع فما بينها نظام الزواج من الخارج Exogamy ونظرا لصدارة المرأة من الناحية الاقتصادية فإن الرجل ينتقل إلى بيت زوجته ويعمل في حقلها فهو عنصر جديد يضم إلى القوى العاملة في البطن وكانت الحاجة إلى الأيدي العاملة تفسر أيضا ظهور التبني بين تلك القبائل فلكل بطن أن تتبنى من تشاء من أسرى

الحرب، تدمجه فيها ليعمل في حقلها [1] وتظهر الأهمية الاقتصادية للمرأة في قدرتها على الانفصال عن زوجها برغبتها المنفردة، ويخرج الرجل من بيت زوجته ويعود إلى ذويه، على حين يبقى الأولاد مع أمهم، وكانت المرأة تتساوى والرجل في قيادة التنظيمات السياسية وإمامة الشعائر الدينية، ولم تكن الشعائر الدينية تفرق بين الرجل والمرأة في أي شيء [2].

إلا أنه بعد أن استقر الإنسان بسبب الزراعة في الأرض، بدأ يشعر بحقه في البقاء فيها هو وأولاده من بعده، ونشأت مع الزمن فكرة الملكية الخاصة للأرض وحلت محل الملكية الجماعية للبطن [3] وتولد عن الملكية الفردية أن نزع الرجل النسب من الأم ليورث أولاده فقط، وانقسم المجتمع إلى طبقات اجتماعية تبعا لمقدار الثروة التي يمتلكها الفرد.

([1]) راجع لويس مرجان ، فريزر، وجروس وغيرهم.

([2]) انظر ثروت الأسيوطي، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٦٦، ص ١١٠.

([3]) ليتورنو، الملكية ص ٤٩، ٣٦٦، ٣٦٧ ، ثروت الأسيوطي ، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦٦، ص ١١٢.

وهناك نظريات متعددة عن الأسباب التـــي جعلــت الرجل هو الذي يسيطر على المرأة وليس العكس، إحدى هذه النظريات تعتمد على أن المرأة البدائيـــة انشـــغلت بـــولادة الأطفال في تلك الفترات التي تطلبت زيادة كبيرة في النســـل والتناسل لتعويض الوفيات العالية ولتوفير مزيد من الأيـــدي العاملة في الزراعة الناشئة.

وبازدياد الملكية الفردية وصل التمييز الطبقي إلـــى مجتمع السادة والعبيد [١]، وقد صاحب هذا انحدار في قيمـــة المرأة في المجتمع والأسرة، وسيطر الرجل عليها ســـيطرة اقتصادية واجتماعية ودينية، وفقدت المرأة مكانتها القديمة في الدين وفي إمامة الشعائر الدينية، واحتكر الرجل الدين لنفسه فقط، وأصبحت الآلهة ذكورا فقط، وانخفضت مكانة المـــرأة في الأديان وأصـــبح الأب رأس الأســـرة pater Familias وزعيمها الديني المشرف على الطقوس الدينية فيها، ورسخت مع الأسرة الأبوية ((عبادة الأسلاف)) تدعيما لمركز الأب

(١) فردريك انجلز أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة.

[1]، فارتفع الأب بعد وفاته إلى مصاف الآلهة بينما هبطت المرأة إلى مستوى الماشية، يملك الرجل عليها حق الحياة والموت، وهي وأطفاله في مستوى عبيده وأملاكه وأرضه.

جزر أمومية في محيط أبوي

وبدراسة تاريخ بعض القبائل الإفريقية يتضح أن الانتقال من النظام الأمومي إلى الأبوي قد حدث تدريجيا ومر بمراحل غير منتظمة مثلما حدث في تاريخ مصر القديم، ولا تزال قبيلة ((الاشانتي)) على ساحل العاج من أوضح الأمثلة على مجتمعات سيادة الأم في مرحلة الانتقال، إذ تنقسم القبيلة إلى بطون توتمية تتبع نظام الزواج من الخارج وينحدر النسب عن طريق الأم، وتتمتع المرأة بمكانة بارزة. والنفوذ الأكبر في القبيلة بيد امرأة هي ((الملكة الوالدة)) لكن هذا المجتمع يتحول تدريجيا من مجتمع سيادة المرأة إلى مجتمع سيادة الرجل، ويرتبط ذلك بامتلاك الرجل

---

(1) جروسي، وعلى بدوي أبحاث في تاريخ الشرائع، مجلة القانون والاقتصاد ١٩٣١، ص ٧٣١، ٧٤٦ ثروت الأسيوطي، نظام الأسرة في الدين والاقتصاد ص ١١٥.

الأرض واكتسابه السلطة على أولاده وتغير في نظم الزواج والنسب بحيث تصبح السيادة للرجل [1].

وهناك قبائل في إفريقيا تقف على الحدود الفاصلة بين النظامين الأمومي والأبوي، منها قبيلة الياكو yako في جنوب شرق نيجيريا، والثانية قبيلة النيارو nyaro في جبال النوبة بمديرية الكردفان، في هاتين القبيلتين تعمل المرأة مع الرجل جنبا إلى جنب في الحقل وتشارك في إنتاج الطعام، لذلك ينسب الطفل إلى بطن الأم وبطن الأب معا [2].

غير أن الرجل بدأ ينتزع من المرأة سيادتها، وأجبرها على السكن في بيته بعد الزواج، واستأثر بملكية الإنتاج وهي الأرض وفرض انتقالها من بعده إلى أولاده، كل ذلك بينما يرث أولاد الأخت المنقولات مثل الماشية كما هو الشأن في البطون الأمومية ((إن هاتين القبيلتين تقفان مثل

---

(1) ر. س. راتري، الأشانتي، أكسفورد ١٩٢٣، ارنست جروس، أشكال الأسرة وأشكال الاقتصاد ١٨٩٦، جيمس جورج فريزر، التوتمية والزواج من الخارج لندن ١٩١٠، ر. س. راتري، قانون الاشانتي ودستورهم، لندن ١٩٥٦.

(2) ثروت الأسيوطي، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، القاهرة ١٩٦٦ ص ١١٦.

الصخرة العالية في نهر الزمان، تكسرت خلفها أمواج سيادة المرأة، وبدأ منها تيار حكمها الرجل [١].

وفي جنوب الهند لا تزال هناك بعض المناطق التي تتبع النظام الأمومي، كما في ولاية ((كيرالا)) حيث ترتفع مكانة المرأة وتنسب الأطفال إليها. كما أن هناك قبائل يمكن أن تمثل مرحلة الانتقال من النظام الأمومي إلى النظام الأبوي، وفيها يتضح كيف يستولى الرجل على مكية الإنتاج وكيف يستولى على الدين ويحتكر لنفسه الآلهة والطقوس الدينية، وبعد أن كانت المرأة تشارك في إقامة أمامه الشعائر الدينية إذا بها تحاط بالمخدرات والمحرمات، وتمنع لا من إمامة الشعائر الدينية فقط وإنما تمنع حتى من دخول المعابد.

وبدراسة الحياة في بعض هذه القبائل وجدت أن الأطفال ينسبون إلى الأم لأن الأم تتزوج بأكثر من رجل،

---

(١) ثروت الأسيوطي، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٦، ص ١١٦، ١١٧. راجع المراجع الأخرى في الهوامش عن هاتين القبيلتين (داريل فورد، الانحدار المزدوج لدي قبيلة باكو، س. ف نادل ، الانحدار المزدوج في تلال النوبة).

وإن الأب مجهول في حالات كثيرة. وبالرغم من أن الأم هي عائل الأسرة وهي التي تعمل وتتفق على الأزواج والأطفال إلا أن زعماء القبيلة قد وضعوا تقاليد وقوانين معينـــة قـــالوا عنها إنها جاءت من الإله شيفا وتنص على أن الرجـــل هـــو الحاكم وهو الذي يصدر القرارات ويـــوزع الـــرزق علـــى الناس. وباسم هذه القوانين استولى الرجال على الأجور التي تكسبها النساء ونصب الرجل نفسه حاكمـــا علـــى الأســـرة، وأصبحت النساء مجرد عاملات يعملن تحت سيطرة الرجال وبدأ بعض الرجال بهذه الســـلطة ينســـبون الأطفـــال إلـــيهم ويفرضون على المرأة زوجا واحدًا حتـــى تصـــبح الأبـــوة معروفة.

وتعتبر هذه القبائل مرحلة متوسطة (بين بعض بقايا المجتمع الأمومي في ((كيرالا)) جنوب الهند وبين المجتمع الأبوي السائد في الولايات شمال الهنـــد) وتمثـــل مرحلـــة الانتقال من المجتمع القديم الذي ســـادت فيـــه المـــرأة إلـــى المجتمع الحديث الذي ساد فيه الرجل. وقد اتضح أن الرجل لم يستطع أن ينزع من المـــرأة ســـيادتها إلا عـــن طريـــق الاقتصاد والسيطرة على الملكية والإنتاج، وكذلك الســـيطرة

على الدين عن طريق ادعاء قوانين إلهية جاءت من الآلهة، وباحتكار الآلهة ومعابدهم للذكور،وتحريم دخولها على النساء. وظهر أن الرجال لم يحتكروا الاقتصاد والآلهة والمعابد إلا حينما شعروا بقوة المرأة في الحياة الدنيا. فالمرأة كانت تملك القدرة على خلق الحياة والولادة وهم لا يملكون هذه القدرة. ويبدو أنا المرأة البدائية كانت أقوى من الرجل في نواح أخرى غير الخلق والولادة. فقد لاحظت أن النساء الهنديات في هذه القبائل أشد وأكثر صلابة من الرجال وإن يد المرأة غليظة مشققة قوية كيد الفلاح المصري أما يد الرجل فقد رأيتها ناعمة بضة.

المرأة المصرية القديمة

وفي التاريخ المصري القديم تبدو مرحلة الانتقال من المجتمع الأمومي إلى المجتمع الأبوي واضحة، لأن الحضارة المصرية القديمة هي أولى الحضارات التي عرفت، وعرف عنها المؤرخون الكثير، وقد اكتشف علماء التاريخ أن المرأة المصرية القديمة بعد أن كانت ترسم على الجدران بحجم زوجها تماما دليل التساوي في المكانة والقدر، أصبحت ترسم بحجم أصغر من زوجها ومعنى ذلك أنها

أصبحت أقل قدرا من زوجها، وقد بدا ذلك الانخفاض في مكانة المرأة مع بدء ملكية الأرض وعصر الأسرة السابعة حتى الأسرة العاشرة (٢٤٢٠ إلى ٢١٤٠ ق. م) واستمر وضعها منخفضا في عصر الدولة الوسطى في الأسرة الحادية عشرة حتى الأسرة الثالثة عشرة وعصر الهكسوس، بسبب تفشي العبودية والظلم والإقطاع، ولم تسترد شيئًا من مكانتها الضائعة إلا في عصر الدولة الحديثة (١٥٨٠ ق. م) بعد ثورة النساء والعبيد والشعب المصري القديم كله ضد المستعمرين والإقطاع [1]، واستردت المرأة المصرية القديمة كثيرا من مكانتها الأولى في تلك الفترة وعرفنا الملكات الشهيرات من الأسرة الثامنة عشرة كالملكة نفرتيتي، والملكة حتشبسوت ذات الشخصية القوية التي حكمت مصر اثنتين وعشرين سنة (من ١٥٠٤ إلى ١٤٨٣ ق. م) وقد ظهرت تماثيلها على شكل أبي الهول لها رأس إنسان وجسد أسد رمزا لقوة العقل والجسد معا، وكان عصر حتشبسوت يتميز بالازدهار والتعمير، وأثبتت كفاءتها حاكمة وملكة لكنها بعد

([1]) وليم نظير، المرأة في تاريخ مصر القديم، دار القلم، القاهرة ١٩٦٥، ص ٢٨.

أن ماتت خلفها تحتمس الثالث وأمر بتدمير تماثيلها وتشويه رسومها ونقوشها.

أما مكانة المرأة المصرية القديمة فقد تجلت في الدولة القديمة قبل الملكية والإقطاع، وكانت المرأة الفرعونية تعمل في المصانع بالغزل والنسيج وصنع السجاجيد وتعمل بالتجارة في الأسواق وتشارك زوجها أعمال الصيد، وكانت الزوجة ترسم على المقبرة حتى الأسرتين الثالثة والرابعة (٢٧٨٠ ق. م) بحجم زوجها كدليل على المساواة في الشرف والمكانة والحقوق والواجبات. وفي تمثال ((باهجم)) (في معبد الكرنك) تتقدم الزوجة زوجها، وهناك نصب تذكاري خاص بالسيدة ((بيسيشت)) في عصر الدولة القديمة يبين أنها كانت مديرة للأطباء، وقد حوكم أحد الأزواج لأنه سب زوجته بالجلد مائة جلدة، وبحرمانه من نصيبه من المال الذي كسبه بالاشتراك معها إذا عاد إلى سبها (١).

وكان للمرأة المصرية القديمة حظ كبير من الثقافة. ويحكى عن موظف اسمه (خنوم ردي) كان أمينا لمكتبة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠.

سيدة عظيمة تدعى (نفروكابيث) ويقول إن هذه السيدة قد عينتني في دندرة مشرفا على خزائن الكتب الخاصة بأمه، وكانت تحب العلوم والفنون [1].

ومارست المرأة المصرية القديمة الرياضة والسباحة والأعمال البهلوانية كالرجال سواء بسواء، وكانت النساء كالرجال يشربن الخمور في الحفلات بل ويسرفن في الشراب ويقرعن كؤوسهن مع الرجال، وتقول إحداهن: ناولني ثمانية عشر قدحا من النبيذ إني أريد أن أشرب حتى أنتشي، إن داخلي مثل القش.

ويعتقد بعض علماء الآثار مثل (ارمان) و (موريه) و (برستد) أن الطفل كان ينسب إلى أمه، ومارست المرأة كل الأعمال، كانت حامية وحاكمة وملكة وكاهنة وإلهة.

ولم تعرف المرأة المصرية القديمة الحجاب ولم يكن هناك فصل بين الجنسين، وكان الزوج والزوجة متساويين في كل شيء في الدولة القديمة حتى الأسرتين الثالثة

---

(1) المصدر السابق ص ٦٨.

والرابعة. وعندما سيطر النظام الإقطاعي [1] على الحكم في عهد الأسرة الخامسة فرض الرجل نظامه الأبــوي ليــورث أبناءه، وبدأ مع النظام الأبوي تعدد الزوجات ثم نظام التسري (المحظيات) وظهر الأطفال غير الشــرعيين وانخفضــت مكانة المرأة.

وقد حدثت أول ثورة اشتراكية في التاريخ البشري ضــد الإقطاع سنة (٢٤٢٠ ق. م) في عهد الأسرة الســابعة، وهــي الثورة التي عرفت باسم ثورة ((منف)) ضد الإقطاع والملوك، وقد حرق المصريون والمصريات القصر الملكي نفسه، ونــادوا بتكافؤ الفرص، ونادوا باحتقار الملكية، لكن بعــض المــؤرخين صوروا الأزمة على إنها مجرد تغيير الأيــدي القابضــة علــى الثروات، وكتب بعضهم يقول: إن أولئك الــذين لــم يكــن فــي مقدورهم أن يأمروا بصنع صندل لأقدامهم قد استولوا على الكنوز [2].

---

(١) عادل أحمد سركيس، دار الكتــاب العرفــي، القــاهرة ١٩٦٧، ومصر الفرعونية تأليف جان يويوت، ترجمة سعد زهــران، الألف كتاب (بإشراف الإدارة العامة الثقافية بوزارة التعليم العــالي) ١٩٦٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٦.

وقد عاد الإقطاع مرة أخرى، وثار الشعب المصري مرة ثانية سنة (٢١٦٠ ق. م) ضد الإقطاعيين من الفراعنة. وجاءت الأسرة العاشرة ونظام ((الـرودو)). وقضى على نظام التسري، واختفت ظاهرة الأطفال غير الشرعيين لانتساب الأطفال إلى أمهاتهم ثم عاد الإقطاع في عهد الإقطاع الثاني عام (١٠٩٤ ق. م) حين استولى ((حرحورز)) الكاهن الأعظم على السلطنة، وعاد نظام التسري، وأصبح للرجل وحده حق الطلاق وحق الكهنوتية.

وفي عهد الملك بوكخوريس من الأسرة المالكة ٢٤ بعد القضاء على الإقطاع عام ٦٦٣ ق. م تحرر الأبناء من سلطنة الأب واستردت المرأة حقوقها وتحرر الزواج من سلطنة الكهنة فلم يعد الزواج ذا قدسية دينية، وقد اتضح أنه مع نظام الأبوي يصبح للأب سلطة دينية وكهنوتية، ويفرض على الزواج قوانين دينية، ومع النظام الأبوي أيضا وجد أنه لا بد من وجود نظام التسري (المحظيات) وتعدد الزوجات مع فرض القيود على المرأة دينيا واجتماعيا وجنسيا.

مولد الازدواجية الأخلاقية

كان الملك البدائي يحتاج للعبيد والأجراء كي يشتغلوا في أرضه التي يملكها والتي أصبحت تزداد بازدياد الملكية والجشع والإقطاع، وتطلبت الحياة الاقتصادية الجديدة التي بنيت عليها قيم اجتماعية ودينية يستهدف الحفاظ عليها نسلا كثير العدد لزراعة الأرض وإقامة الصلوات على أرواح الموتى من الذكور. واقتضى ذلك تعدد الزوجات الذي يؤدي أيضًا إلى زيادة ثروة الرجل حيث تقوم المرأة بالأعمال اليدوية كافة في الحقل وفي البيت بلا أجر، فهي أجير بلا أجر، يعمل مهضوم الحق ويرحب بوجود أجراء آخرين يشاركونه العمل ويخففون عنه الظلم والعبء.

وتعدد الزوجات يشبع رغبات الرجل الجنسية، وكان لا بد من تدعيم هذا الحق للرجال عن طريق الدين ليخدم بقدسية أغراض الرجل الاقتصادية والجنسية معا، على حين اقتضى النظام الأبوي ونسب الأطفال إلى الرجل أن يفرض على المرأة زوجا واحدا. وكان لا بد من تدعيم ذلك الفرض على النساء عن طريق الدين أيضًا ليخدم بقدسية امتلاك الرجل للمرأة اقتصاديا وجنسيا في آن واحد.

ولأن فرض زوج واحد على المرأة لم يكن يشبع حاجاتها الجنسية، بالإضافة إلى أن هذا الزوج لم يكن لها وحدها وإنما كانت تشترك معها فيه نساء أخريات، فقد أصبح نصيب المرأة من الجنس ضئيلا جدا لا يزيد عن جزء من رجل، وهو أمر كان يتعارض بطبيعة الحال مع إشباع رغبة المرأة البدائية القوية.

وقد قاومت المرأة بالضرورة هذه القيد لتمارس حياتها الطبيعية، وقد قام الرجل بالطبع مقاومة المرأة بقوانين أشد صرامة، ومنها القتل للخيانة الزوجية، ومنها الحبس، ومنها تجربة الماء المر الذي كان يفرضه الكهنة على المرأة المتهمة بخيانة زوجها فإذا لم يتورم بطنها بتناولها هذا السم تصبح بريئة وإذا تورم بطنها فهي مذنبة وتصبح عارا على أهلها. ومنها وسائل اختبار العذرية وعلامة البكارة، وأقلها بلا شك هي ((الغيرة)) تلك العاطفة التي ألبسها الرجل الحديث ثوب النبل والحب، وتغنى بها الأدباء والشعراء في الشرق والغرب، ولم تكن غيرة ((عطيل)) الشهيرة في أدب شكسبير وقتله ((لديزديمونا)) إلا إفراغ لتلك الشحنة

العاطفية الجامحة التي توارثها الرجال منذ بدأت الملكية الفردية.

لقد فرضت على النساء العفة والإخلاص الزوجي بكافة القوانين السماوية والأرضية الممكنة حتى لا يتسرب إلى الرجل المالك أي شك في اشتراك طفل غريب مع أطفاله في ميراث أمواله.

وبرغم كثرة القوانين المقدسة والإلهية والوضعية الصارمة في هذا المجال وبرغم كثرة التجارب والفحوص للتأكد من الإخلاص والعذرية، فإن ((الشك)) في إخلاص المرأة ظل ملازما للرجل منذ العهود البدائية حتى عصرنا الحديث، مما يدل على أنه ((شك)) في موضعه وله مبرراته المنطقية المقنعة.

وهذا يفسر لنا سبب تلك الازدواجية الأخلاقية التي هي إحدى السمات المميزة لمعظم المجتمعات والتي نبعت منذ العهود البدائية الأولى حين استولى الرجل على المرأة اقتصاديا وجنسيا، وما نتج عن ذلك من انحدار في قيمة المرأة في الدين وفي المجتمع وفي البيت أيضًا، وبلغ انحدار

المرأة مداه عند قدماء الرومان إذ أصبحت المرأة في قبضة الرجل [1].

وتوالت عهود الظلام بالنسبة للمرأة، تحولت فيها من قائدة للمجتمع ينحدر منها النسب إلى جارية أجيرة حبيسة تباع وتشترى، إما بيعها واضحا في سوق الرقيق والعبيد، وإما بيعا مقنعا بعقد الزواج، ولم تعد المرأة تزوج نفسها وإنما أصبح أبوها أو ولي أمرها من الرجال يزوجها بمن يشاء نظير المال، بالضبط كما يتصرف الأب الروماني في ((الفاميليا)) [2].

وقد بلغ من سيطرة الرجل على المرأة في القانون الروماني أن الأب لم يكن له حق بيع ابنته كالرقيق فحسب

---

(1) فوشيل دي كولانج، المدينة العتيقة، طبعة هاشيت، باريس ١٩٤٨، ص ٩٥.

(2) ثروت الأسيوطي ، نظام الأسرة بين الاقتصاد ، ص ١١٩.

ولكنه كان يملك حق قتلها أيضًا، وبعد الزواج يحل الــزوج محل الأب والسيطرة على المرأة وامتلاكها بحكم القانون [١].

تحرير العبيد لم يحرر المرأة

استمدت الأديان السماوية مبادئها الخاصة بالمرأة من الأنظمة الأبوية الطبقيــة القائمــة علــى الأســياد والعبيــد والجواري، وتعتبر رسالات الأنبياء موسى وعيسى ومحمــد ثورة على تلك الأنظمة العبودية، ورغم اختلاف ثــورة كــل منهم حسب ظروف مجتمعه الاقتصادية والاجتماعية إلا إنهم كانوا جميعا ضد الظلم والعبودية بصورة عامة، ولهذا نالــت المرأة من هذه الثورات بعض الأنصاف وخاصة في الفترات الأولى لهذه الثورات، ولكن وضع المرأة ظل أقل من الرجل في الأديان الثلاثة، وعلى الأخص في الديانة اليهودية.

وكان البيت العبري هو الأسرة الأبوية حيث ســلطة الأب المطلقة المعروفة لدي فاميليا قدماء الرومان، ويتكــون بيت بني إسرائيل من الرجل وعدد من الزوجات والسراري

---

(١) انظر: V- Givavd Droit Romanin, ١٨٩ et Suiv.
Et v. Glats : La Solidavite de lafamille en Grece. P. ٣١ et Suiv.

(الإماء) والأولاد من الزوجات و السراري وزوجات الأولاد والأحفاد بالإضافة إلى العبيد [1]. ويرأس هذا البيت الأب ويسمى ((روش)) أي رأسا [2] ويتمتع بسلطات قضائية مطلقة [3]. ويختار وريثه في حرية تامة [4]. ويستطيع التصرف في أبنائه كما يشاء فله أن يبيع ابنته لمن يرغب في شرائها [5]. بل يملك على أولاده حق لموت والحياة، يقتلهم إذا شاء [6]. أو يقدمهم قربانا للرب [7]. وقد خضع إسحاق لأبيه إبراهيم حين أراد أن يذبحه للإله ((يهوه)) ويمتد هذا الحق إلى من يعيش في كنفه، فله أن يحرق زوجة ابنه المتوفى إذا زنت [8]. والمرأة في البيت

---

(١) ليفي الأسرة ص ٧٩، دي فو، نظم العهد القديم ج ١ ص ٣٩.

(٢) أخبار الأيام الأولى الإصحاح ٧ الآية ٧.

(٣) سفر التكوين الإصحاح ٣٨ الآية ٢٤.

(٤) سفر التكوين الإصحاح ٤٨ الآية ١٤ وما بعدها.

(٥) سفر التكوين الإصحاح ٢٢ الآية ٣٧ وما بعدها.

(٦) سفر التكوين الإصحاح ٤٢ الآية ٣٧.

(٧) سفر التكوين الإصحاح ٢٢ الآية ١٠.

(٨) سفر التكوين الإصحاح ٣٨ الآية ٢٤.

الإسرائيلي كانت جزءا من الفاميليا Farnilia الرومانيـــة أي جزءا من التركة المكونة من العبيد والأموال، وهـــذا البيـــت يشمل المرأة والأمة والثور والحمار والأشياء الأخرى [١].

والرجل يسمى بعل المرأة أي سيدها [٢] وهي تخاطبه بعبارة سيدي [٣] والفرحة بمولد الابن أكبر منها عنـــد مولـــد البنت [٤].

وبرغم القيود على المرأة فقد كـــان الرجـــل متعـــدد الزوجات يمارس الجنس مع زوجاته وإمائه بل وبناته أحيانا، فقد اضطجعت ابنتا ((لوط)) مع أبيهما نفسه وحملتـــا منـــه [٥]. كما أن يعقوب جمع بين الأختين [٦]، وكان الرجل يطلق المرأة في أي وقت يشاء. وتذكر التوراة ((إبراهيم)) حـــين طرد سريته ((هاجرا)) المصرية وابنهـــا ((إســـماعيل))

---

(١) سفر التكوين الإصحاح ٢٠ الآية ١٧.

(٢) سفر الخروج الإصحاح ٢١ الآية ٣.

(٣) سفر التكوين الإصحاح ١٨ الآية ١٢.

(٤) سفر التكوين الإصحاح ٣٥ الآية ١٧.

(٥) سفر التكوين الإصحاح ٩ الآية ٣٠- ٣٨.

(٦) سفر التكوين الإصحاح ٢٩ الآية ١٥ وما بعدها.

أعطاهما قدرا من الخبز وقربة ماء، فمضيا إلـــى ســـبيلهما وتاها في الصحراء [1].

وقد انتشر تعدد الزوجات عند بني إسرائيل، خاصـــة بين أغنياء الرجال وعلى قمتهم الملـــوك: تـــزوج ((داود)) نساء كثيرات بالإضافة إلى الإماء السراري [2].

واقترن ((رحبمعام)) بثماني عشرة امرأة وســـتين سرية ولدن له ثمانية وعشرين ابنا وستين ابنة [3]، وتـــزوج. ((ابيا)) أربع عشرة امرأة وأنجب اثنين وعشرين ابنا وست عشرة بنتا [4]، ((أما سليمان)) فقد تفوق على هؤلاء جميعـــا وتزوج ٧٠٠ امرأة عدا ٣٠٠ من السراري [5]. وقـــد بـــدأ

([1]) سفر التكوين الإصحاح ٢١ الآية ١٤.

([2]) صموئيل الأول الإصحاح ١٨ الآية ٢٧، والإصحاح ٢٥ والآية ٣٩، ٤٣، صموئيل الثاني. الإصحاح ٣ الآية ٤،٣ والإصـــحاح ٥ الآية ١٣.

([3]) أخبار الأيام الثاني الإصحاح ١١ الآية ٢١.

([4]) أخبار الأيام الثاني الإصحاح ١٣ الآية ٢١.

([5]) الملوك الأول الإصحاح ١١ والآية ٣.

سليمان حياته بجريمة قتل هي اغتياله لأخيه الأكبر حين نافسه في ميراث أبيهما من الحريم [1].

وفي مقابل هذه الحرية الجنسية التي يتمتع بها الرجال كانت القيود مفروضة على المرأة ومنها العذرية. وكان الرجل يشترط أن يتزوج فتاته عذراء، فإن لم تثبت عذريتها طلقها، إلا إنه عندما عم الفساد وبدأت موجة الإصلاح في أواخر القرن السابع ق. م قيدت حرية الرجل في الطلاق، وحرم عليه الطرق في حالتين هما:-

أولا: إذا ادعى الرجل أن زوجته ليست بكرا، أخذ أبوها وأمها علامة بكارتها وبسطا الثوب أمام شيوخ المدينة، وتولى هؤلاء تأديب الزوج وتغريمه مائة من الفضة تعطى للوالد لأن ((الزوج)) أشاع اسما رديا عن عذراء من إسرائيل فتكون له زوجة ويمتنع عليه أن يطلقها ((كل أيامه)) [2].

---

(1) الملوك الأول الإصحاح ٢ والآيات من ١٣ – ٢٥.

(2) سفر التثنية الإصحاح ٢٢ الآية ١٣ إلى الآية ١٩.

ثانيًا: إذا كانت الفتاة عذراء وعاشرها الرجل قبل الزواج، يلتزم بأن يسلم أباها خمسين من الفضة وأن يتزوجها وألا يطلقها ((كل أيامه)) [1].

أما الزوجة التي طلقها زوجها فتزوجت برجل آخر ثم طلقها هذا الآخر أو مات فإنه ممنوع على زوجها الأول أن يردها إليه ((بعد أن تتجست)) [2].

وكانت العبودية تسود المجتمع والنظام الأبوي يسيطر على الأسرة، والكهنة الرجال يمنحون أنفسهم سلطات اجتماعية، وشاعت في ذلك الوقت تجربة الماء المر للمرأة المتهمة بالزنا.

وقد اختلفت نظرة المجتمع إلى موضوع الزنا باختلاف مراحل التطور الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها البشرية. كانت القبائل البدائية والمجتمعات الأمومية تبيح الحرية الجنسية للرجال والنساء على قدم المساواة، لكن مع ظهور الملكية الفردية وازدياد غريزة التملك ونشوء النظام الأبوي أصبح الرجل يطالب زوجته بالإخلاص له بعد

---

(1) سفر التثنية الإصحاح ٢٢ الآية ٢٨ – ٢٩.
(2) سفر التثنية الإصحاح ٢٤ الآية ١ – ٤.

الزواج بحيث لا يقربها رجل غيره، وأصبح يطالبها بالعفة والعذرية قبل الزواج، وقد دأبت المجتمعات الأبوية في عهودها الأولى على وضع حلول لمشكلة الزنا تستوحيها من نظمها التسلطية وتتفق مع طغيان الرجل.

ومن هؤلاء رجال بني إسرائيل، الذين قضوا على المرأة الزانية بالإعدام إما ((حرقا))مثلما حال ((يهوذا)) مع زوجة ابنه ((ثامار))، وإما ((رجما)) وهي القاعدة التي وردت في سفر التثنية (1). أما الرجل فيعاشر الزوجات والسراري والإماء ويزني كما يشاء وبغير عقاب . وقد أعطى القانون الروماني للرجل حق الحياة والموت على المرأة الزانية.

وقد ظهر الإسلام أيضا في مجتمع أبوي قائم على الملكية الفردية ونظام الطبقات والأسياد والعبيد، فأصبحت السلطة في الإسلام للرجل رأس الأسرة، والحاكم والخليفة والإمام والوالي والقاضي والشاهد وهي كلها مناصب تخص الرجل وحده. وورث الإسلام عن اليهودية العقاب بالرجم في

---

(1) سفر التكوين الإصحاح ٣٨ الآية ٢٤، وسفر التثنية الإصحاح ٢٢ الآية ٢١.

مسألة الزنا وقد رجمت نساء بالحجارة حتى الموت في عهد النبي محمد وفي عهود الإسلام الأولى. وينص الإسلام على أن يرجم الزاني والزانية لكن إباحة تعدد العلاقات الجنسية مع الجواري والإماء من ملك اليمين جعلت الرجال المسلمين في غير حاجة إلى الزنا، وبالذات هؤلاء السادة الذين يملكون المال أو الإبل مما يجعلهم قادرين على تغيير زوجاتهم من حين إلى حين كلما لاحت لهم امرأة أكثر حسناً وأكثر شبابًا، وما يجعلهم قادرين على شراء الجواري والإماء في سوق الرقيق، وما الذي كان يمكن أن يجبر الرجل العربي المسلم في ذلك الوقت على الزنا إذا كان في مقدوره أن يطلق زوجته في أي لحظة ويتزوج أي عدد غيرها من الناس بل ويجمع معها زوجات أخريات يصل عددهن إلى أربعة بل ويجمع معها من الجواري والإماء ما يستطيع أن يشتري وما تستطيع يمينه أن تملك؟ وعلى هذا لم تكن قوانين الزنا إلا من أجل عقاب النساء وحدهن لأنهن بارتكاب الزنا يخرجن عن النظام الأبوي الذي حدد للمرأة زوجا واحدا في ظل الأسرة وكذلك أيضًا عقاب الرجال الفقراء من الأجراء والعبيد الذين يعجزون عن الزواج ودفع المهر للعروس أو

يعجزون عن تغيير زوجاتهم واقتناء عدد من الزوجـــات، أو يعجزون عن شراء الجواري والإماء من سوق العبيد الـــذي كان شائعا في تلك العهود.

وتختلف المسيحية عن اليهودية والإسلام فـــي أنهـــا كانت أكثر تعقيدا لحرية الرجال الجنسية. وقد بـــدأ المســـيح بنفسه إذ حرم على نفسه الجنس والزواج، ولم تعرف الجنس والزواج أيضا أمه مريم العذراء وقد قال المســـيح: ((وقـــد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن، وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى في قلبه)) [1].

وكان الرجال قبل المسيحية يتبعون الشريعة اليهودية التي تمنح حق الطلاق دون إبداء الأسباب. فلما ظهر المسيح ذهب إليه بعض القوم يسألونه الرأي فيما تذهب شريعتهم من إباحة الطلاق. وقد جاء في انجيـــل متـــى – وجـــاء إليـــه الفريسيون ليجربوه قائلين له هل يحل للرجل أن يطلق امرأته

---

(1) انجيل متى، ٢٧٥ – ٢٨.

لكل سبب، فأجاب وقال إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنـــا وتزوج بأخرى يزني، والذي تزوج بمطلقة يزني [1].

ولم يتبع المسيح اليهودية في مسألة رجـــم الزانيـــة بالحجارة، وقبل توبتها ورفض رجمهـــا بالحجـــارة، ومنـــع الفريسيين من ذلك بقولته الشهيرة ((من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجر)).

وقد ظهرت العقيدة المسيحية في ظل الإمبراطوريـــة الرومانية دولة السادة والعبيد، ودولة النظام الأبـــوي حيـــث يملك الرجل المرأة كما يملك أبقاره وله عليها حـــق الحيـــاة والموت، وكذلك له على عبيده حق الحيـــاة والمـــوت. أمـــا الرجال من الأسياد والحكام فقد كان لهـــم حـــق الاســـتماع بالجمال والجنس والملذات في الدنيا والآخـــرة، وفقـــد كـــان الرجل من هؤلاء بعد وفاته يرتفع إلى مصاف الآلهة.

ولقد كان المسيح زعيما لثورة العبيد والفقراء، وقـــد حارب أثرياء اليهود من قومه الذين تعـــاونوا مـــع الســـلطة الرومانية، وحارب الأسياد من الرومان، وقاد العبيد والفقراء

([1]) انجيل متى الإصـــحاح ١٩ والآيـــة ٣ والإصـــحاح ٥ والآية ٣٢.

في ثورة فكرية ضد هؤلاء جميعا بكل ما كانوا يمثلونه في ذلك الوقت من فساد أخلاقي أو استغلال اقتصادي.

وهذا هو السبب في أن المسيحية في فجرها الأول أعلت الجانب الأخلاقي الروحاني وحاربت ملذات الحياة الجنسية التي تتضمن الجنس أيضا. ولأن العبيد ونساءهم كانوا هم وحدهم ضحايا حرية الرجال الرومان الجنسية فقد جاء تحريم الزنا على الرجل مثل المرأة مصلحة لهؤلاء العبيد والفقراء الذين وجدوا في تعاليم المسيح إنقاذا لهم من سطوة الأسياد والأثرياء. وأدت روحانيات المسيحية إلى منع تعدد الزوجات والارتياب في الزيجات المتعاقبة. إلا أن المسيحية فيما بعد أباحت للرجل نظام ((التسري)). وبرغم تقييد حرية الرجال الجنسية في ظل المسيحية بصفة عامة إلا أن المرأة ظلت أقل من الرجل مكانة بسبب النظام الأبوي السائد في ذلك الوقت والذي اشتد قوة بنشوء النظام الإقطاعي في المراحل الأخيرة من الإمبراطورية الرومانية، وقد اتجهت الكنيسة في ظل الإقطاع إلى الابتعاد عن تعاليم المسيح الأولى، ارتبط رجال الكنيسة والكهنة بالسلطة وامتلاك الأرض، وأصبحت التقاليد الدينية تشيد بالطبقية

والإقطاع وخاصة في العصور الوسطى المظلمة،وأصبح الرب هو الإقطاعي صاحب الأرض، ربما أن هذا الرب قد عين الكهنة ممثلين له على الأرض فإنهم أصحاب الأرض من غير جدال. وباشتداد النظام الإقطاعي الأبوي اشتد انحدار قيمة لامرأة واشتد اضطهادها واتهامها بأنها خليفة الشيطان وسبب الكوارث، وحكمها الرجل داخل البيت وخارجه بقوانين صارمة تصل أحيانا إلى حد القتل والحرق لأتفه الأسباب أو لأسباب يختلقها الأسياد.

وبرغم أن المسيحية في أولها كانت ضد تعدد الزوجات إلا أن نشوء الإقطاع وما صاحبه من رغبة في زيادة النسل لتوفير مزيد من الأيدي العالمة لدى رب الأسرة الأبوية كذلك لتعويض نسب الوفيات العالية قد ساعد على إباحة تعدد الزوجات.

إلا أن الوحدانية في الزواج ظلت مفروضة على المرأة وحدها، وظل الإخلاص الزوجي مفروضا عليها حتى لا ينهار النظام الأبوي والأسرة الأبوية، وظلت الأفكار التي تمجد العذرية والعذراء، وأعطوا مريم العذراء لقب آلهة

السماء والأرض وهو لقب الآلهة الأنثى القديمة قبل ظهور اليهودية.

وأصبحت المرأة في المسيحية، كما كانت في اليهودية من قبيل، كبش الفداء الذي يقع بين فكي الصراع الضاري بين الروح والجسد أو بين الخير والشر، وقالوا إن الله خلق الرجل صورة منه، وأن الله روح، أما المرأة فهي الجسد والجنس.

وكان ترترليان Tortullian أحد آباء الكنيسة قد قال إن النص في التوراة الداعي إلى أن تغطي المرأة رأسها يرجع إلى أن حواء هي المسئولة عن الآثم كله، ولهذا يجب أن تغطي رأسها احتقارا لهذا الرأس المدنس الآثم. ويخاطب ترترليان حواء في هذا الصدد قائلا: ((أنت الباب الذي يقود إلى الشيطان، أنت التي فتحت الطريق إلى تلك الشجرة المحرمة، أول من عصى أمر الله أنت التي أغريته، حين عجز الشيطان عن أن يغريه، أنت حطمت بسهولة صورة الرجل الإلهية، أنت سبب الموت، وبسببك أيضا يموت ابن الله)) [١].

Tertuttiaan. a lulfu Fem. ١. ١. (١)

وقد ترددت هذه الأفكار عن المرأة على ألسنة المفكرين والكتاب العرب أمثال المعري وابن الفارض والحلاج والسهروردي والعقاد وغيرهم حتى قرننا العشرين.

ومن هؤلاء أيضا زكي مبارك الذي قال:

((المرأة تملك أصول الشهوات، وهي باب الدمار والخذلان، والمرأة هي الجحيم، هي البلاء يصبه الله على رؤوس العباد، هي الشقاء المعجل، والكرب الذي يسبق الموت، والمرأة في جميع أحوالها مصدر فساد ولها مداخل إلى الفتنة يعجز عنها إبليس))[1].

وقد ظهر الإسلام بعد المسيحية، وكان محمد، في أسفاره التجارية خارج الحجاز يلتقي بقوم يرددون أمامه آيات من التوراة والإنجيل وكان أول حياته راعيا فقيرا، والمجتمع العربي في ذلك الوقت كان قائما على السادة والعبيد، وبدأت ثورة محمد في أولها ضد لهذه النظام الطبقي العبودي ودافع في أحاديثه عن الفقراء والنساء، إلا أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية في ذلك الوقت كانت قائمة

---

(1) مصطفى النهيري، المثقفون والأنثى في الحضارة، دار الكتاب بالدار البيضاء، ١٩٧٥ ص ١٤٧.

على سيطرة الرجل في معظم القبائل العربيــة ((باســتثناء بعض القبائل الأمومية)) ولهذا استمرت هذه القيم الأبوية في الإسلام، كما أن المجتمع العربي الإسلامي كان في حاجة إلى زيادة نسله ليزداد قوة في مواجهة الأعداء. ومن أجل بنــاء الدولة الإسلامية ولكثرة أعداد أسيرات الحروب والجــواري فقد أباح الإسلام تعدد الزوجات في تلــك الفتــرات الأولــى وأعطى الرجال حرية جنسية واسعة مــن حيــث الاتصــال بالجواري والإماء، وما ملكت يمينهم، وهي حرية لــم يكــن ليتمتع بها من الناحية العملية إلا الرجال من طبقــة التجــار والأثرياء القادرين على نفقات الزواج بــأكثر مــن واحــدة والقادرين على شراء العبيد والجواري من النساء.

وقد كان المجتمع العربي في عصر الجاهليــة يقــوم على الرق والعبيد وكانت أسيرات الحــرب يعتبــرن كمــا اعتبرهن الإسلام فيما بعد ملكا لليمين، وقد أبــاح الإســلام للرجل أن يعاشر الرقيقات جنسيا دون أن يسمى ذلك زواجا بل سماه ((تسريا)). والرجل ليس ملزما على الإطلاق بأن يعترف بالولد الذي تلده إحدى جواريــه، وإذا اعتــرف بــه يصبح الولد حرا وتصبح الأم حرة بعد وفاة سيدها.

ولا شك أن العبيد والجواري قد حظوا في ظل الإسلام بحقوق لم تكن لهم قبل الإسلام. وقد حارب الإسلام الرق والظلم والفساد والبغاء وشرب الخمر ولعب الميسر. والربا، إلا أن الرجل ظل في الإسلام و السيد وهو القوام على المرأة، والزواج في الإسلام ظل أشبه ما يكون بعقد تمليك، يملك الزوج زوجته بحكم الصداق ((المهر)) والإنفاق، وواجب الزوجة الطاعة ومن حق الرج المسلم أن يطلق زوجته لأي سبب يراه هو، وله حق تعدد الزوجات.

وهكذا ظلت المرأة العربية المسلمة جزءا من ممتلكات الرجل وما زالت معظم البلاد العربية بها فيها مصر تحكم على نسائها بهذه القوانين الجائرة في الزواج حتى اليوم.

ويكتب أحد الكتاب العرب الذين اشتهروا في أدبنا المعاصر وهو عباس محمود العقاد مشيدا بهذا النظام الأبوي القبلي ويؤكد وضع المرأة كجزء من ممتلكات الرجل حين يقول: لأن ((المتعة)) من ضرورات الحياة بين أهل

البادية، ولا مناص من الاشتهار بمناعة الزوجة بين الأعداء والنظراء وأول زوجة يحميها الرجل هي المرأة [1].

منابع إيجابية للمرأة العربية

سبقت المرأة العربية المرأة الأوروبية والأمريكية في مقاومة النظام الطبقي الأبوي. إن المرأة الأمريكية لم تفطن إلا هذه السنوات الأخيرة من القرن العشرين إلى أن اللغة السائدة هي لغة الرجل، وإن كلمة ((رجل)) تعني الإنسان أو البشرية جمعاء، وإن صيغة المذكر تشمل الرجال والنساء معا، وتحاول اليوم بعض حركات تحرير المرأة في أمريكا وأوروبا تغيير اللغة.

أما المرأة العربية فقد فعلت ذلك منذ أربعة عشر قرنا، فقد كانت صيغة المذكر هي التي تطلق على الرجال والنساء في القرآن، فاعترضت على ذلك النساء العربيات قائلات: ((أسلمنا كما أسلمتم وفعلنا ما فعلتم فتذكرون في القرآن ولا نذكر؟)) وكان الناس يسمون المسلمين فأنزل الله

---

(1) عباس العقاد، جميل بثينة، ص ١٨.

فـــي القـــرآن ((إن المســـلمين والمســـلمات والمـــؤمنين والمؤمنات)) [1].

وكنت أندهش كلما قرأت في تـــاريخ العـــرب قبـــل الإسلام وفي المراحل الأولى للإسلام عن تلك الشخصـــيات النسائية المتعددة اللائي برزن في المجتمع، وعـــن الأهميـــة الكبيرة التي نالتها نساء العرب ســـواء فـــي الأدب والثقافـــة والفنون أو الحـــب والجـــنس أو فـــي الحيـــاة الاجتماعيـــة والاقتصادية، بل منهن من برزن في السياســـة والحـــروب والقتال سواء قبل الإسلام أو بعده وفي حياة محمـــد رســـول المسلمين نفسه.

ويحفل تاريخ العرب بأسماء هؤلاء النساء ومنهن نسيبة بنت كعب التي حاربت جنب محمد بالسيف في معركة ((أُحد)) ولم تكف عن القتال حتى جرحت ثلاثة عشر جرحًا، وقال عنهـــا محمد: إن مقامها خير من الرجال[2]. ومنهن أيضا أم سليم بنـــت

([1]) انظر محمد بن سعد، الجـــزء ٨، ص ١٤٥، والقـــرآن سورة الأحزاب الآية ٣٥.

([2]) محمد بن سعد ، الطبقات الكبرى، ح ٨، دار التحريـــر، القاهرة، ١٩٧٠ ص ٣٥٢.

ملحان التي حزمت الخنجر على وسطها وهي حامل وحاربت مع محمد وقومه من المسلمين. أما النساء اللائي اشتركن في الحروب ضد محمد والمسلمين فمنهن ((هند بنت ربيعة)) وزوجة أبي سفيان التي ارتدت الحديد والزرد في معركة ((أحد)) ووضعت قناع الحرب وشهرت السيف تطعن به الصدور [1]. وكانت ((هند)) امرأة عربية تملك حريتها وإرادتها، وقد قالت لأبيها:

((أنا امرأة قد ملكت أمري فلا تزوجني رجلا تعرضه علي، فقال لها أبوها ذلك لك)) [2].

وكانت ((هند)) قوية الحجة سريعة الرد حتى على محمد رسول المسلمين وحين جاءت إليه مع النساء ليبايعن على الإسلام أخذ النبي يتلو عليهن مبادئ الدين الجديد وحين قال لهن: ((ولا تقتلن أولادكن)) ردت عليه ((هند)) قائلة ((أنت قتلتهم)) [3]. وكانت تعني بذلك أن ((محمدًا)) ورجاله قتلوا الكثيرين في غزوة ((بدر)) التي انتصر فيها المسلمون على أهل قريش وقتل فيها ضمن من قتل أبو هند،

([1]) عبد الرحمن الشرقاوي، محمد رسول الحرية، كتاب الهلال، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢١٧.

([2]) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ١٧١.

([3]) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ١٧٢.

عتبة بن ربيعة و أخوه شيبة وابنه الوليد ابن عتبة أخو هند، وكانت هند قد أقسمت منذ مقتلهم على أن تثأر لأبيها وأخيها، وفعلا نفذت ((هند)) قسمها ثم اشتركت في حرب ((أحد)) التي انتصرت فيها وقومها على المسلمين.

ومن أبرز النساء العربيات السيدة خديجة زوجة النبي محمد الأولى، وهي امرأة عربية كانت لها شخصيتها واستقلالها الاقتصادي والاجتماعي وحريتها في اختيار الرجل الذي تريده،، وهي التي أرادت أن تتزوج ((محمدًا)) وهي تكبره بخمسة عشر عاما، وأرسلت إليه امرأة اسمها نفيسة تعرض عليها الزواج منها، وجاء في كتبا الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد وهو أول تاريخ قومي للعرب ((قالت نفيسة – فأرسلتني إليه دسيسا أعرض عليه نكاحها ففعل)) [1]، وكانت خديجة قد عرفت ((محمدًا)) من خلال تشغيلها له في تجارتها واستثمار أموالها.

وقد كان المجتمع العربي قبل الإسلام يتكون من قبائل مختلفة تعيش ظروفا اقتصادية مختلفة في الصحراء

([1]) محمد بن سعد ، الطبقات الكبرى، الجزء الثامن، دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة ١٩٧٠، ص ٩.

وفي المدن، وكانت بعض هذه القبائل أمومية، ينسب الأطفال فيها إلى أمهاتهم مثل قبيلة خندق وجديلة [1]. ومن ملوك العرب قبل الإسلام من نسب إلى أمه كعمرو بن هند، وكان ((محمد)) نفسه يفخر بانتسابه إلى نساء قبيلته قائلا عن نفسه: أنا ابن العواتك من سليم (عاتكة بنت هلال بنت مرة، وعاتكة بنت الأوقص).

وكان المجتمع العربي قبل الإسلام يمثل نوعا من المجتمعات الذي شهد النظامين الأمومي والأبوي معا، وكيف كان هذا النظام الأمومي ينقرض بالتدريج بتغير النظم الاقتصادية وسيطرة الرجل المتزايدة على الاقتصاد وعلى الدين. وقد كانت المرأة العربية في البادية أكثر تحررا من المرأة في المدينة بسبب مشاركتها الرجل في العمل والسعي وراء الرزق، ولم تعرف المرأة العربية في البادية الحجاب وكانت تخالط الرجال.

وكان لعرب الجاهلية قبل الإسلام آلهة من الذكور والإناث. وكانوا يؤمنون بأن إله كل قبيلة يحارب معها في

---

(1) عبد الله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، مطبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر، ١٩٢١، ١٩٥٠.

حربها، ويجهد نفسه في الدفاع عنها لتفوز بالنصر، ولـــذلك كانت القبائل تحمل معها صور أو تماثيل آلهتها في الحرب.. وقد فعل ذلك أبو سفيان فحمل ((اللات)) و ((العــزى)) إلهات إناثا. وفي هذه المعركة انتصر أبو ســفيان وزوجتــه ((هند)) على المسلمين مما جعلهم يتمسكون بآلهتهم الإناث ويثقون في قوتها وقدرتها. وكانت القبيلة المهزومة كثيرا ما تنبذ إلهها الضعيف الذي انهزم في الحرب وتختار إلها قويا، هو إله القبيلة المنتصرة أو إله قبيلة مشهود لهــا بالنصــر، وعلى هذا النحو كانت تنتشر عبادة بعض الآلهة دون البعض الآخر [١].

وكان وجود الإلهات الإنـــاث [٢]. ((كـــاللات)) و ((العزى)) انعكاسا لارتفاع مكانة المرأة في تلـــك القبائـــل

([١]) انظر: جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥ القسم الديني مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٥٥ ص ٦٧ وما بعدها.

([٢]) في تفسير الأنثى جاء في لسان العرب جزء ٢ ص ٤١٦ (الأنثى خلاف الذكر، وفي التنزيل العزيز: ((أن يدعون مـــن دونـــه إناثا)) تقول العرب اللات والعزى وأشباهها من الآلهة (المؤنثة).

العربية، وانعكاسا للمجتمع الأمومي الذي كان موجودا عند بعض تلك القبائل في ذلك الوقت.

ولعل هذا هو السبب في أن تاريخ العرب سواء قبل الإسلام أو بعده، اشتمل على نماذج عدة لنساء بارزات الشخصية، قويات الحجة، إيجابيات في حياتهن الخاصة والعامة، ومنهن من اشتغلن بالاقتصاد والإنتاج.

وكان من جراء اشتراك المرأة مع الرجل في الحياة الاقتصادية في هذه الحالات أن حصلت على شخصية مستقلة في المجتمع وفي البيت وكان لها حرية اختيار زوجها، وكانت المرأة تتزوج أحيانا أكثر من رجل أي تمارس تعدد الأزواج قبل الإسلام، وسمي هذا الزواج بزواج ((المشاركة)) حيث كانت تتزوج المرأة بعدد من الرجال شرط ألا يزيدوا عن عشرة رجال وإلا اعتبرت من البغايا، وعن حديث عائشة عن الجاهلية تقول: ((أن يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة فيصيبونها فإذا حلمت ووضعت ترسل إليهم فلا يستطيع أحد منهم أن يمتنع، فإذا اجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان. تسمي من أحبت باسمه. فيلحق به

لدها لا يستطيع أن يمتنع عنه الرجل [١]. ويكتب الأصفهاني يقول: ((والبدويات منهن حين يطلقـن أزواجهـن يحـولن خيامهن إن كانت إلى الشرق فإلى الغـرب أو كانـت إلـى الجنوب فإلى الشمال [٢]. وكان الطلاق يتم بمجرد أن تحول المرأة باب خيمتها)).

وكان عند العرب قبل الإسلام نوع من النكاح يسمى نكاح الاستبضاع، وصفته السيدة عائشة فـي حـديثها بـأن الرجل كان يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها ((أرسـلي إلى فلان فاستبضعي منه)) ، ويعتزلها زوجهـا ولا يمسـها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه (غالبـا رجل عظيم لأن الزوج يريد ابنا من نسل ممتاز) فإذا تبـين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وكان الطفل المولود يعتبـر ولدا للزوج الشرعي وليس للرجل العظيم الـذي جـاء مـن صلبه، ونكاح الاستبضاع صورة من نظام تعدد الزواج عند

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني جزء ١٦ ص ١٠٢.

(٢) المصدر السابق ١٠٢.

العرب، وما زال أثره واضحا في حالات بعض النساء العاقرات حتى يلدن [1].

كنت وأنا طفلة صغيرة أسمع النساء الريفيات في قريتي كفر طلحة يتحدثن عن النساء العاقرات اللائي يذهبن إلى ((مشايخ)) القرية من أجل ارتداء ((حجاب)) يشفيهن من العقم فيحملن. وقد عرفت من بعد أن هذا الحجاب كان أحيانا قطعة من الصوف تضعها المرأة داخل مهبلها، وبالسؤال عن سر تلك القطعة من الصوف التي تشفي النساء من العقم، عرفت فيهما بعد أن بعض ((مشايخ)) القرى كانوا يبللون تلك القطعة من الصوف بسائلهم المنوي لتضعها المرأة على الفور في مهبلها، وبسبب أن لقاء ((الشيخ)) مع المرأة كان يتم دائما في حجرة مظلمة تماما فلم تكن المرأة تلحظ ما يفعله ((الشيخ))، وأحيانا كانت تلحظ لكنها كانت تكتم الأمر بينها وبين نفسها حرصا على الحمل والإنجاب بأي ثمن حتى وإن وضع ((الشيخ)) سائله المنوي مباشرة في مهبلها دون حاجة إلى قطعة الصوف، وكان بعض

---

(1) عادل أحمد سركيس، الزواج وتطور المجتمع، دارالكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧ ص ١٠٨.

المشايخ يلجأون إلى ذلك من أجل شفاء النساء العاقرات من العقم [1]. أو من أجل الممارسة الجنسية ولإرضاء رغباتهم أو من أجل الاثنين معا.

ولا شك أن نكاح الاستبضاع عند العرب،أو قطعة الصوف السابق ذكرها ليست إلا نوعا من اللقاح غير المباشر الذي يشبه الفكرة الحديثة جدا الخاصة باللقاح الصناعي وبدلا من أن تحفظ الحيوانات المنوية في أنبوبة معقمة فإنها توضع في قطعة من الصوف.

وكم تحدث الغرب في السنين الأخيرة بفكرة التلقيح الصناعي واعتبروها من أحدث الصيحات في مجال علم الجنس أو التحرر على حين أن الرجال العرب في الجاهلية قبل الإسلام كانوا يعرفون هذه الفكرة بل ويمارسونها في زواج الاستبضاع أو يتحرر الأب من أنانيته وغيرته ويفضل

---

(1) لا تزال مثل هذه العمليات تحدث في بعض مناطق في الهند داخل المعابد ، حيث تذهب النساء العاقرات طلبا للشفاء من العقم على أيدي الكهنة وقد حكت لي إحدى الكاتبات الهنديات (امريتا برتيام) روايتها بعنوان((هذا الرجل)) That man التي ترفع الستار عن مثل هذه العمليات التي قد تتم في سرية كاملة لا يعرف عنها إلا الكاهن والمرأة.

أن يحصل على نسل أقوى بصرف النظر عن كونه صاحب الحيوان المنوي الذي أدى دور الإخصاب، وبصرف النظر عن اتصال زوجته برجل آخر جنسيا فذلك الرجل الذي حملت منه المرأة لم يكن يؤدي بالنسبة لها أو لزوجها إلا دور المخصب فقط Fertiliser مما يكاد يتفق مع فكرة ((ليسترووردر)) Lester Ward بأن وظيفة ذكر الإنسان لم تكن في البداية الأولى للبشرية إلا مخصبا للأنثى [١]. ويتفق أيضا مع رسوم كهوف أسبانيا Gogul حيث صورة النساء كاملات أما الذكر فرسم على شكل عضو تناسل فقط.

قد عرف العرب قبل الإسلام أنواعا أخرى من الزواج ((المتعة)) وهو نوع من الزواج المؤقت من أجل المتعة الجنسية فقط، يتزوج الرجل المرأة لمدة ثلاثة أيام أو أقل أو أكثر ويدفع لها مبلغا من المال حسب الاتفاق بينهما في هذه الفترة المحدودة، وليس على الرجل أن يعترف بالطفل الذي قد نتج عن هذا الزواج، وكانت المرأة تنسب طفلها إليها.

---

(١) Lester Ward, pure Sociologie. Macmillan ١٩١٤. p. ٣٥٣.

وكان هناك أيضا زواج ((الهبة)) وهــو أن تقــول المرأة للرجل ((وهبتك نفسي)) فيتزوجها دون أن تكون لها أي حقوق زوجية وليس للرجل أيضا أن يعترف بأطفالهــا، لكن المرأة كانت تتمتع بحق نسب أطفالها إليها كبقايا النظــام الأمومي.

وقد أبطل الإسلام هذين النوعين من الزواج.

وقد كان المجتمع الأبوي كغيــره مــن المجتمعــات الإنسانية يتحول تدريجيا من النظام الأمــومي إلــى النظــام الأبوي بازدياد سلطة الرجل واحتكاره للأنشطة الاقتصــادية وبانحسار دور المرأة خارج البيت أو في أعمــال الإنتــاج، وبمساندة الدين الإسلامي للنظام الأبوي.

ولم تفقد المرأة العربية إيجابيتها فجأة، بل ظلت تقاوم لتحافظ على حقوقها القديمة، وقد انتصــرت المــرأة أحيانــا وانهزمت أحيانا إلى أن تم إخضاعها حين تمت سيادة النظام الأبوي بالكامل.

وقد ظلت المرأة العربية في الفترات الأولى للإسلام تعطي نفسها حق اختيار زوجها بل إنها كانت تــذهب إليــه وتعرض عليه الزواج. ويعرف تاريخ العرب مــن هــؤلاء

النساء ((ليلى بنت الحطيم)) التي ذهبت إلى محمد وهو رسول المسلمين وقالت له: أنا ليلى بنت الحطيم جئت لأعرض عليك نفسي، تزوجني، قال محمد: قد فعلت، لكنها حين عادت إلى أهلها قالوا لها بئس ما صنعت فأنت غيورة ولا صبر لك على الضرائر وقد أحل الله لرسوله أن ينكح ما يشاء، فرجعت ليلى إلى الرسول وقالت له: أنا امرأة طويلة اللسان ولا صبر لي على الضرائر، أقلني فقال لها: قد أقلتك[١].

ولا أدري كم من النساء العربيات اليوم تستطيع أن تفعل ما فعلته ((ليلى بنت الحطيم)) منذ ثلاثة عشر قرناً، ولا أدري كم من الرجال العرب يعطي المرأة حرية اختياره أو حرية رفضه كما فعل محمد نبي المسلمين.

وإذا كانت حياة ((محمد)) هي المثل الأعلى للرجال المسلمين فمما لا شك فيه أن الرجال العرب في عصرنا الحديث لا يتبعون مثلهم الأعلى في الحرية التي كان يعطيها للنساء، وإنهم قد خالفوا النبي والإسلام حين فرضوا

---

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى ، دار التحرير ، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٠٧.

الطاعة على الزوجة أو مما عرف ((ببيت الطاعة)) وكم من زوجات عربيات أمسكهن البوليس بالقوة باسم بيت الطاعة وساقهن قسرا إلى أزواجهن.

ولم تكن المرأة العربية تمنح نفسها حرية اختيار زوجها فحسب ولكنها كانت تستطيع أن تراجعه إذا أخطأ وتغاضبه وتهجره حتى الليل مهما ارتفع شأنه أو كان هو النبي نفسه، كما يتضح من هذه القصة التي يرونها عمر بن الخطاب بلسانه، قال عمر:

وكنا يا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار فصحت على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ولم تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فأفزعني ذلك فقلت: لقد خاب من فعل ذلك منهن. ثم جمعت علي ثيابي فنزلت فدخلت على حفصة بنت عمر فقلت: يا حفصة أتغاضب إحداكن رسول الله يوما إلى الليل؟ قالت: نعم، قلت: خبت وخسرت، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب

رسوله فيهلكك؟ لا تستكثري على رسول الله ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه [1].

ولا شك أن أغلبية الرجال قد نهجوا نهج عمر بن الخطاب في التسلط على المرأة. ويتضح من كلام عمر إنه كان يفتخر بانتمائه إلى قوم يغلبون النساء ويستنكر على الرجال العرب الآخرين الذي تغلبهم نساؤهم، وهو يعطي نفسه حق الصياح في وجه زوجته فلا يحق لها أن تراجعه، بل إنه ينصب نفسه داعية وحاميا لحق الزوج في ألا تراجعه زوجته وينهي زوجة ((محمد)) عن ذلك وهو أعلى شأنا وأكثر مقدرة من عمر بن الخطاب بصفته النبي والرسول والمشرع، لكن ((محمدًا)) كان يعطي الزوجة حقها في مراجعة زوجها إذا أخطأ وإن كان هذه الزوج هو النبي نفسه.

ومن هنا يتضح كيف ترك عمر بن الخطاب وأمثاله من الرجال العرب من ذوي النزعة الأبوية المتسلطة بصماتهم على كثير من الأحكام التي تفرض على النساء

---

(1) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى ، دار التحرير ، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٣١.

العربيات اليوم باسم الإسلام مع أنها ليست من الإسلام كما رآه أو اتبعه محمد.

وقد قاومت المرأة العربية هذه الضغوط التي كانت يفرضها بعض الرجال العرب أمثال عمر بن الخطاب، ولم تكن المرأة العربية في مقاومتها تخجل أو تتحرج حتى في أشد الأمور حساسية مثل حقها في المتعة الجنسية، وفي هذه القصة عن أم سلمة زوجة النبي محمد تصور لنا ما بلغته المرأة أحيانًا من الجرأة والإيجابية في حياتها الجنسية.

وهذه القصة يرويها عمر بن الخطاب عن لسانه ويقول: ((فدخلت عليه (رسول الله) وهو واضع يده على خده أعرف به الكآبة، فقلت: أي نبي الله بأبي أنت وأمي ما الذي رابك وما لقي الناس بعدك من فقدهم لرؤيتك، فقال: يا عمر يسألنني أولاء ما ليس عندي، يعني نساءه، فذاك الذي بلغ مني ما ترى، فقلت: يا نبي الله قد صككت جميلة بنت ثابت صكة ألصقت خدها منها بالأرض لأنها سألتني ما لا أقدر عليه، وأنت يا رسول الله على موعد من ربك وهو جاعل بعد العسر يسرا)) [1]. ويخرج عمر بن الخطاب من

([1]) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ١٢

عند النبي ويذهب إلى أبي بكر الصديق، ثم يذهب الاثنان معا إلى زوجات النبي عائشة وحفصة وأم سلمة، لكن أم سلمة ترفض أن تدخلهما وتقول لهما. ((ما لكما، ولما ها هنا رسول الله ﷺ، أعلى بأمرنا عينا، ولو أراد أن ينهانا لنهانا، فمن نسأل إذا لم نسأل رسول الله؟ هل يدخل بينكما وبين أهليكما أحد؟ فما نكلفكما هذا)). فخرجا من عندها، فقالت زوجات النبي لأم سلمة: جزاك الله خيرا حين فعلت ما فعلت، ما قدرنا أن نرد عليهما شيئًا [١].

لقد بلغت ((أم سلمة)) من الإيجابية والجرأة في حقها في المتعة الجنسية إلى الحد الذي جعلها ترفض تدخل رجال آخرين بينها وبين زوجها وتتمسك بحقها في هذه المتعة وتفرض على زوجها أن يؤدي واجبه نحوها في هذا الشأن حتى وإن أدى موقفها هذا إلى الطلاق من محمد ((النبي)) ذاته، وهذه المرأة هي ((العامرية)) زوجة ((محمد)) التي طلقها النبي لهذا السبب.

ولم يكن ((محمد)) يرغم الزوجة على أن تعيش مع زوجها إذا رغبت في الانفصال عنه، وقد أعطى

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٩.

((محمد)) زوجاته حرية البقاء معه أو الانفصال عنه بعد أن حالت ظروف حياته في فترة من الفترات دون أن يوفي حاجتهن الجنسية.

ويحكي كتاب الطبقات الكبرى عن أن ((محمدا)) ذهب إلى زوجاته في ذلك الوقت ليخيرهن بين الطلاق أو الحياة معه دون أن يحقق لهن متعة الحياة الدنيا وزينتها.

وقد أغضب موقف ((العامرية)) عددا من الرجال بطبيعة الحال، فكيف تفقد المرأة عقلها إلى هذا الحد الذي تختار فيه الدنيا ولا تختار سول الله، ومن هؤلاء ابن مناح الذي قال: ((اخترته، صلى الله عليه وسلم، جميعا، غير العامرية، اخترت قومها، فكانت ذاهبة العقل حتى ماتت [١].

وكما ورث كثير من الرجال العرب عمر بن الخطاب في نزعته المتسلطة على المرأة وضربه إياها حتى يلتصق خدها بالأرض كما فعل عمر بزوجته، فقد ورث كثير من الرجال ((ابن مناح)) في الحكم على النساء بأنهم بغير عقل أو بالجنون أو الهوس أو الهستريا إذا ما لاح للواحدة منهن أن تعترف برغبتها الجنسية أو تطلب الطرق من

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٨.

زوجها أو حتى تراجعه إذا أخطأ. فالرجل في نظر عمر بن الخطاب وابن مناح وغيرهما من الرجال في عصرهم أو في عصرنا معصوم من الخطأ لمجرد أنه رجل، فهو صاحب العقل والحكمة ومن حقه الوصاية على زوجته، وعلى النساء ((الناقصات العقل)) الطاعة الواجبة عليهن بالشرع والقانون.

إلا أن محمدا النبي وواضع الشرع الأول لم يكن من هؤلاء الرجال، وهذا أمر يجب أن يبرزه كل من درس تاريخ العرب والإسلام، لأنه يكشف عن الخطأ الكبير والإثم الذي ارتكبه خلفاء محمد في حق المرأة العربية، وكيف تحول هذا الخطأ والإثم إلى أحكام أصبحت هي القانون الشرعي الذي تحكم به النساء المصريات والعربيات اليوم، هذا القانون الذي فرض على المرأة الزواج بالإكراه وحرمها من حريات تمتعت بها في حياة محمد.

وقد ذهب محمد رسول المسلمين إلى أبعد من الاعتراف بحرية المرأة في الزواج بل إنه في بعض أحاديثه شرح للرجال أهمية المداعبات الجنسية في إرضاء المرأة،

وإن الرجل العاجز هو الذي يشبع حاجته إلـــى الجـــنس ولا يشبع حاجة المرأة.

ويروى الغزالي أن محمدا رسول المسلمين قـــال إن إحدى صفات العجز هي أن ((يقارب الرجـــل جاريتـــه أو زوجته فيصيبها قبل أن يحدثها ويؤانسها ويضاجعها فيقضي حاجة منها قبل أن تقضي حاجتها منه)) [1].

وهكذا نرى أن ((محمدا)) تفوق على أكثرية رجال العصر الحديث في فهمه أمـــور الجـــنس، وقدرتـــه علـــى الاعتراف بأشياء لم يعترف بها أكثر الرجال العرب المثقفين أو على الأقل تحرجوا من الاعتراف بها، ومن هذه الأشـــياء موضوع المداعبات الجنسية. ويروى الإمام الغزالـــي عـــن رسول المسلمين هذا الحديث [2]، إن النبي ﷺ قال: لا يقعـــنّ أحدهم على امرأته كما تقع البهيمة، وليكن بينكما رسول، قيل وما الرسول يا رسول الله؟ قال القبلة والكلام.

([1]) الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠ الفصل الثالث، ص ٧٣٤.

([2]) أبوحامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الشعب القاهرة ١٩٧٠، الفصل الثالث ص ٧٣٤.

وقد شرح الغزالي وغيره من الفلاسفة العرب في كتاباتهم أحاديث الرسول وأضافوا عليها مما أكد في الفلسفة الإسلامية أهمية إرضاء الحاجة الجنسية للمرأة والرجل.

ويتضح لنا الآن الفارق الكبير بين نظرة الفلاسفة الإسلاميين للجنس وبين غيرها من الفلسفات الغربية التي ارتكزت على تأثيم الجنس، وعلى نكران اللذة الجنسية وبالذات لذة المرأة، وقد كانت شخصية محمد رسول المسلمين وأحاديثه هي المنبع الأساسي لهذه الفلسفة، ورغم أن محمدا بحكم نبوته وزعامته كقائد أمة ودولة كان من الممكن أن يتظاهر بالتزمت أو عدم الاهتمام بأمور المرأة أو الحب أو الجنس إلا إنه كان واثقا من شخصيته كإنسان طبيعي متكامل، وبلغ من ثقته أنه كان يقول عن نفسه إنه بشر يحب الطيب والنساء، بل كان يعلن عن حبه للمرأة على نحو طبيعي.

وقد سأله عمرو بن العاص عن أحب الناس إليه فقال له الرسول: عائشة، فقال عمر: إنما أقول الرجال، قال محمد: أبوها[1].

ومن أهم الأفكار التي تفوقت فيها العلوم الإسلامية على العلوم الغربية فيما يخص الجنس تلك الفكرة التي قالت بأن الإشباع الجنسي وليس الكبت الجنسي هو الذي يساعد على العمل والتفرغ لأعمال الدنيا والدين. و يقول الغزالي إن العقل هو أهم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وقد وهبه الله للإنسان من أجل المعرفة، معرفة الحياة والعلوم والأرض والناس ومعرفة الله. إن المعرفة هي أفضل أشكال العبادة عند المسلمين المؤمنين، ومن أجل أن يتفرغ العقل للمعرفة لا بد أن يصرف الطاقة الجنسية ويشبعها حتى لا تثقل الروح وتشغل الذهن عن المعرفة أو عبادة الله. ويضيف الغزالي أيضًا ويقول عن فوائد الإشباع الجنسي: ((ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة، إراحة للقلب وتقوية له على العبادة، فإن النفس ملول، وهي عن الحق نفور، لأنها

([1]) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار التحرير، القاهرة ١٩٧٠، ص ٤٦.

على خلاف مع طبعها، فلو كلفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت وثابت، وإذا روحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت، وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ويريح القلب)) [1].

ويتفق الغزالي هنا مع بارون والأفكار الجديدة في علم النفس التي تقول بأن الإشباع الجنسي ضروري للإنتاج الفكري والثقافي والإبداع، ويتفوق على فرويد وزملائه الذي رأوا أن ((التسامي)) أو الكبت الجنسي ضروري من أجل تقدم الثقافة أو قيام الحضارة.

وقد أوضحت الأفكار الجديدة في علم النفس أن الطاقة الجنسية لا تتحول إلى عمل إنتاجي أو ثقافة أو فكر خلاق ولكنها تنحرف عن مسارها الطبيعي لتتخذ أشكالا متنوعة من الانحراف الجنسية والعصاب والمشاكل النفسية.

ولا شك أن اعتراف محمد والفلسفة الإسلامية بحق المرأة في الحياة والجنس لم تكن إلا نتيجة المكانة العالية التي كانت تتمتع بها المرأة العربية في ذلك الوقت، ومشاركتها

([1]) أبو حامد الغزالي، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٦٩٨.

الإيجابية في مجالات الحياة خارج البيت وداخلــه، وبــروز شخصيات نسائية قوية متعددة.

ويا ليت النساء العربيات في كل مكان اليوم يقــرأن تاريخ العرب والفلسفة الإسلامية من منابعها الحقيقية وحيــاة النساء العربيات وحياة نســاء النبــي ليــدركن أن الفلســفة الإسلامية ارتكزت على قوة المرأة وإيجابيتها وإن المرأة في ذلك الوقت كانت أكثر شجاعة وإيجابية منها اليوم، وإن هذه السلبية التي فرضت عليهن ليست صفة أصلية فيهن، وهــذه الطاعة والخضوع لأزواجهن ليست فضيلة دينية أو أخلاقية، وهذا الخجل أو الخوف من الاعتراف بحقوقهن ليس إلا صفة مستحدثة بغير جذور.

ولتقرأ المرأة العربية الحديثــة المتــأثرة بالثقافــة الغربية أو الأدب الفكتوري المتزمت عن هؤلاء النساء اللائي لم يتحرجن من الاعتراف بحقهــن فــي الجــنس والمتعــة الجنسية.

ولتقرأ المرأة العربية المقلدة فــي أنوثتهــا الســلبية الضعيفة للقالب الذي وضعه فرويد للأنوثة، لتقرأ عن إيجابية وقوة هؤلاء النســاء العربيــات وقــدرتهن علــى الــرفض

والاحتجاج إذا ما لاح لهن أن شيئا مس كرامتهن، وهل سمعت المرأة العربية الحديثة عن ((زينب بيت جحش)) إحدى زوجات ((محمد)) التي غضبت من زوجها يوما ورفضت قبول هديته مع أنه النبي، وحينما ضاعف لها الهدية ثلاثة أضعاف رفضتها أيضًا وردتها إليه؟ عن عائشة قالت: ((ذبح رسول الله ذبحا فأمرني فقسمته بين أزواجه فأرسل إلى زينب بنت جحش بنصيبها فردته فقال: زيدوها ثلاثا، كل ذلك ترده، فقلت له: لقد أقمأت وجهك حين ترد عليك الهدية)) [1].

أما عائشة زوجة النبي فلا أظن أن أحدا يجهل كم كانت هذه المرأة قوية الشخصية قوية الحجة والبيان، ذكية، قادرة على مراجعة زوجها (وهو نبي) إذا أخطأ، إلى حد أن حفصة كانت ترى من حقها أن تراجع زوجها ((محمد)) بمثل ما تراجعه عائشة فاعترض عليها أحد الصحابة قائلا: ((لعلك تراجعين النبي بمثل ما تراجعه عائشة)) [2].

---

(1) المصدر السابق، ص ١٣٧.

(2) المصدر السابق ص ١٣٧.

ولم تكن عائشة تراجع زوجها فقط ولكنها كانت تراجع الرجال وتعبر عن أفكارها بشجاعة وحرية وفهم وتعقل إلى الحد الذي جعل ((محمد)) يشير إليها وهو جالس بين الرجال قائلا لهم: خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء [١]. وقد اشتركت عائشة في الحرب والقتال مع المسلمين، وكان لها نشاط واسع في السياسة والثقافة والأدب إلى حد أن قال فقيه المسلمين عروة بن الزبير: ((ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة)) [٢]، مع أن عائشة لم تصل إلى الثامنة عشرة من عمرها إلا بعد وفاة ((محمد)).

وكانت عائشة قادرة على مناقشة ((محمد)) في أي شيء، وكانت تختلف معه وتغضب حين كان يتزوج عليها امرأة أخرى، وتتمرد عليه، بل كانت تحرض زوجاته

---

(١) اشتهرت عائشة باسم الحميراء لأن الحمرة كانت تغلب على وجهها. انظر أحمد خيرت مركز المرأة في الإسلام، دار المعارف، مصر، ١٩٧٥ ص ٦٤.

(٢) الشيخ عبد الله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ج ٢ ص ١٣٩.

الأخريات أحيانا على التمرد عليه، وما قصة ((العسل)) [١] إلا نوعا من هذا التآمر، بل إن عائشة بلغت من جرأتها في مناقشة ((محمد)) أنها كانت تناقشه في الآيات القرآنية التي أحل فيها الله لمحمد أن يتزوج ما شاء من النساء وإنها اعترضت قائلة: إن الله يسارع لك فيما تريد.

((عن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب قال: لم يمت رسول الله ﷺ، حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء وهو قوله: ترجى من تشاء منهن.وعن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: لما نزل ترجى من تشاء منهن، قالت عائشة: إن الله يسارع لك فيما تريده)) [٢].

ولا يمكن أن ننكر أن مجتمعنا العربي فيه من النساء من ورثن عن عائشة ومثيلاتها قوتهن وإيجابيتهن وشجاعتهن، ولا يمكن أيضا أن ننكر أن عندنا من النساء من ورثن ((جميلة)) بنت ثابت زوجة عمر بن الخطاب الذي كان يصكها عمر فيلصق خدها بالأرض.

---

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ٥٩.

(٢) محمد بن سعد الطبقات الكبرى، ص ١٤٠، ١٤١.

إلا أن الأغلبية الساحقة من النساء العربيات قد تم ترويضهن وإخضاعهن عن طريق الإحكام الأبوية التي فرضت عليهن الحجاب والاحتباس في البيت وعدم المشاركة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

الحب والجنس عند العرب

عرف عن الرجال العرب قبل الإسلام وبعده أنهم استمتعوا بحرية جنسية واسعة سواء داخل الزواج عن طريق تعدد الزوجات وحرية الطلاق، أو خارج الزواج عن طريق إباحة العلاقات الجنسية مع الجواري والإماء أو ما ملكت اليمين.

ولم تكن هذه هي صفة العرب وحدهم دون سائر الرجال في المجتمعات الأخرى، فقد أعطى الرجال أنفسهم هذه الحرية الجنسية منذ بدء النظام الأبوي ونشوء الأسرة الأبوية، فهي حرية ترتبط بالنظام الأبوي أكثر مما ترتبط بجغرافيا البلد أو بموقعه من الشرق أو من الغرب أو بجنسية القوم وما إذا كانوا من العرب أو العجم.

لكن الذين كتبوا عن حياة العرب سواء من المستعمرين أو المستشرقين تجاهلوا هذه الحقيقة قصدا أو عدم معرفة، وصوروا حرية العرب الجنسية كأنما هي الحرية الجنسية الوحيدة فوق الأرض، وكأنما الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي أباح هذه الحرية، وكأنما الرجال العرب هم أول رجال في العالم يمارسون تعدد الزوجات أو

يمارسون الجنس خارج الزواج. مع أن الرجال في كل زمان ومكان منذ نشوء الأسرة الأبوية قد مارسوا الجنس خارج الزواج سرا أو علنا، أو الاثنين معا، وبالرغم من أن المسيحية كانت أكثر الأديان تقييدا للحرية الجنسية إلى حد أن العذرية لم تفرض على المسيح وأمه مريم العذراء فحسب ولكنها فرضت أيضا على بعض رجال الكنيسة في فترة من الفترات، وبالرغم من ذلك فإن التاريخ يشهد بأن رجال الكنيسة في هذه الفترة التي حرم فيها الزواج عليهم كانوا يمارسون في السر علاقات جنسية متعددة، وإن البغاء في تلك الفترات المتزمتة انتشر انتشارا كبيرا، وقد حاول ((لوثر)) [١] إصلاح حال الكنيسة بعد أن لاحظ أن دخل كنيسة روما يأتي أساسا من الضرائب على بيوت الدعارة،وقد آلمه أن يرى أن الكنيسة تمد يدها للشيطان وتحصل منه على طعامه بل وتنشئ بهذه الإيرادات الملوثة الشيطانية قصورها المهيبة المقدسة، ولعل أكثر ما آلمه أن الدخل الرئيسي لحصيلة صندوق النذور في الكنائس كان يدخل عن طريق زبائن بيوت الدعارة الذين كانوا يمرون

Enaratlones in Mose. WA ٤٣. ٣٤٤. ٢٥. ٣٥. (١)

بالكنسية ويدفعون شيئا في صندوق النذور قبل ذهابهم إلى المومسات، ابتغاء غفران الله عن الإثم الذي هم في طريقهم إليه.

ومن المعروف في التاريخ أن البغاء لم يعرف ولم يبدأ إلا ببدء النظام الأبوي [1]، فقد اقترن هذا النظام الأبوي منذ نشأته بالبغاء، لأن البغاء ليس إلا الحل الوحيد لنظام يفرض زوجا واحدا على المرأة في حين يمنح الرجل حرية جنسية مع نساء أخريات خلاف زوجته. إن الحل الوحيد لمثل هذا النظام هو خلق فئة من النساء يمارس معهن الرجال حريتهم الجنسية خارج الزواج، وإلا فمع من يمارس الرجال حريتهم؟

وعلى هذا أنشأ النظام الأبوي مؤسسة البغاء كضرورة لاستمراره، وأنشأ أيضا مع مؤسسة البغاء مؤسسة الأطفال غير الشرعيين، التي كانت تضم الأطفال الناتجين عن علاقات الرجال الجنسية مع المومسات.

---

(1) T.E. james. Posititution and the laq. W. Heinemann, Elisprost and Shurtz.

وكان على المومسات والأطفال غير الشـــرعيين أن يكونوا كبش الفداء لهذا النظام الأبوي، وإن يدفعوا من حياتهم وكرامتهم وشرفهم الثمن الذي تطلبـــه بقـــاء هـــذا النظـــام واستمراره، وأما الرجال أنفســـهم أصـــحاب هـــذا النظـــام ومؤسسوه فلم يكن نصيبهم من هذا الثمن شيئا سوى المتعـــة والحرية الجنسية.

وربما كان الرجال العرب أكثر صدقا وصراحة من غيرهم لأنهم لم يسدلوا الستائر الكثيفة على حياتهم الجنسية، وعبروا عنها في الكثير من أدبهـــم وشـــعرهم وقصصـــهم الشعبية، ولعل أشهر هذه القصص جميعًا هي قصص ألـــف ليلة وليلة، التي اتخذها بعض المســـتعمرين والمستشـــرقين كمرجع عن حياة العرب، يستنتجون مـــن بعـــض أحـــداثها الجنسية مفاتيح عن شخصية العرب، ويضعون مـــن بعـــض نوادرها قواعد للحكم على طبيعة العرب.

ومن المعروف أن قصص ألف ليلة وليلة تحكي عن بعض قطاعات المجتمع العربي منذ أكثر من عشرة قـــرون، ولا يدري أحد بالضبط ماذا كان حال أوروبا في ذلك الوقت ويقول التاريخ إنه كان أسوأ حالا مما كان عليه الشـــرق أو

الغرب، إلا أن بعض الأوروبيين أو الغربيين عن قصد أو عن جهل تناسوا هذه الحقيقة حين أخذوا يقارنون بين الشرق والغرب، بل إن بعضهم قارن بين شخصية العرب في تلك الفترة البعيدة وبين شخصية الغربيين في القرن العشرين، أو في العهد الفكتوري [1] حين كان التزمت فوق السطح، والله أعلم بالسرائر. وكان الأجدر بهم أن يقارنوا حياة العرب بحياة رجال أوروبا في تلك القرون، أو على الأقل في القرون الوسطى حين كان الكهنة القضاة يلقنون النساء المتهمات بالسحر عبارات جنسية مثيرة، ولم يكن أمام هؤلاء النساء (إزاء التعذيب) إلا أن يعترفن بالجرائم الجنسية التي يلقنها لهن القضاة [2].

وقد استمرت حتى اليوم تلك الصورة عن العرب، وما من فيلم رأيته يصور حياة العرب وأنتجته شركات

---

(١) P.H. Newby A Selection From The Arabian Nights Entertainments T??????????? by Sir Rcthard Burtio. Lutroduction from p. vll to xvll pocket Books N. y. ١٩٥٤.

(٢) Tranz G. Aglxa nder and Shclodon. T. Selesninck. The Hlstore of psychiaity. P. ٨٩.

غربية إلا ويصور الرجال العرب وقد هرولوا وراء النساء يغازلونهن ويبعثرون أموالهم على شهواتهم الجنسية والسكر والعربدة، بل إن المرأة العربية أيضا تظهر في مثل هذه الأفلام [1] لعوبا تنثني وترقص ببطنها وتتعرى وتغري الرجل بشتى فنون الإغراء على نهج غانيات ألف ليلة وليلة وجواري هارون الرشيد في ذلك الوقت.

ومما لا شك فيه أن مثل هذه الصور لا تمثل الرجال أو النساء العرب في عصرنا الحاضر، بل إني أعتقد أنها لا تمثل حياة الرجال والنساء في عهد هارون الرشيد، وربما هي تمثل حياة قطاع الملوك وجواريهم، في ذلك العهد، وهو قطاع صغير لا يمثل بحال من الأحوال الأغلبية الساحقة من الشعب العربي في تلك العهود. كما أن فسق الملوك الجنسي

---

(1) اعترضت في بعض المؤتمرات على عرض هذه الصورة غير الحقيقية للأغلبية الساحقة من النساء العربيات، وفي مؤتمر ((المرأة العربية)) الذي عقد في يونيو ١٩٧٦ بجامعة ويزلي ببوسطن بالولايات المتحدة عرض فيلم عن المرأة العربية من هذا النوع وقد قدمت مع بعض الزميلات العربيات تقريرا للمؤتمر يحلل هذه الظاهرة ويكشف أسبابها.

وغير الجنسي معروف في الغرب والشرق والشمال والجنوب على حد سواء.

وعلى هذا فإن إطلاق الأحكام على طبيعة الإنسان العربي واعتبار أن الرجال العرب أكثر من غيرهم سعيًا وراء اللذة الجنسية إنما هي أحكام غير صحيحة، غايتها تشويه صورة الشعوب العربية المجاهدة ضد المستعمرين الأجانب.

ولست من الذين يعتقدون بأن السعي وراء اللذة الجنسية إثم، ولست أنظر إلى الرجال أو النساء على أنهم منحرفون،بل إني أعتقد أن الانحراف هو تلك النزعة المسيحية والفكتورية المتزمتة التي جعلت اللذة الجنسية إثما وخطيئة. هذه النزعة التي اشتدت في فترة من الفترات إلى حد اعتبار الولادة أو الطفل المولود مدنسا إلى أن يتم تطهيره بتلك العادة المسيحية الشائعة وهي التعميد Baptism هذه النزعة التي خلفت وراءها حتى اليوم قيما صارمة متزمتة ابتداء من الرهبنة إلى العفة العذرية إلى تأثيم الجنس.

على أن هذه القيم في كل العصور و العهود لم تكن تسرى إلا على المحكومين لا الحكام، والنساء لا الرجال،

والفقراء لا الأغنياء، وقد ساعدت هذه القيم بقيودها على الجسد والعقل أن تخضع للحكام والمستبدين والمستعمرين الأغلبية الساحقة من شعوب العالم نساء ورجالا، وكما ساعد النظام الأبوي في بدايته على مولد طبقة من الأسياد والعبيد ونشوء الإمبراطوريات والمستعمرات، فإن هذه القيم الصارمة قد ساعدت ضمن عوامل أخرى على إخضاع الشعوب كما استخدمت ولا تزال تستخدم حتى اليوم عند اللزوم لمقاومة ثورات النساء والطبقات الكادحة شبه المستعبدة في نضالهم المستمر، ضد النظم الإقطاعية ثم الرأسمالية بأشكالها المتعددة وما صاحبها من استعمار قديم أو جديد.

وقد كشف لنا التاريخ عن العلاقة الوثيقة بين الاقتصاد والدين أو الحاجات الاقتصادية والقيم الأخلاقية والجنسية، إن هذه القيم الجنسية الأخلاقية أو الدينية تتغير وتتبدل من عصر إلى عصر ومن مكان حسب الضرورات الاقتصادية وما يتبعها من ضروريات سياسية.

ولم تختلف المجتمعات الشرقية والعربية عن المجتمعات الغربية في أن الضرورات الاقتصادية هي التي

تتحكم في القيم الأخلاقية والجنسية. وقد اقتضت الضرورات الاقتصادية في المجتمع العربي حرية جنسية واسعة للرجال من أجل زيادة النسل. والمعروف أن تعدد الزوجات للرجل يزيد النسل أما تعدد الأزواج للمرأة فهو يقلل النسل، وكان المجتمع العربي يعاني من ارتفاع شديد في نسب الوفيات وعليه أن يعوض هذا بارتفاع في نسب المواليد، كما أن قوة القبائل الاقتصادية والاجتماعية والقتالية كانت تقوم على القوة العددية أساسًا في مجتمع لم يكن يعرف الآلات والأسلحة الحديثة بعد، وفي تلك المجتمعات الصحراوية الفقيرة نسبيا لم يكن الأطفال يمثلون عبئا ماديا بل كانوا أدوات إنتاج للعمل برعي الإبل والماشية.

وكانت هذه القبائل كثيرة الحروب كشأنها من القبائل الأخرى. وقد اشتدت هذه الحروب بعد ظهور الإسلام ومحاولة أصحاب الديانات القديمة محاربة أصحاب الدين الجديد ودفاع أصحاب الدين الجديد عن دينهم، ثم ما تبع ذلك من انتصار المسلمين وبدئهم إنشاء الدولة الإسلامية ونشر الإسلام وذلك بغزو البلاد الأخرى، كل ذلك أدى إلى أن يقتل في هذه الحروب رجال كثيرون من العرب وأن يزيد عدد

النساء على عدد الرجال، بالإضافة إلى تلك الأعداد الكبيرة من أسيرات الحرب اللائي كان يعود بهن الرجال المنتصرون في الغزوات.

وكان الحل الطبيعي في نظر المجتمع في ذلك الوقت هو أن يتزود الرجل أكثر من امرأة وأن يتخذ من أسرات الحرب ما يشاء من الزوجات والجواري أو السراري كل حسب مقدرته. ولم تكن مقدرة كل رجل كالآخر بطبيعة الحال، إلا أن مثل هذه الظروف قد دعت الرجال العرب إلى التفاخر بقدراتهم في هذا المجال، وفي جذب النساء وزواجهن أو عشقهن فتحسب، ودعت أيضًا النساء إلى التباري في جذب الرجال وإيقاعهم في شرك الحب والجنس.

وكانت المرأة العربية بصفة عامة تميل إلى الإيجابية في الحب والجنس أكثر من السلبية المستحدثة، بسبب تراثها الأمومي في المجتمع غير البعيد، وبسبب أن الدين الإسلامي لم ينزع إلى تأثيم الجنس كما فعلت المسيحية بل وصف المتعة الجنسية بأنها إحدى زينات الدنيا ومباهجها وإحدى مباهج الجنة في الآخرة. وقد نتج عن كل ذلك أن المرأة العربية لم تكن تتردد كثيرا في إظهار إيجابيتها الجنسية،

وقدرتها على الإيقاع بالرجال في شركها. ولعلها أيضا كانت تريد أن تؤكد أو تقلد أمها حواء في قـدرتها الفائقـة علـى الإيقاع بآدم وإسقاطه صريع ((فتنتها)) من السـماء إلـى الأرض، وكلمة ((الفتنة)) بالعربية هنا معناها ((جاذبيـة المرأة الشديدة)).

وقد ارتبطت كلمة ((المرأة)) عند العـرب بكلمـة ((الفتنة)) وبلغ من شدة إيجابية المرأة العربية وفتنتهـا أن ارتكزت الفلسفة الإسلامية على قـوة الجنسـية وجاذبيتهـا وفتنتها التي يمكن أن تحدث الفتنة في المجتمع وتحطم النظام الذي أوجده الله. وعلى هذا فإنه لا بد حتى تسـتقيم الحيـاة وحتى لا يتهدد نظام المجتمع أن يرضـي الرجـل رغبـات زوجته الجنسية، وأن يحافظ على شرفها، فإن شرف المـرأة هو واجب الرجل، وعلى الرجل أن يشـبع حاجـة المـرأة الجنسية حتى لا تحدث الفتنة ويطمئن الرجال إلـى فضـيلة النساء، وفي ذلك يقول الغزالي: ((نعم ينبغـي أن يزيـد أو

ينقص حسب حاجتها أو التحصين، إن تحصينها واجب عليه))[1].

لكن الإمام الغزالي يعود فيصرح بأن إشباع حاجة المرأة الجنسية أمر صعب بل شديد الصعوبة: ((فذلك لعسر المطالبة والوفاء بها)).

ويكاد يتفق الغزالي هنا مع بعض الآراء الحديثة عن القوة الجنسية لدي المرأة وصعوبة إشباعها، ويتفق أيضا مع إدراك الرجل البدائي لهذه القوة وخوفه منها منذ زمن بعيد جدا ومن ثم حرصه الشديد على تحويطها بالقيود والسلاسل.

بل إنه يتفق أيضا مع الأفكار العلمية القائلة بسلبية المرأة في الجنس وإنها تنتظر دائما الرجل وتستجيب له فحسب وتصل إلى اللذة دون أن تقذف. ويقول الغزالي إن المرأة تقذف كالرجل ولكن على نحو مختلف، وإن المرأة في قذفها أبطأ من الرجل[2] يقول: ((ثم إذا قضى وطره فليتمهل على أهله (زوجته) حتى تقضي هي أيضا نهمتها،

---

(1) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ص ٥٠.

(2) المصدر السابق.

فإن إنزالها ربما يتأخر فيهيج شهوتها. ثم القعود عنها إيذاء لها، والاختلاف في طبع الإنزال يوجب التنافر مهما كان الزوج سابقا إلى الإنزال، والتوافق في وقت الإنزال ألذ عندها)). ويول الإمام الغزالي إن الجنين لا يتكون من الحيوان الذكري وحده وإنما من اتحاد ماء الرجل وماء المرأة، وإن ماء المرأة هو العنصر الحاسم)) [1] ويقول: ((الولد لا يخلق من مني الرجل وحده بل من الزوجين جميعا إما من مائه ومائها.. وكيفما كان فماء المرأة ركن في الانعقاد فيجري الماءان مجرى الإيجاب والقبول في الوجود الحكمي في العقود.. وكما أن النطفة في الفقار لا يتخلق منها الولد فكذا بعد الخروج من الإحليل ما لم يمتزج بماء المرأة ودمها، فهذا هو القياس الجلي)).

ومن هنا ندرك كيف تركزت الفلسفة الإسلامية على أفكار أكثر تقدما من الفلسفات السابقة عليها، وكيف اعترفت بإيجابية المرأة في الجنس وفي عملية الإخصاب وهي بذلك

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، المكتبة التجارية الكبرى ٢ ٥١.

لم تتفوق على فلسفة أرسطو [١] فحسب، (الذي رأى أن الجنين يتكون من الحيوان المنوي الذكري فقط لا يحتاج إلا إلى تجويف داخلي ((الرحم)) من أجل أن ينمو) ولكنها تفوقت أيضا على النظريات البيولوجية والنفسية (فرويد وتلاميذه) التي وصفت المرأة بالاستجابة السلبية فقط، أما الرجل فهو الفاعل الإيجابي، ويعبر فرويد عن هذه السلبية قائلا: ((إن حيوان الذكر المنوي يتحرك بنشاط ويبحث عن الأنثى، أما بيضة الأنثى فهي ساكنة لا تتحرك وتنتظر بسلبية)) [٢].

إلا أن الإسلام مثله مثل الأديان السابقة عليه قد ورث الفكرة القديمة التي ألصقت تهمة الشيطنة لحواء وللنساء جميعا من بعدها. ومن الأحاديث الشائعة عند العرب هذه العبارة: ((ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما)).

---

(١) Borren. P. ١٩٩.

(٢) Sigmund Freud, New lntroductory lectures on psycho analysis. College Edition, New York: Norton and Co., ١٩٩٥

بل لقد صور النبي ((محمد)) فتنة المرأة وجاذبيتها القوية كأنما هي الشيطان فقال في أحد أحاديثه: ((إن المرأة إذا أقبلت أقبلت بصورة شيطان فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذي معها)) [1].

وقد فسر الغزالي وغيره من فلاسفة الإسلام الحديث النبوي هذا بأن الرسول كان يشير إلى جاذبية المرأة التي لا تقاوم إنها وضعها الله في روح الرجل، وإنه كان يشير إلى اللذة التي يشعر بها الرجل حين ينظر إلى المرأة، وإلى اللذة التي يشعر بها إزاء كل ما يتعلق بالمرأة، والمرأة تشبه الشيطان في قدرته على الإنسان التي لا تقاوم.

وقد سادت هذه الفكرة في الفلسفة الإسلامية بصفة عامة، وأصبحت المرأة، والى اللذة التي يشعر بها إزاء كل ما يتعلق بالمرأة، والمرأة تشبه الرجل أمام هذه الفتنة عاجز سلبي، هي فكرة قديمة لكنها برزت في الفلسفة والثقافة الإسلامية ودعمت بالأحاديث والحكم.

([1]) أبو حامد الغزالي، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠، ص ٦٩٦.

ومن هنا أصبحت المرأة في نظر العرب خطرة على الرجل وعلى المجتمع وكان لا بد من عزلها في البيت بعيدا عن الرجال وعن المجتمع، أو حماية الرجال منها إذا خرجت من أسوار السجن وذلك بتغطيتها ولفها بالعباءة والحجاب كما تغطى وتلف القنابل الخطرة. وقد بلغ من تغطية المرأة بالكامل في بعض المجتمعات العربية إلى حد أن ظهور إصبع من أصابع يدها أو قدمها كان كفيلا بإحداث ((الفتنة)) في المجتمع. وكلمة ((الفتنة)) هنا لا تعني ((جاذبية المرأة الشديدة)) ولكنها تعني ((الفوضى)) والاضطراب والشغب وانهيار المجتمع ونظامه.

وعلى هذا يمكن القول إن الإسلام وضع الفلاسفة المسلمين أمام حقيقتين متناقضتين هما:-

إن الجنس إحدى متع الدنيا وزينتها وضرورة للتناسل وتقوية المجتمع.

إن الاستسلام لهذا الجنس يقود إلى الفتنة والاضطراب في نظام المجتمع.

ولم يكن حل أمام هذين القطبين المتنافرين إلا أن يوضع للجنس نظام معين لا يقود إلى الفتنة وإنما يقود إلى

التناسل والمتعة في الحدود التي وضعها الله، وأولها خشية الله، كما يعبر عن ذلك أحد زعماء فلاسفة المسلمين وهو الإمام الغزالي الذي يقول: [1] ((فالنكاح بسبب دفع غائلة الشهوة مهم في الدين لكل مالا يؤتى عن عجز وعنة، وهم غالب الخلق، فإن الشهوة إذا غلبت ولم تقاومها قوة التقوى، جرت إلى اقتحام الفواحش، وإليه أشار بقوله عليه السلام عن الله تعالى: ﴿**إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**﴾.

لكن الغزالي يعود ويقول إن هذه الرغبة الجنسية وما ينطوي عليه إشباعها من لذة ومتعة هي إحدى متع الجنة التي وعدنا بها الله، ومن أجل دخول الجنة علينا توجيه هذه الطاقة الجنسية لعبادة الله وفي أعمال الخير والدين، ويقول: ((ولعمري في الشهوة حكمة أخرى سوى الإرهاق إلى الإيلاد، وهو ما في قضائها من اللذة التي لا توازيها لذة لو دامت، فهي منبهة على اللذات الموعودة في الجنان، إذ الترغيب في لذة لم يجد لها ذواقا لا ينفع فلو رغب العنين في لذة الجماع أو الصبي في لذة الملك والسلطنة لم ينفع

---

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٦٩٤.

الترغيب، وإحدى فوائد لذات الدنيا الرغبة في دوامها في الجنة ليكون باعثا على عبادة الله)) [1]. إن هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام تحرك الرغبة في اللذة الكاملة بلذة الدوام، فيستحث على العبادة الموصلة إليها فيستفيد العبد بشدة الرغبة فيها، بتيسر المواظبة على ما يوصله إلى نعيم الجنان)) [2].

ويشرح الإمام الغزالي حكمة الله وإرادته من خلق هذه الرغبة الجنسية عند كل من الرجل والمرأة وإن هذه الحكمة والإرادة قد تجلت على لسان رسول الله حين قال: ((تناكحوا تكاثروا)) فكيف وقد صرح بالأمر، وباح بالسر، فكل ممتنع عن النكاح معرض عن الحراثة مضيع للبذر، معطل لما خلق الله من الآلات المعدة وجان على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة من شواهد الخلقة، المكتوبة على هذه الأعضاء بخط إلهي)) [3].

([1]) الغزالي، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠، كتاب آداب النكاح ص ٦٩٤.

([2]) المصدر السابق.

([3]) أبو حامد الغزالي دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ ص ٦٨٩.

ومن فوائد الزواج بعد فائدة التناسل يقول الغزالـــي: ((التحصين عن الشيطان وكسر التوقان، ودفع غائلة الشهوة وغض البصر وحفظ الفرج وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: **((من نكح فقد حصن نصف دينه فليتــق الله فـــي الشـــطر الآخر))** [1].

وتعترف الفلسفة الإسلامية بقوة الشهوة الجنسية عند المرأة وعند الرجل أيضا قال فياض بن نجيح إذا قـــام ذكـــر الرجل ((عضو الرجل الذكري)) ذهب ثلثا عقله وبعضـــهم ذهب ثلث دينه وفي نوادر التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما: ((ومن شرّ غاسق إذا وقـــب)) قـــال قيـــام الـــذكر (العضو الذكري) وهذه بلية غالبة، وإذا هاجت لا يقاومهـــا عقل ولا دين.. فهي أقوى من آلة الشيطان علـــى بنـــي آدم وإليه أشار عليه السلام بقوله: ما رأيت من ناقصـــات عقـــل ودين أغلب لذوي الألباب منكن. [2].

وقال عليه السلام: ((لا تدخلوا على المغيبات وهـــن اللواتي غاب أزواجهن عنهن فإن الشيطان يجري من أحدكم

---

(1) المصدر السابق ص ٦٩٣.

(2) المصدر السابق ص ٦٩٥.

مجرى الدم.. قلنا ومنك قال: ومني ولكن الله أعانني عليه فأسلم)) [١].

ويتضح هنا كيف كان العرب يناقشون محمدا ويعاملونه بالمثل كبشر مثلهم فإذا قال لهم إن الشيطان يجري في دمائهم قالوا له: ويجري في دمائك أيضا.. ويعترف محمد بأنه مثلهم فيما عدا أن الله أعانه على الشيطان فأسلم ((وأسلم)) هنا تعود على الشيطان أي شيطان محمد كان مسلما.. وقد أكد محمد هذا المعنى حين قال: فضلت على آدم بخصلتين. كانت زوجته عونا له على المعصية، وأزواجي أعوان لي على الطاعة، وكان شيطانه كافرا وشيطاني مسلما لا يأمر إلا بخير [٢].

ونرى من ذلك كيف ورث الإسلام النظرة إلى حواء الآثمة التي عصت الإله وارتباط الجنس بالشيطان بالمرأة أساسا.. أما الرجل فهو وإن كان ينطوي على شهوة جنسية طاغية أيضا إلا أنه لا يمارس الإثم إلا بسبب فتنة المرأة

([١]) المصدر السابق ص ٦٩٦.

([٢]) أبو حامد الغزالي دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ – ص ٧٠٠.

وشيطنتها وعليه أن يتزوج ليدفع عنه شرور الشيطان وفتنة المرأة.

ويدعو الإسلام الرجال إلى الزواج وقال محمد رسول المسلمين: ((**النكاح سنتي فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي**)) [1].

ورغم اعتراف الإسلام بالشهوة الجنسية عند كل من المرأة والرجل إلا أنه حين وضع القيود وضعها على المرأة فقط، ونسي اعترافه السابق بقوة رغبتها.

ولم ينس الإسلام أبدا أن الرجل له رغبة جنسية قوية فوضع له الحلول التي تضمن إشباعه وأحل له ممارسة الجنس بالكثرة ومع أي عدد من النساء يشاء عن طريق تعدد الزوجات ونكاح الإماء والجواري وإباحة الطلاق له بسهولة.

وقد شهد تاريخ العرب المسلمين هؤلاء الرجال الذي ينكحون من النساء مئات ومئات.. ويقول الغزالي: ((يقال إن الحسن بن علي كان منكاحا حتى نكح زيادة على مائتي امرأة.. وكان ربما عقد على أربع في وقت واحد، وربما

---

(١) المصدر السابق ص ٦٨٣.

طلق أربعا في وقت واحد، واستبدل بهن، وقد قال عليه الصلاة والسلام للحسن ((أشبهت خلقي وخلقي)) [1].

وقد قال محمد عن نفسه إنه أعطى قوة أربعين رجلا في الجماع [2]، واعترف الغزالي بأن شهوة الرجل قوية وإن ((من الطباع ما تغلب عليها الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة على الواحدة إلى الأربع))[3].

وكان من زهاد الصحابة من يفطر من الصوم على الجماع قبل الأكل وربما جامع قبل الآن يصلي المغرب ثم يغتسل ويصلي، وذلك لتفريغ القلب لعبادة الله وإخراج غدة الشيطان منه [4].

وقال الغزالي أيضا: ولما كانت الشهوة أغلب على مزاج العرب أبيح نكاح الأمة عند خوف العنت، مع أن فيه

---

(1) المصدر السابق ص ٦٩٧.

(2) محمد بن سعد الطبقات الكبرى جزء ٨ دار التحرير القاهرة، ١٩٧٠ ص ١٣٩.

(3) المصدر السابق.

(4) المصدر السابق ص ٨٩٦.

إرقاق الولد وهو نوع إهلاك وهو محرم على كل من قـدر على حرة وكان إرقاق الولد أهون من إهلاك الدين [1].

وكأنما الدين لا يبقى إلا إذا نكح الرجل ما شاء مـن النساء على حساب مصلحة الأطفال. ونـرى هنـا تسـاهل الفلسفة الإسلامية مع الرجل لإشباع رغبتـه الجنسـية وإن كانت على حساب إرقاق الولد، وإن كانت على حساب ظلـم البريء الذي لا ذنب له وإن كانت علـى حسـاب المـرأة ((العبدة)) التي ليست لها حقوق الزوجـة ولـيس لطفلهـا حقوق الطفل الذي ولدته المرأة الحرة.

والسؤال هنا لماذا تساهل الدين مع الرجل كل هـذا التساهل؟ لماذا لم يطالب الدين الرجل أن يكبح جماح شهوته والاقتصار على زوجة واحدة كما فعل مع المـرأة وفـرض عليها زوجا واحدا مع أنه سبق واعترف بأن المـرأة لـديها شهوة جنسية مثل الرجل وربما أشد؟ لماذا تساهل الدين مـع الرجل إلى حد التضحية بمصلحة الأطفال ومصلحة الأسـرة ومصلحة النساء على حين أنه تشدد مع المرأة تشددا بلغ حد القتل إذا ما لاح للمرأة أن تنظر إلى رجل غير زوجها؟.

---

(1) المصدر السابق.

وقد جعل الإسلام النكاح أو الزواج المؤسسة الوحيدة التي يمارس داخلها الجنس بين المرأة والرجل، وأي شيء خارج هذه المؤسسة إثم وفحش. بل إن الصبي أو الرجل الذي لم يؤهله المجتمع للزواج أو الذي لا يقدر على شراء ((أمة)) أو عبدة من سوق الجواري فإنه يستطيع أن يصرف طاقته الجنسية بطريقته الخاصة، أو بيده بما سمي العادة السرية أو الاستمناء باليد.

وسئل ابن عباس عن الاستمناء باليد فقال: أف وتف! نكاح الأمة خير منه وهو خير من الزنا.. فهذا تنبيه على أن العزب المغتلم مردد بين ثلاثة شرور أدناها نكاح الأمة وفيه إرقاق الولد وأشد منه الاستمناء باليد وفاحشة الزنا [1].

رغم هذه الشرور الثلاثة التي أبيح منها نكاح الأمة وإرقاق الولد فقد كانت مؤسسة النكاح للرجال تختلف عن مؤسسة النكاح للنساء وحقوق الزوج غير حقوق الزوجة.

والحق إنه من الخطأ أن نستخدم اصطلاح حقوق الزوجة لأن الزوجة كإنسانة ليس لها حقوق في ظل نظام

([1]) أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين، دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ ص ٦٩٧.

الزواج إلا إذا كان العبد له حقوق في ظل الــرق أو النظــام العبودي.. والزواج بالنسبة للمرأة كالرق سواء بسواء.

وقد عبر عن ذلك فيلسوف المسلمين الإمام الغزالـــي حين قال تحت عنوان حقوق الزوج على زوجته: ((والقول الشافي فيه أن النكاح نوع من الرق، فهي رقيقة لـــه فعليهــا طاعة الزوج مطلقا في كل ما طلب منها نفسها)) [١].

وقال محمد رسول المسلمين: ((أيما امــرأة مــات وزوجها عنها راض دخلت الجنة)) [٢].

وحقوق الزوجة في الإسلام هي أن يعــدل زوجهــا بينها وبين زوجاته الأخريات، هذا العدل الذي يستحيل تحقيقه كما ذكر القرآن [٣] ((ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النســاء ولو حرصتم)).. وكان النبي محمد نفســه يفضــل بعــض زوجاته على البعض وقد أكد بعض رجال الدين الإســلامي

([١]) أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين دار الشعب القــاهرة ١٩٧٠ ص ٧٤٦ (كلمة رقيقة هنا معناها عبدة وهي مشتقة من كلمــة الرق).

([٢]) المصدر السابق.

([٣]) القرآن في سورة النساء الآية ١٢٩.

الذين عارضوا تعدد الزوجات قائلين إن شرط التعدد مرهون بما يستحيل تحقيقه وهو شرط العدل بين الزوجات لأن الرجل يرغب في الزوجة اللاحقة أكثر من السابقة وإلا فما تزوجها، وإن العدل المنصوص عليه هو العدل في المحبة، أو عدم الميل إلى امرأة أكثر من الأخرى)) [١].

ويرى بعض المفسرين أن المقصود بالعدل في الآيتين الأخريين: ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة**﴾ ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** ﴾ [٢] هو العدل في القسم والنفقة وليس العدل في المحبة الباطنة [٣].

والسؤال الذي يسأل هناك أيهما أهم للمرأة أو الإنسانة التي تحترم إنسانيتها وكرامتها.. العدل في توزيع بعض القروش أم العدل في المحبة الطبية والمعاملة الإنسانية؟ وهل الزواج مجرد أن تحصل الزوجة على بضعة

([١]) الزمخشري جزء ١ ص ١٤٣ جزء ٥ ص ٤٠٧، ٤٠٨.

([٢]) القرآن سورة النساء الآية ٣ و ١٢٩.

([٣]) القرطبي جزء ٥ ص ٢٠ – ٢٢، الجلالين جزء ١ ص ٢٧، الحصاص أحكام القرآن.

قروش أم الزواج تبادل عميق في المشـاعر بـين الرجـل والمرأة؟

ولو فرضنا وقوع المستحيل جدلا وهو العـدل بـين الزوجات.. فهذا الحق يجب ألا يسمى حقا لأن أول صفة في الحق هو أن يكون عدلا ومتسـاويا بـين الأفـراد وتعـدد الزوجات مع تنفيذ شرط العدل، يعني أن نصيب المرأة ربع رجل على حين أن نصيب الرجل ٤ نساء، إما أن تتسـاوى النساء في الظلم فمثل أن يتساوى العبيـد فـي ظـل نظـام العبودية الظالم وهذا لا يمكن أن يسمى عدلا أو حقا.

وكما وجد نظام الرق لصالح السيد ومنفعتـه ضـد مصالح العبد فقد وجد نظام الزواج الأبوي لصـالح الرجـل ومنفعته ضد مصالح المرأة والأطفال أيضا.

وعن فوائد الزوج للرجل يقـوم الإمـام الغزالـي: ((تفريغ القلب عن تدبير المنـزل والتكفل بشـغل الطـبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني وتهيئة أسباب المعيشة فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليها العـيش فـي منزله وحده إذا لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضـاع أكـر أوقاته ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصـالحة المصـلحة

للمنزل عون على الدين بهذه الطريق واختلال هذه الأسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش.. ولذلك قال سليمان الداراني: الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فإنها تفرغك للآخرة وإنما تفريغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعا [1].

ونفهم من هذا أن الزوج لا يمكن أن يتفرغ للدين أو للعلم إلا إذا كانت له زوجة تتفرغ لأعمال منزله وخدمته وأكله وتنظيف ملابسه.. والسؤال هنا هو: والزوجة..؟ كيف تتفرغ الزوجة للدين والعلم؟.

ويتضح لنا أن أحدا لم يفكر في هذا وكان المفروض أن الزوجة ليس لها وظيفة في مجال الدين والعلم وأن وظيفتها الوحيدة في الحياة هي الكنس والطبخ والغسيل وتنظيف الأواني وغير ذلك من الأعمال التي أطلق عليها الغزالي اسم الشواغل والمشوشات للقلب والمنغصات للعيش، ولو أن الرجل قام بها لضاع وقته وتعذر عليه العمل في مجالات العلم والدين.

([1]) الغزالي المصدر السابق ص ٦٩٩.

ونرى هنا كيف تم إلغاء عقل المرأة وطموحها الفكري والعلمي والثقافي من أجل أن يتفرغ الرجل في هذه المجالات، ويفرض الرجال على المرأة الأعمال المنزلية أي الشواغل والمشوشات والمنغصات التي تبلد العقل ثم يقولون عنها ناقصة عقل ودين.. وتقوم الزوجة بكل هذه الأعمال بغير أجر إلا طعامها، ولا يقتصر الزوج على استغلال عقل المرأة عن طريق إلغائه وعدم تنميته بالعمل والمعرفة، ولا يقتصر على تسخيرها في أعمال الخدمة بغير أجر ولكنه استغل المرأة أيضا في إشباع شهوته الجنسية تنظير طعامها أيضا وبالقدر الذي يريده منها... ويدخل ذلك ضمن واجبات الزوجة، فالزوجة يجب أن تلبي رغبة زوجها في أي وقت فإن عجزت أو مرضت أو غضبت أو امتنعت أو منعها أولياؤها يحق له أن يطلقها وتسقط نفقتها.

ويدخل ضمن واجبات الزوجة.. طاعة زوجها طاعة مطلقة، لا يحق لها أن تناقشه أو تسأله أو تخالفه، أما الرجل فإنه لا يطيع زوجته بل من الخير ألا يطيع زوجته بل من الخير ألا يطيع الرجل زوجته.

وقال عمر بن الخطاب: ((خالفوا النساء فإن خلافهن بركة)). وقد قيل شاوروهن وخالفوهن. وقال عليه السلام ((تعس عبد الزوجة)). وقال الحسن: والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبه الله في النار [1].

ومن حقوق الزوجة أن يدفع لها الرجل شيئا من المال (سمي المهر) حين يتزوجها ويدفع لها شيئا من المال (سمي النفقة) حين يطلقها وعليه أن يطعمها ويكسوها ويسكنها في منزل.. وليس على المرأة أن تشترط مواصفات لهذا المنزل فقد يكون هذا المنزل مجرد خُصّ أو كوخ... حسب مقدرة الزوج المالية وليس لها أن تشترط المهر أو النفقة أو نوع طعامها أو ملابسها فكل ذلك يحدده الرجل حسب مقدرته المالية.

وللأم في الإسلام أن تطلب أجرة على إرضاع طفلها[2] وعلى الأب أن يؤدي لها الأجرة من ماله إذا لم يكن

([1]) المصدر السابق ص ٧٠٦.

([2]) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الإسلام وتنظيم الوالدية، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية المكتب الإقليمي للشرق الأوسط شمال إفريقيا ١٩٧٤ – الجزء الثاني ص ٨٤.

للطفل مال وإلا فمن مـــال الطفـــل، ولا تجبـــر الأم علـــى الإرضاع وإنما تستحق الأم الأجرة إذا طلبتها إذا لـــم توجـــد امرأة متبرعة بإرضاعه ورضي بها الأب.. وإلا فإذا وجدت امرأة متبرعة رضي بها الأب فليس للأم إذا اختارت إرضاع طفلها أن تطلب أجرة على الإرضاع.

ونرى هنا أن رضا الأب هو العنصر الحاسم وهـــو يستطيع أن يمنع الأم من إرضاع طفلها إذا طلبت أجرا ويأتي بمرضعة أخرى أقل أجرا أو بغير أجر.

وتستحق الأم كذلك أجـــرا علـــى حضـــانة طفلهـــا (الحضانة تعني هنا تارة إرضاع الطفـــل وتـــارة خدمتـــه وتربيته) إلا إذا وجد متبرع بالحضانة فليس لها فـــي هـــذه الحالة أن تطلب أجرا إذا أرادت أن تتولى الحضانة بنفسها.

ولا تمثل مثل هذه الحقـــوق الضـــئيلة المشـــروطة بشروط صعبة التحقيق شيئا يذكر بل إنها تعطي الرجل حق الاستغناء عن الأم فورا إذا طلبت أجرا، وهذا الشرط يفرض على النساء الإرضاع والحضانة بغيـــر أجـــر.. فالأغلبيـــة الساحقة من النساء بسبب التربية الأبوية الصارمة وتضـــخيم المجتمع لوظيفة الأمومة وجعلها مقدسة لا يســـتطعن إلا أن

يضحين في سبيل أطفالهن بكل شيء حتى حياتهن فما بال مجرد الأجر؟

إن استغلال الزوجة والأم يتمثل في أنها تقوم بعدد من الوظائف الهامة بغير أجر.. فهي طباخة وغسالة ومرضعة وحاضنة ومربية بالإضافة إلى أداة جنس وإمتاع لزوجها، كل ذلك بغير أجر اللهم إلا طعامها وكساءها أي أبخس أجر يمكن أن يحصل عليه الأجير.

إن استغلال المرأة يقوم على أن الرجل يدفع لها أبخس أجر، والرجل هو الذي يحدد ما يدفع، قد يكون قروشا وقد يكون طعاما أو كساء لكنه شيء يدفعه الرجل ويبرر به سيادته على المرأة فالرجال قوامون على النساء بما أنفقوا من أموالهم.

فرضت سيادة الرجل على المرأة بسبب قروش تدفع وفرض على المرأة زوج واحد حفاظا على قروش الرجل من أن يرثها أطفال غير أطفاله.. فالحفاظ على القروش أو الإرث هو الذي وراء تلك القوانين الصارمة المتشددة التي تنشد إخلاص الزوجة لزوجها حتى لا تختلط الأنساب.. وليس من أجل الحب بين الزوجين.. لأنه لو كان الحب بين

الزوجين هو الأساس الذي يقوم عليه الإخلاص من المـرأة فقط ويفرض عليها زوج واحد على حين يباح لزوجها تعـدد العلاقات فإن هذا دليل على أن الإخلاص الزوجي ليس قيمة أخلاقية ولكنه إحدى وسائل القمع الاجتماعي للزوجة حتى لا تختلط الأنساب، والأنساب هنا هي أنساب الرجال فقـط، إن عدم إخلاص الزوجة لزوجها سوف يحطم على الفور النسب الأبوي وما يتبعه من إرث.

ومعنى ذلك أن الفلوس هي التي تفرض الأخـلاق.. والمفروض في الأديان وفي الإسلام أن الأخلاق ترتكز على المبادئ الإنسانية وليس على الفلوس.. وقد نـص القـرآن: ﴿... **وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى** ﴾[1]، و ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾.

وقد أدركنا من قبل كيف فطن المجتمع إلى الطبيعـة البيولوجية والجنسية القوية للمرأة. التي شبهها بقوة الشيطان، ومن هنا لم يكن في استطاعة المجتمع أن يفرض إخـلاص المرأة وعفتها إلا بأن يحول بينها وبين جميـع الرجـال إلا زوجها، والرجال المحرمين عليها مثـل الأب والأخ والعـم

---

(1) القرآن الكريم سورة سبأ الآية ٣٧.

والخال، وهذا هو السبب في نشوء ظاهرة الفصل بين الجنسين وتحريم اختلاط الرجال بالنساء وذلك بحبس النساء في البيوت. إن تحريم خروج النساء من البيوت يحقق ثلاثة أهداف في وقت واحد هي:-

يضمن إخلاص المرأة وعفتها لعدم اختلاطها برجل غريب.

يفرغ المرأة تماما لأعمال البيت وخدمة الرجال والأطفال والمسنين.

يحمي الرجال من خطر النساء وفتنتهن القوية المهلكة التي قد تذهب ثلثي عقله وتمنعه من التفكير في الله والدين والعلم كما قال بعض الفلاسفة في الإسلام.

ويستعير فلاسفة الإسلام من أسطورة آدم وحواء معظم أفكارها فيرون المرأة مثل حواء قد انطوت على قوة مهلكة للرجل وللمجتمع وللدين، وإن الحضارة قد بنيت على صراع ضد هذه القوة لتخضعها من أجل حماية الرجال منها وعدم انشغالهم بها عن واجباتهم تجاه الله والمجتمع.

ومن أجل الحفاظ على المجتمع والدين كان لا بد من فصل الجنسين وإخضاع النساء بالحديد والنار كما يقولون.

فالحديد والنار وحدهما اللذان يستطيعان أن يخضعا العبيد لأحكام ظالمة قائمة على الاستغلال. وحال المرأة في الزواج أسوأ من العبيد لأنها تستغل جنسيا واقتصاديا في آن واحد، بالإضافة إلى القهر الأخلاقي والديني والاجتماعي. وينال العبيد عن جهدهم بعض الأجر أو الجزاء، لكن الزوجة تنهض بأعمال الخدمة والبيت ورعاية الأطفال والمسنين بغير أجر، والعبيد قد يطلق سراحهم السيد فيصبحون رجالا أحرارا لهم كل حقوق الرجال الأحرار وأولها أن الرجل له عقل ودين.. أما النساء وطالما هن نساء فلا أمل في أن يكون لهن عقل الرجل ودينه.

ولأن الرجل أعقل من المرأة فقد أصبح من حق الرجل وحده (وليس المرأة) أن يكون الحاكم والإمام والمشرع والوالي،وإن من أول شرائط الإمامية في الإسلام أو الولاية هي ((الذكورة)) [1]، ثم الورع والعلم والكفاية.

---

[1] ( ) الإمام أبو حامد الغزالي دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ الفصل الثالث ص ٢٠٢.

ومن كل ما سبق يمكن تلخيص الأفكار التي ارتكز عليها بعض فلاسفة الإسلام في علاج مشكلة الجنس والمرأة على النحو الآتي:-

١- الرجال قوامون على النساء لأنهم ينفقون من أموالهم ولأنهم أكثر عقلا وورعا وعلما ودينا، وللزوج السيادة وعلى الزوجة الطاعة.

٢- تفريغ طاقات الرجال في العبادة والعلم وذلك عن طريق تفريغ النساء لخدمة الرجال في البيوت من حيث المأكل والمشرب والمغسل ورعاية الأطفال والمسنين.

٣- إشباع رغبات الرجال الجنسية حتى يتفرغوا للدين والله والعلم والمجتمع ويتم هذه الإشباع عن طريق النكاح من أجل التناسل ومن أجل تذوق إحدى متع الجنة للتسابق إلى دخل الجنة. وللرجال الحق في إشباع رغباتهم بالكامل بأي عدد من الزوجات والإماء والجواري أما الاستمناء باليد فهو شر وأشر منه الزنا.

إن الذكور الذين لا يجدون وسيلة لإطفاء الرغبة الجنسية إلا عن طريق الاستمناء باليد (المراهقون الصغار) أو الزنا (الرجال الفقراء الذي عجزوا عن شراء زوجة أو

أمة) هم الذي منعوا فطق من حق الإشباع الجنسية (وفرضت عليهم العفة) ﴿ **وليستعفف الذي لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله** ﴾ [1]. (ومن استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء).

٤- خطر المرأة وفتنتها قوّة مهلكة ولا بد من حماية الرجال من فتنة النساء وذلك بحبس النساء في البيوت فالرجل معرض للهلاك إذا استسلم للنساء وقد قال إبراهيم بن أدهم ((من تعود أفخاذ النساء لم يجئ منه شيء)) [2].

٥- يحظر على النساء الخروج من البيت إلى عالم الرجال الخارجي إلا للضرورة القصوى، وفي حالة خروج النساء من البيت يتحتم عليهن ألا يظهرن أي شيء من فتنتهن وذلك بتغطية أجسادهن وحفظ فروجهن وعدم إظهار مفاتنهن أو زينتهن.

ويتضح لنا الآن السبب الحقيقي وراء ذلك الحجاب الذي لم يكن موجودا في بدء الإسلام ولا في حياة محمد لكنه

---

(١) القرآن سورة النور ٣٣.

(٢) أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين دار الشعب القاهرة ١٩٧٠ – ص ٧٠٦.

شاع في المجتمعات العربية بعد ذلك وما زالت بعض البلاد العربية حتى اليوم تحجب نساءها بالكامل كالمملكة العربية السعودية، فالحجاب لم ينشأ لحماية المرأة وإنما أنشئ الحجاب من أجل حماية الرجل أساسا، والمرأة العربية تحبس في البيت ليس حماية لها ولأخلاقها وإنما هي حبست حماية للرجل ولأخلاق الرجل.

كأنما يقول المجتمع بهذا إن أخلاق الرجل أضعف من أخلاق المرأة، وأن قدرة الرجل على حماية نفسه أقل من قدرة المرأة، وأن الرجل أمام رغبته الجنسية ضعيف وأقل سيطرة عليها من المرأة، وأنه إذا كان هناك من هو أقوى من الآخر فلا شك أنه ليس هو الرجل، هذا رغم ما أشاعه المجتمع عن ضعف المرأة وعدم قدرتها على مقاومة الإغراء.

وترتكز الثقافة العربية الإسلامية في باطنها وليس في ظاهرها على أن المرأة قوية وليست ضعيفة، وإيجابية وليست سلبية، وفتاكة وليست مفتوكا بها، وأنه إذا كان هناك من هو جدير بالحماية فإنه الرجل بغير شك.

وقد كانت قوة المرأة هذه هي التي أفزعت الرجل البدائي وهي التي اقتضت منه أن يقمعها بجميع الوسائل الدينية والقانونية و الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية. وكان لا بد لجميع هذه الوسائل أن تعمل معا بقوة وشدة وصرامة من أجل إخضاع تلك الطبيعة القوية للمرأة، وهذا أمر منطقي، فإن قوة الشيء هي التي تحدد القوة المطلوبة لإخضاعه، ولهذا فإن أشد القوانين عنفا وصرامة هي تلك المتعلقة بالتحريمات والمحظورات على حياة المرأة الجنسية.

لقد كان القتل والحرق أحيانا أخف هذه القوانين،ومع ذلك فهناك من العلماء من يعتقد أن قوة المرأة البدائية كانت أقوى من هذه القوانين التي وضعها الرجل، وأنها قاومت النظام الأبوي في بدايته الأولى دفاعا عن طبيعتها وحياتها الحرة السابقة في ظل النظام الأمومي، وإن أحد الأسباب التي عطلت مسيرة الحضارة الأبوية الذكورية أكثر من ستة آلاف سنة لم يكن إلا تلك الطبيعة الجنسية القوية للمرأة البدائية [١].

---

(١) Mary jane, Sherfey, The Natureand Evolution of Femate Sexuality. Vintage Books, ١٩٧٣. p. ١٣٧ – ١٤٠.

ونستطيع أن ندرك بعد ذلك السبب الذي يجعل بعض الرجال حتى اليوم يقتلون المرأة إذا خرجت عن القوانين الجنسية والأخلاقية المفروضة عليها. وفي صعيد مصر حتى اليوم تسمع عن الأب أو الأخ أو العم الذي قتل البنت لأن دم العذرية لم يظهر ليلة الزفاف، أو هذا الزوج الذي يطلق الرصاص على زوجته إذا رآها مع رجل آخر.

وقد شجع الإسلام الرجال على الزواج بل جعله واجبا دينيا، ومن الأمثلة العربية الشائعة ((الزواج نصف الدين)). كما أباح الإسلام للرجال تعدد الزوجات، وتعدد العلاقات الجنسية خارج الزواج عن طريق معاشرة الجواري والإماء والسراري، واقتضت هذه الحرية الجنسية أن يتفاخر الرجال بعدد النساء اللائي يملكون سواء كن زوجات أو جواري، وأن يتفاخروا بالتالي بقوتهم الجنسية.

وقد ارتبطت القوة الجنسية عند الرجال بالرجولة والفحولة، وأصبح من العار أن يعرف عن الرجل إنه ضعيف جنسيا. ولم يكن هناك من أحد قادر على الحكم على الرجل من حيث القوة الجنسية أو ضعفها إلا المرأة بالطبع. ومن هنا أيضا السر في قوة المرأة الخفية ومحاولة المجتمع

حماية الرجل منها، وذلك بتعمية عيون النساء وتغطية وجوههن وحجب عقولهن بحيث لا يعرفن القوي من الضعيف، ومن هنا ارتفاع قيمة العذراء عن الثيب في الزواج، فالعذراء جاهلة بالرجل والجنس أما الثيب فقد خبرت الجنس والرجل من قبل ويمكن لها أن تكشف القوي من الضعيف، وهذا هو سبب انخفاض قيمة الأرمل أو المطلقة.

ولم يكن محمد نبي المسلمين يتبع هذه القاعدة الشائعة في زواجه فقد تزوج أربع عشرة زوجة كن جميعا ثيبا مطلقات أو أرامل، فيما عدا زوجة واحدة هي عائشة تزوجها بكرا.

وقد كان ((محمد)) أكثر تقدما وأكثر تحررا من الرجال الذي خلفوه بل من كثير من رجال اليوم الذي يفضلون العذراء بل يبحثون عن دم العذرية ليلة الزفاف، وما زالت عندنا في ريف مصر تلك العادة الشائعة من فض غشاء بكارة العروس بإصبع ((الداية)) أو إصبع الزوج وتلقي دم العذراء على خرقة بيضاء ثم عرضها على الناس كدليل مادي واضح على شرف البنت وأسرتها.

وقد اتضح لنا كيف انحدر حال المرأة العربي في الفلسفة والثقافة الإسلامية عن حالها في حياة محمد رسول المسلمين أو في جوهر الإسلام ذاته، وقد نتج عن فصل عالم الرجال عن عالم النساء وحبس النساء داخل البيوت أن أصبحت تقاليد الشرف والعزة في المجتمعات العربية ترتبط بالعذرية وباحتجاز النساء في البيوت. ومن الأمثلة الشعبية التي شاعت في المجتمع الفلسطيني حتى منتصف القرن العشرين ذلك المثل ((مرتي عمرها ما تركت البيت إلا محمولة)) أي محملة إلى قبرها [١]. وقد سمعت عن جدتي لأمي أنها لم تخرج إلى الشارع إلا مرتين في كل حياتها، مرة حين خرجت من بيت أبيها إلى بيت زوجها، والمرة الثانية والأخيرة حين خرجت من بيت زوجها إلى قبرها، وفي المرتين لم يكن يظهر منها للأعين شيء [٢].

([١]) توفيق كنعان، قوانين غير مكتوبة تتحكم بمكانة المرأة الفلسطينية، مجلة التراث والمجتمع، مطلعة التقدم، القدس، العدد ٢ يوليو ١٩٧٤، ص ٣٩.

([٢]) كانت جدتي لأمي تعيش في القاهرة (١٨٩٨ – ١٩٤٨) ولم يكن لها من عمل سوى أعمال البيت من رعاية الأطفال والزنوج، وكانت تنتمي إلى أسرة متوسطة أو فوق المتوسطة لكن

وقد بلغ من شدة الفصل بين العالم الرجال وعالم النساء أن المرأة التي كانت تخرج من بيتها كانت تتعرض للأذى من الرجال، وقد يكون هذا الأذى مجرد نظرات متبجحة، أو تعليقات جنسية نابية، أو أن تمتد لها يد رجل أو صبي فتمسكها من ذراعيها أو ثديها وفي بعض الأحيان قد يقذفها الصبية في الحواري بالحجارة ويجرون خلفها يرددون التهكمات أو الألفاظ الشعبية الجنسية التي تسب الأعضاء الجنسية للمرأة علنا. ومازالت أذكر كيف كنت أخشى السير بمفردي في بعض أحياء القاهرة وأنا تلميذة في المدرسة الثانوية (١٩٤٣ – ١٩٤٨) وكيف كان الصبية أحيانا يقذفونني بالحجارة أو يقولون لي باللغة العربية العامية بعض أنواع السباب الشائعة مثل ((اللغة على عضو أمك الجنسي)) أو ((يا ابنة المرأة التي تنكها الرجال)) (وفي

جدتي لأبي والتي كانت تعيش في الفترة نفسها في قريتنا ((كفر طلحة)) لم تعرف الحجاب وكانت تخرج كل يوم من البيت للعمل في الحقل أو الشراء أو البيع في السوق أسوة بكل الفلاحات من الأسر الفقيرة في الريف.

المجتمعات عربية أخرى تعرضت النساء للأذى في الشوارع لمجرد أن أصابع أيديهن كانت ظاهرة للعيان)) [1].

وهذا الإيذاء من جانب الرجال للمرأة الخارجة عن الحدود الموضوعة لها هو البيت، أو المعتدية على عالم الرجال باقتحامه والسير فيه يدل على أن الرجل لم ينظر إلى المرأة كمخلوق سلبي ضعيف وإنما نظر إليها كمعتدية على الرجل وتستحق العقاب لتعود بسرعة إلى حدودها. وتتضمن هذه النظرة الفكرة السابقة بأن المرأة قوية، وقد أراد الرجل أن يحمي نفسه من المرأة بكافة الوسائل وهو لم يحبسها في البيت فقط، ولكنه أحاط عالمه بالأشواك والموانع والمدافع والاستحكامات حتى إذا ما خطت المرأة خطوة واحدة نحو هذا العالم الرجولي انفجر في وجهها مدفع رشاش وإن كان حجارة أو سبابًا ينهال على أمها وجنسها.

أما عالم النساء فهو في نظر الرجل شيء محاط بالألغاز والأسرار الغامضة غموض السحر والشيطنة والعفاريت، هو عالم يستوجب من الرجل حين يضطر إلى

---

(١) توفيق كنعان، قوانين غير مكتوبة تتحكم بمكانة المرأة الفلسطينية ص ٤٠.

الدخول إليه أن يستعيذ الله الذي لا حول ولا قوة إلا به ويردد أسماء الله كلها، فيقول الرجل العربي حتى اليوم في ريف مصر حين يدخل إلى البيت الذي فيه نساء: يا حافظ، يا حفيظ، يا لطيف، يا ستار يا رب، يا ساتر يا كريم.

وفي بعض المجتمعات [١] العربية قد يضيف الرجل قائلا: ((دستور)) (بمعنى إفساح الطريق) وهي الكلمة نفسها الشائعة جدا والتي يقولها الريفي (أو الريفية) لطرد العفاريت أو الجان من المكان [٢].

وارتباط المرأة بالعفاريت والأرواح الشريرة فكرة سادت ولا تزال تسود كثيرًا من أنحاء الشرق والغرب، وهي موروثة عن قصة حواء والاعتقاد بأنها إيجابية في الشر ولها صلة بالشيطان. وقد أدى ظهور الصوفية في الإسلام إلى

---

(١) توفيق كنعان، قوانين غير مكتوبة تتحكم بمكانة المرأة الفلسطينية ص ٣٩.

(٢) كنت أسمع هذه الكلمة تتردد كثيرا السنة الفلاحين والفلاحات في قريتي في حفلات الزار أو حين تذكر سيرة العفاريت والجان، فيصيح الواحد منهم دستور بمعنى اللهم اطرد العفاريت من طريقنا وتستخدم الكلمة نفسها بمعنى إفساح الطريق وحفظ النظام، والكلمة تعني أيضا النظام الموضوع أو القوانين الدستورية.

منح النساء فرصا للوصول إلى مراتب الوليات، لكن نسبة النساء الوليات إلى الرجال الأولياء ضئيلة جدا، أما الأرواح الشريرة فتقول إحدى الدراسات العربية إن نسبة الأرواح الأنثوية فيها ٨٠% [١].

إن معظم الدلائل في تاريخ الرجال العرب تدل على أن المرأة لم تخف من الرجل بقدر ما خاف منها الرجل، إلا أن مأساة الرجل العربي وغير العربي إنه يخاف من المرأة ويرغبها في آن واحد. وأستطيع أن أقول إن الرجل العربي قد تغلب على خوفه من المرأة أكثر مما فعل الرجل الغربي، أو أن رغبة الرجل العربي في المرأة فاقت خوفه منها أكثر مما فعل الرجل الغربي، وقد يرجع ذلك إلى اختلاف ظروف كل منهما واعتراف الإسلام بالمتعة الجنسية (على خلاف المسيحية).

وأدى هذا بطبيعة الحال إلى أن تحتل أمور الجنس والحب – حيزا أكبر في حياة العرب وأشعارهم وآدابهم

---

(١) توفيق كنعان، الينابيع المسكونة وشياطين الماء (في فلسطين) مجلة التراث والمجتمع مطبعة التقدم، القدس، العدد ٢، يوليو ١٩٧٤، ص ٣٨.

وفنونهم، وفي مقابل ذلك انتشرت أيضا الأقوال المأثورة عن فلاسفة العرب وآدابهم التي تحذر من الإفراط في ملذات الجنس أو الاستسلام لها، وتحذر الرجال من الغرام بالنساء والوقوع في سحرهن، ومن العبارات المعروفة التي قالها ابن المقفع: ((اعلم أن من أوقع الأمور في الدين، وأنهكها للجسد وأتلفها للمال، وأضرها بالعقل، وأزراها للمروءة وإسراعها في ذهاب الجلال والوقار الغرام بالنساء)) [1].

وإني اعتقد أن ابن المقفع لم يكن يوجه نصيحته هذه إلا لهؤلاء الرجال الذين يملكون الجلال والوقار والمال الذي يحذرهم من فقدانه بسبب الغرام بالنساء. أما هؤلاء الرجل الذين لم يكونوا يملكون المال أو الوقار أو الجلال وهم بغير شك الأغلبية الساحقة من الشعب فلم تكن نصيحة ابن المقفع تفيدهم أو تعنيهم في شيء، لأن الرجل منهم بحكم افتقاره إلى المال والجلال والوقار يفتقر إلى الوسائل الأساسية التي يمكن بها أن يحظى بزوجة شرعية واحدة يدفع مهرها وينفق عليها

---

(1) ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير، مكتبة البيان، بيروت ١٩٦٠، ص ١٢٧.

وعلى أولادها فما بال الأمر بقدرته على أن يصول ويجول في عالم الغرام بالنساء؟.

وفي المجتمع العربي كغيره من جميع المجتمعات الأبوية الطبقية والقائمة على الفروق الكبيرة بين الطبقات لم تكن الحرية الجنسية أو حياة الجنس والحب واللهو إلا من نصيب الأقلية القليلة، أما الأغلبية الساحقة من الرجال والنساء فلم يكن نصيبهم إلا التلظي بالحرمان والخضوع للتقاليد والقوانين التي تحرم الجنس إلا لمن يستطيع أن يدفع الثمن.

وقد عرف عن العرب بسبب شظف العيش وصعوبة الحصول على الرزق في مجتمع متخلف وبسبب استغلال الحكام لهم في الداخل والخارج عرف عنهم الجلد والصبر وتحمل الحرمان سواء كان حرمانا من الطعام أو الشراب أو الجنس، إلا أن الشعب العربي كغيره من الشعوب في كل زمان ومكان كان قادرا دائما على تعويض هذا الحرمان بأشياء أخرى، ولعل هذا يفسر لنا سبب إقبال الشعب العربي على سماع قصص ألف ليلة وليلة بكل ما فيها من حكايات جنسية مثيرة، إن هذا الإقبال على السماع أو الترديد لم يكن

إلا تعويضا عن الحرمان في الحياة الواقعية، إن هذه الأقاصيص كما يقول صادق العظم:

((تروى أحداث علاقات غرامية تبدو مثيرة لأنها تتعارض والعرف الأخلاقي السائد والشريعة التي تسيطر على حياة المجتمع ومفاهيم الحلال والحرام المعمول بها، لذلك نجد الزوجات يخن أزواجهن مع عشاقهن أو عبيدهن، والفتيات العذراى يلاقين الشباب من عشاقهن سرا، والرجال يهجرون زوجاتهم ويسعون إلى عشيقاتهم خفية، وجميعهم يعمل على تحقيق رغباته الجامحة المتدفقة بشتى الأساليب بما فيها الاحتيال والكذب والتحذير والفرار.. الخ.. لا ريب أن طغيان هذه الموضوعات على القصص الشعبي المذكور يتجاوب مع رغبات عميقة في نفس كل إنسان يعيش حياة المجتمع الرتيبة وتتوق نفسه لتحقيق التجربة العاطفية العنيفة، ولكن ما العمل حين يكون كل شيء حوله واقفا له بالمرصاد لمنعه من السير على هذه الطريقة الوعرة والخطرة، فيجد

في هذه القصص والحكايات بديلا عن التجربة الممنوعة عرفا وتقليدًا)) [١].

هذه التقاليد وهذا العرف في المجتمع العربي كان في حقيقة الأمر يفرض القيود على الجنس أكثر مما كان يبيحها، وينزع إلى فصل الحب عن الجنس، والروح عن الجسد، تلك النزعة التي توارثتها البشرية عن اليهودية والفكرة التي سادت عن تأثيم الجنس وجعله ملوثا أو مدنسا.

وقد ربط العرب بين الحب والروح، وآمنوا بأن الحب روحي خالص كحب الله وكحب الوطن وحب الأم، ثم هبطوا بالجنس والجسد إلى الرغبات الأرضية الحيوانية التي يجب ألا تلوث مشاعر الحب السامية.

وكما نشأ الحب الرومانتيكي في الغرب فقد نشأ الحب العذري عند العرب، وبلغ من شدة الفصل بين الحب والجنس أن العرب فصلوا أيضا بين الحب والزواج، فأصبح من المحرم على الرجل الذي يحب امرأة أن يتزوجها، وفي تاريخ العرب كثير من قصص الحب العذري، كقصة

---

(١) صادق جلال العظم، في الحب والحب العذري، منشورات نزار قباني، بيروت، ١٩٦٨، ص ٣٩.

((جميل)) الذي أحب ((بثينة)) حبا جارفا فأرغمها أهلها على الزواج برجل آخر دميم أعور، وهناك قصة ((قيس)) الشاعر العربي الشهير الذي ملأ السماء والأرض شعرا في حب ((ليلى)) فمنعوه من الزواج منها وزوجوها لرجل آخر، وهذه ((عفراء)) التي أحبها ((عروة بن حزام)) ثم لم يتزوجها.

ويزخر أدب العرب وأشعارهم بمآسي الحب العذري، ويترنم العرب بالعذاب في الحب ويتلذذون بآلام الفراق والشوق والحرمان، ومن أقوال ابن حزم [1] ((والحب داء عيان ومقام مستلذ وعلة مشتهاة، ولا يود سليمها البُرْء، ولا يتمنى عليلها الإفاقة)).

وأستلذ بلائي فيك يا أملي ولست عنك مدى الأيام أنصرف

وهذه النزعة إلى استعذاب الألم أو ((الماسوشية)) ليست صفة العرب وحدهم، ولكنها صفة البشرية بأجمعها منذ نشأت الفكرة بفصل الجسد عن الروح وتأثيم الجنس.وقد تميز الإنسان عن الحيوان بكبر حجم مخه وتطوره العقلي المستمر

---

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١١.

للتغلب على مخاطر الأرض وعواطف الطبيعة والكوارث التي يقابلها في حياته، وفي رأيي أن إحدى الكوارث التي واجهت الإنسان في حياته هي تلك الفكرة بفصل الروح عن الجسد وتأثيم الجنس. إن هذه الفكرة في رأيي كان من الممكن لها أن تفتك بالإنسان فتكا أشد من فتك وحوش الغابة لولا قدرة عقل الإنسان على التطور والتكيف المستمر. إن أي حيوان بغير عقل لم يكن أمامه إزاء هذه الفكرة إلا طريقان اثنان إما الامتناع الكامل عن الجنس الذي يقود إلى انقراض هذا الحيوان من فوق الأرض، وإما ممارسة الجنس ثم الموت كمدا وندما على اقتراف هذا الذنب الشنيع، وكلا الطريقين يقود إلى الموت بغير شك.

لكن عقل الإنسان وهو سلاحه الوحيد في الحياة، استطاع أن ينتصر على هذه الفكرة بمثل ما انتصر على الأسود والنمور. وإذا عرفنا أن انتصاره على هذه الأسود والنمور لم يكن أبدا بالمواجهة أو المصارعة الحرة الشجاعة وإنما بالدهاء والذكاء والهروب من المآزق بالاختفاء فوق الشجر، أدركنا أن الإنسان لم يواجه هذه الفكرة بالمصارعة الحرة الشجاعة وإنما لجأ إلى الهروب والاختفاء طلبا للحماية

والإفلات من المأزق. ولم تكن ((الماسوشية)) أو استعذاب الألم إلا نوعا من الحماية، حاول الإنسان أن يعالج بها إحساسه الطاغي بالذنب، وكأنه يقول لنفسه: نعم أنا مذنب بممارسة الجنس ولكني أكفر عن ذنبي بهذا الألم الشديد، الذي أتحمله بكل صبر، بل بلذة أيضا.

وكم أخطأ ((فرويد)) حين وضع نظريته عن سيكولوجية المرأة وجعل الماسوشية ركنا أساسيا فيها وجزءا من الطبيعة التي ولدت بها، فالمرأة ليست هي وحدها الماسوشية،ولكن الرجل أيضا ماسوشي، وكلاهما ضحية تلك الفكرة التي فصلت بين الجسد والروح. ولأن تهمة الجسد والجنس ألصقت بالمرأة أكثر من الرجل فيمكن القول إن إحساس المرأة بالذنب أشد من إحساس الرجل وبالتالي فإن حاجتها إلى الألم أكثر من حاجة الرجل للتكفير عن هذا الذنب، وقد أوحت إليها التوراة بهذا الألم حين قالت لها ((تلدين في الأسى والألم)).

وكان الأجدر ((بفرويد)) أن يبحث عن أسباب ماسوشية المرأة في التاريخ والمجتمع بدلا من أن ينسبها إلى طبيعتها وتكوينها البيولوجي والنفسي كأنثى.

ومن المهم أن أذكر هنا أن بعض العلماء العرب قـــد حاولوا مناهضة هذه الفكرة الفاصلة بين الجسد والروح، وقد حاول بعضهم عقد مصالحة بين الجسد والروح.

أحد هؤلاء العلماء والمفكرين القدامى هو الشيخ أبـــو علي الحسن بن علي بن سينا (الشهير بان ســـينا) والـــذي توفي سنة ٤٣٨ هـــ، وقد سبق ابن سينا علمـــاء وفلاســـفة الغرب في نظرته العلمية الشاملة للإنسان وتقـــديره للجســـد والأحاسيس الحسية، وكان ابن سينا من الأوائل فـــي العـــالم جمع الذي طاب بعدم الفصل بين الجســـد والـــنفس وإعـــادة الصلة الأصلية الموجودة في الإنسان بين الجـــنس والحـــب، فالإنسان وحدة واحدة لا تتجزأ.

المرأة في الأدب العربي

لم تختلف الصورة التي رسمها الأدباء العرب القدامى والمعاصرون للمرأة عن صورتها في عيون أدباء الغرب إلا في التفاصيل أو بعض الاختلافات التي يقتضيها اختلاف الظروف والسبق أو التأخر في مجال عن مجال. وكلها اختلافات سطحية لا تمس جوهر الصورة عن المرأة كمملوكة للرجل بحكم النظام الأبوين سواء كان زراعيا أو صناعيا أو رأسماليا، متخلفا أو متقدما، في الشرق أو في الغرب، مسيحيا أو إسلاميا.

وإذا كان الفن أو الأدب يرتكز مضمونه على الصراع، وسواء انتهى هذا الصراع بالفشل أن لنجاح فهو نوع من الدراما أو المأساة التي تستحق الرواية، وتستحق التسجيل سواء كانت مبكية أو مضحكة، سواء كانت تراجيديا أو كوميديا، وكم من صراعات ومفارقات في حياة الإنسان تدعو إلى الضحك والبكاء معا.

ولعل أهم هذه الصراعات جميعا هو الصراع بين الرجل والمرأة منذ انتزع منها حقها (الطبيعي والمنطقي) في النسب، ولأن انتساب الأطفال إلى الرجل كان ولا يزال

أمرا غير طبيعي وغير منطقي، فقد ظل الصراع بين الرجل والمرأة مستمرا منذ بدأ النظام الأبوي حتى اليوم، وظل الرجل متخوفا حتى اليوم من أن ينتهي الصراع بانتصار المرأة واستردادها لحقها الطبيعي الأول. والدليل على خوف الرجل من المرأة أنه لا يزال يحوطها بالسلاسل والقيود التي قد تكون قوانين صارمة مقدسة أو نظريات علمية نفسية وأخلاقيات معينة والامتلاك.

الدليل على خوف الرجل من المرأة أنه لا يزال يقيدها ويملكها بشتى الوسائل وهو يقيدها بوعي وبغير وعي، وكأنما هو في اللحظة التي يكف فيها عن تقييدها فسوف ينقلب الوضع فورا وتصبح المرأة هي الأعلى وليس الأدنى، وهي الأقوى وليس الأضعف وبرغم أن الرجل بذل كل ما عنده لابتكار قيود للمرأة منذ خمسة أو ستة آلاف سنة إلا أنه لم يتخلص قط من خوفه من المرأة ومن حاجته المستمرة لأن يقيدها، مما يؤيد أن خوفه منطقي وله مبرراته القوية، وله دوافعه الطبيعية وأولها إدراك الرجل أنه يفرض على الطبيعة وضعا غير طبيعي. فالمرأة منذ أصبحت امرأة منذ ملايين السنين وهي تنسب أطفالها إليها بحكم الطبيعة، والرجل وإن

عرف حديثا الأسرار العلمية للحمل والولادة إلا أنه ظل جاهلا لها أزمنة طويلة، والجهل يولد الخوف، وظل الرجل بحكم جهله يخاف المرأة ويخاف من كل مظاهر حملها وولادتها، ولم يكن لبضعة آلاف من السنين أن تقضي على خوف الرجل الذي عاش معه ملايين السنين، ولم يكن لهذا الزمن القصير بالنسبة لعمر البشرية أن يقتلع من ذاكرة الرجل صورة الأنثى الأم خالقة الحياة والإلهة القديمة.

ولم تكن قصة آدم وحواء إلا تعبيرا عن خوف الرجل من المرأة، ولولا هذا الخوف ما نسب الشر والإثم والشيطنة إلى حواء، فالمرأة الشيطان ليست إلا تجسيدا لمخاوف الرجل، والمرأة التي تملك من القوة والسحر والفتنة ما يوقع الرجل ويسقطه من الجنة إلى الأرض ويسبب له الدمار والهلاك والموت امرأة لا بد أن تكون مخيف ومرعبة وربما كانت كذلك فعلا.

ويربط علم النفس بين الخوف والكراهية في نفس الإنسان، فالخوف يولد الكراهية والكراهية تغذي الخوف وكلاهما يستمر باستمرار الآخر.

وقد اعترف ((فرويد)) بأن الرجل يكـــره المـــرأة، وأنه ينظر إليها كمصدر للخطر، وفي كتابه التحريم والعذرية The Taboo of Virginity .[1]، ويقول فرويد:

((........ إن عادة الرجل أن يسقط كراهيته الداخلية العميقة على العالم الخارجي أي ينسبها إلى أي شيء يكرهه أو أي شيء لم يألفه، ينظر الرجل إلى المرأة أيضا على أنها مصدر للخطر، وأول علاقة جنسية بينه وبين المرأة تظل في ذاكرته محفوفة بالخطر)).

ولا يختلف خوف فرويد من المرأة كثيرا عن خوف الرجل الإفريقي الذي لا يزال يؤمن في بعض قبائل إفريقيـــا بأن المرأة إذا خطت ساق رجل فإنه يعجـــز جنســـيا، أو أن الرجل الذي يلمس المرأة في فترة الحيض يسقط ميتا.

وبمثل ما احتوى العلم على مخـــاوف الرجـــل مـــن المرأة كذلك احتوى الأدب على هذه المخـــاوف، ولا يكـــاد يختلف خوف ((فرويد)) من المرأة عن خوف ((برنـــارد

---

(١) Signund Freud. The Taboo of Virginity (١٩١٨). in Standard Edition vol. ll. London: Hogarth press, ١٩٥٧.

شو)) ولا يختلف خوف ((برنارد شو)) من المـــرأة عـــن خوف ((توفيق الحكيم)) أو ((عباس محمود العقاد)).

وتتمثل فكرة (فرويد)) عن سلبية المرأة فـــي أداب تولستوي، وكما تغزل تشيكوف بسلبية المـــرأة فـــي قصـــة ((حبيبتي)) تغزل عباس العقاد بسلبية المرأة في كتاباته فهو يقول: ((المرأة تستعصم بالاحتجاز الجنسي، لأن الطبيعة قد جعلتها جائزة للسابق المفضل من الذكور فهي تنتظر حتـــى يسبقهم إليها من يستحقها فتلبيه تلبية يتساوى فيهـــا الإكـــراه والاختيار، كذلك تصنع إناث الدجاج وهـــي تنتظـــر ختـــام المعركة بين الديكة أو تنتظر مشيئتها بغير صراع)) [١].

والتغزل في سلبية المرأة باعتبارها طبيعتها وفطرتها يعني بالضرورة هجاء إيجابيتها وقوتها واعتبارهـــا خارجـــة عن طبيعتها أو شاذة تستوجب الكره أو الاســـتقباح أو علـــى الأقل السخرية والتهكم.

وبلغ من كره الرجل للمرأة الإيجابية القوية أن أسقط عليها كل خوفه القديم، فاقترنت صفات القوة في المرأة بالشر

---

(١) عباس محمود العقاد، المرأة في القـــرآن، دار الهـــلال، القاهرة، ص ٣٥.

والخطر والغموض والكيد والرياء والكذب والالتواء والفتنة والسحر والشيطنة.

وإذا كانت المرأة سلبية تنتظر مشيئة الرجل فتلبيه سلبية أيضا يتساوى فيها الإكراه والاختيار كما قال العقاد، فكيف يمكن إذن أن تكون هي نفسها الشيطانة التي توقع الرجل من أعلى عليين إلى أسفل سافلين كما قال زكي مبارك، أو تسلب عقل الرجل وماله ووقاره وجلاله كما قال ابن المقفع؟ وكيف تكون هذه السلبية بالطبيعة والفطرة إيجابية فجأة كامرأة العزيز في قصة يوسف تلك المرأة الحسناء التي راودته على نفسها فقال معاذ الله إنه ربي إنه أحسن مثواي، ولولا أنه رأى برهان ربه ولولا أنه من عباد الله المخلصين لاستجاب لها ووقع في السوء والفحشاء [1].

إن هذا المأزق الذي وقع فيه الرجل باعتبار المرأة سلبية ضعيفة لم يكن له من حل سوى أن تكون إيجابيتها نوعا من الدهاء والمكر والكيد والرياء.. وامتلأ الأدب العربي بهؤلاء النساء الماكرات اللائي يتقنّ أنواع المكر

([1]) تفسير الطبري، المطبعة الميمنية بمصر، ج ٤، الجزء ١٢، ص ٩٨ – ١٠٣.

والكيد المختلفة.. بل إن العقاد نفسه يناقض نفسه، وبعد أن يقرر أن المرأة سلبية بالطبيعة يقول: ((الرياء الأنثوي الذي يصح أن يقال فيه إنه رياء المرأة خالصة، إنما يرجع إلى طبيعة في الأنوثة تلزمها في كل مجتمع، ولا تفرضه عليها الآداب والشرائع، ولا يفارقها باختيارها أو بغير اختيارها [1].

ويريد العقاد هنا أن يسلب المرأة إيجابيتها في المكر والرياء كما سلب أسلافه الفلاسفة إيجابية حواء في الشر وقالوا إن الشر لم يقع بإرادتها واختيارها وإنما بإرادة آدم أو إرادة الإله.

([1]) عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن، دار الهلال القاهرة، ص ١٧ – ١٨.

كراهية وحب مشبوب

وبرغم كل محاولات الرجل المستميتة للإقلال من إيجابية المرأة وقوتها، وبرغم محاولاته المستمرة لاعتبارها أدنى وأقل ولا تستحق أي اهتمام أو عناء، إلا أن المرأة ظلت تشغل أكبر حيز في ذهن الرجل، وبرغم أنه نجح في طردها من معظم مجالات المجتمع إلا إنها ظلت كالشبح الجاثم على فكره، لا يستطيع طرده من ذهنه، ولا يستطيع الفرار منه حيثما ذهب.

إن من يستعرض إنتاج الأدباء في الشرق وفي الغرب قديما وحديثا لا بد أن يدهش لهذا الكم الهائل من القصص والشعر والروايات التي تناولت المرأة، ورغم أن معظم هذه الكتابات تصور المرأة تصويرا خاطئا أو متناقضا إلا إنها تدل على أن الرجل لم يتخلص قط من خوفه، وإن هذا الخوف قد أنتج الكراهية، وإن هذه الكراهية استحالت إلى نوع من الحب المشبوب، فالشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده كما تقول الحكمة العربية القديمة، ومن الوسائل التي يحمي بها الإنسان نفسه ضد ما يكرهه هو أن يستسلم له ويحبه.

ولعل هذا يفسر لنا بعض الأسباب التي جعلت علاقة الرجل والمرأة علاقة حب وكراهية في آن واحد، ولذة وألمن وإقبال وفرار، وراحة وعذاب، وقسوة وحنان، وسذاجة ومكر إلى آخر تلك التناقضات التي تميز تلك العاطفة الشائعة بين الرجال والنساء والتي سميت على مر الأزمنة ((بالحب)) وهي تسمية خاطئة، لأن الحب بين الرجل والمرأة طوال هذه الأزمنة لم يكن ((حبا)) وإنما رغبة في ((الامتلاك)).

وبمثل ما كان التناقض جوهر الحب في الأدب العربي حوت المرأة أيضا في جوهرها التناقض، ذلك أن الحب عند الرجل يرمز إلى المرأة والمرأة ترمز إلى الحب، وكلاهما في نظرة شيء واحد.

ويحتوي تاريخ الأدب العربي على كثير من الكتاب الذي عرفوا بعدائهم وكراهيتهم للمرأة ومنهم المعري والعقاد والحكيم وغيرهم. وقد اشتهر عباس محمود العقاد في الأدب العربي باسم ((عدو المرأة)) وانعكست كراهيته وعداوته للمرأة في الكثير من كتاباته بحيث تفوق في هذا المجال على أستاذه ((شوبنهور)) الذي أشاد برأيه في المرأة في عدة مناسبات من حيث إنها طفلة كبيرة الجسم في كل أدوار

حياتها، وفيها من أخلاق الطفل نزقه وقصور عقله ومحاكاته لغيره، واعتماده على غيره، وتقلبه وكذبه ورياؤه، وهي أخلاق في رأيه تخلفت في نفس المرأة من بقايا الهمجية والفطرة لم تنجح السنون في تلطيف شرتها وتهذيب طبيعتها[1].

إلا أن العقاد سرعان ما يناقض نفسه، فإذا بهذا المخلوق القاصر كطفل، أو السلبي كدجاجة، ينقلب فجأة ليصبح القوة التي ما بعدها قوة، فيقول عن المرأة في روايته سارة إنها: ((مظهر القوة التي بيدها كل شيء في الوجود وكل شي في الإنسان [2] بل إن هذه القوة تصبح في قوتها وبطشها وظلمها كقوة دولة طاغية، فيترنم بها في شعره ويقول [3].

ظالمة أنت ويا ويلتي — من دولة تطغى و لا تفصح
وأكبر الظلم لمن ذاقه — ظلم به مظلومه يسمح

([1]) عباس محمود العقاد، الإنسان الثاني، ص ٧ – ٨.

([2]) عباس محمود العقاد، سارة، سلسلة اقرأ. العدد ١٠٨، ص ١٢٩.

([3]) ديوان العقاد، ص ٣٠٢.

قـــاسيـــة أنت ولكننـــــي أقبل الكف التـــي تجـــرح
وأعظم القسوة تلك التي يلهو بها المجروح بل يفرح

ويتضح لنا الآن كيف تنقلب الكراهية إلـــى ســـادية شديدة، وعدوان عليها إلى الحد الذي يرى أن المرأة لا بد أن يحكمها الرجل ويخضعها وأن لا يتأثر بفتنتهـــا أو جمالهـــا. فجمال المرأة في نظر العقاد ليس جمالا أصيلا، وإنمـــا هـــو جمال غير مستقل بذاته، وغير حر في انطلاقاته لأن إدراك جماله يتوقف على الرجل، فالرجل هو الحر لأنـــه مســـتقل بذاته وعلى هذا فالجمال في رأيه هو جمـــال الرجـــل، أمـــا المرأة فجمالها ليس إلا القبح [1].

وتبلغ عداوة العقاد وساديته إنه لم يعط نفسه وحـــده حق إيلامها وخيانتها وهجرها ولكنه جعل من نفسه داعية في هذا المجال، وأخذ يحث الرجال علـــى هجرهـــا وخيانتهـــا ويتغنى بذلك في شعره قائلا:

([1]) عباس محمود العقاد، هـــذه الشـــجرة، ص ٢٤ – ٥٠، مطالعات في الكتب والحياة ص ٦٧.

أنت الملوم إذا أردت لهـــا ما لم يرده قضاء باريها [١].
خنها، ولا تخلص لها أبدا تخلص إلى أغلى غواليهـــا

ومعنى هذا في رأيه أن خيانة الرجل للمرأة تؤدي به إلى أن يصل إلى قلبها وحبها، فالمرأة في نظـــر العقـــاد لا تخلص إلا لمن يخون، ولا تحب إلا من يهجرها ويكرههـــا، ولا تقول نعم إلا حينما تريد أن تقول لا، وهـــي مراوغـــة، ماكرة، كاذبة مخلوقة مـــن عجينـــة الخـــداع والكيـــد، وإن ((كيدهن عظيم)) كما جاء في القرآن، هو يقرر أن الكيـــد والخداع طبيعة المرأة وسلاحها مع الرجال الذين يكرهونهـــا أو يحبونها سواء بسواء:

خـــل المـــلام فليس يثنيها حب الخداع طبيعة فيها [٢].
هو سترها، وطلاء زينتها وريـــــاضـــة للنفس تحييها
وسلاحهـــا فيما تكيد بـــه مـــن يصطفيها أو يعاديـــها

ومن المعـــروف أن الوجـــه الآخـــر للســـادية هـــو الماسوشية، وفي أدب العقاد وشعره قدر كبير من كليهما، إلا إنه حاول أن يبالغ في السادية والعداوة، وحاول أن يحولهـــا

---

(١) عباس محمود العقاد، أعاصير مغرب، ص ٥٧.

(٢) المصدر السابق.

إلى نوع من التسلط والسيطرة، مستعينا في ذلك بما جاء في القرآن من أن الرجال قوامون على السناء، ولهم على النساء درجة حيث إن النساء في ((رأيه)) أقل من الرجال قــدرة على تحكيم العقل وتغليب الرأي وصــلابة العزيمــة [1] وأن النساء ليس لهن سعادة أكبر من سعادة الطاعة ولا أمل أرفع من حب الرجل الذي تطيعه، وليقس الرجل عليها أو يرحمها أو يعذبها فإنها لسعيدة بالطاعة إذا وجدت من يطاع ويقبــل عذابها وراحتها، ويلتقي عزتها وذلها على السواء [2].

ويخرج العقاد من ذلك بأن المــرأة خلقــت لتحــب الرجل، وإن الرجل خلق ليحب نفسه في حبه إياها، وهذا في رأيي على نسق الفكرة الدينية اليهودية والمسيحية أن المــرأة خلقت في صورة الرجل خلق في صورة الإله، أو أن الرجل ظل الله على الأرض وصورته وإن المرأة ظل الرجل.

---

(1) عباس محمود العقــاد، المــرأة فــي القــرآن الكــريم، ص ٢٢ – ٢٣.

(2) عباس محمود العقاد، ساعات، ص ٢٠ – ٢١.

وعندنا مثل شعبي في العربية يقول: ظل راجل ولا ظل حيطة، أي أن الرجل هو ظل الله، وبغير الرجل لا تستطيع المرأة أن تعيش.

أما نموذج المرأة الذي طغى واحتل أكثر صفحات الأدب العربي بصفة عامة فهو بغير شك نموذج المرأة ((البغي)) أو ((العشيقة))، ومقابله أيضا بالأهمية نفسها نقيضه وهو نموذج الأم الطاهرة أو العذراء العفيفة الطاهرة.

وهذه الفكرة التي قسمت النساء إلى نوعين: البغي أو الأم لم يكن ليعرفها العرب إلا من أجدادهم القدامى الذين بدأوا النظام الأبوي وبدأوا معه تقسيم النساء إلى زوجات وأمهات من ناحية وإلى مومسات وعشيقات ومن ناحية أخرى، ثم ارتباط البغي بالإثم والسقوط والفساد لأن البغي هي التي تجسد الجنس، والجنس من فعل الشيطان أو حواء.

ولست أدعي إنني قرأت كل ما صدر في العالم الغربي أو العربي من أدب، لكنني لم أصادف فيما قرأت لأدباء من الغرب أو الشرق أي رجل أديب لم يتحرر من هذه الفكرة القديمة مهما اشتهر في كتاباته بالدفاع عن حقوق الإنسان والحية العدالة ومقاوم الظلم، وهذا هو الأديب

الروسي تولستوي يكتب ويقول إن ((المرأة أداة الشـيطان، إنها غبية في جملة حالاتها ولكن الشيطان يعيرها دماغه حين تعمل في طاعته [1].

ويحفل الأدب العربي بنموذج المرأة الشيطانية، ذات الوجوه المتعددة.. ((تراها مرة فأنت مع طفلة لاهية تفـتح عينيها البريئتين في دهشة الطفولة وسذاجة الفطرة بغير كلفة أو رياء، وتراها بعد حين – وقد تراها في يومها – فأنت مع عجوز ماكرة أفنت حياتها في مراس كيـد النسـاء ودهـاء الرجال، وتضحك ضحكة فتعرض لك وجها لا يصلح لغيـر الشهوات، وضحكة أخرى ٠ وقد تكون على إثر الأولـى – فذاك عقل يضحك ولب يسخر، كما تسخر عقـول الفلاسـفة وألباب الشيوخ المحنكين)) [2].

---

(1) تولستوي في يومياته بتاريخ ٣ أغسـطس ١٨٩٨ كمـا وردت في كتاب عباس محمود العقاد. هذه الشجرة، ص ٨٨.

(2) عباس محمود العقاد، سارة، ص ١١٥.

وهذه أيضا كلمات العقاد نفسه الذي يناقض هنا فكرته عن المرأة ليس لها عقل تفكر به، وعلى الرجل أن يحبسها في البيت بين أربعة جدران ويحكمها فهي ناقصة العقل والدين والأخلاق ((وثنية لم تتدين قط)) [1].

([1]) المصدر السابق، ص ٨٤.

الكيد والسحر والفتنة في ألف ليلة وليلة

ولا يختلف ((العقاد)) وأمثاله من أدباء عصرنا الحديث في تصورهم للمرأة عن أدباء المجتمع العربي القديم، وعن رواة قصص ألف وليلة وليلة. فالمرأة في معظم هذه القصص الشعبية كثيرا ما تظهر على شكل الجارية الفاتنة اللعوب، والشيطانية في ألاعيبها، الداهية في مكرها وكيدها، العاشقة الفاتنة في عشقها، الإيجابية في موضوع الحب والجنس إيجابية الشياطين، والجان.

((والمرأة في كل صور هذا الدور جارية، سواء كانت ملكة أم جارية مشتراة من السوق. تكون بنت ملك تحارب وحبيبها خائف، ومع هذا تناديه يا سيدي، وتخدمه ما يخدم مريم الزنارية نور الدين، وتباع وتشترى في أكثر القصص، فتكون صفات الجارية وتصرفاتها أقرب إلى واقعها)) [1].

([1]) سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦، ص ٣٠٣.

وتحف قصص ألف وليلة وليلة بهؤلاء النساء الساحرات اللائي استخدمن السحر كوسيلة لتنفيذ خطة المرأة للوصول إلى حبيبها، فإذا بالمرأة تسحر زوجها حتى لا يقف في طريق حبها. ويلاحظ أن السحر في ألف ليلة وليلة لم يستعمل إلا بواسطة النساء الكائدات الساعيات إلى عشاقهن. البنج أيضًا يستعمل كوسيلة من وسائل المرأة التي تريد التسلل إلى عشيقها فإذا بها تبنج زوجها، وهذه ظاهرة تتكرر في ألف ليلة وليلة منذ قصة السلطان محمود صاحب الجزائر السود في الجزء الأول إلى قصة قمر الزمان وعشيقته في الجزء الرابع.

ويرتبط الكيد والمكر في ألف ليلة وليلة بالنساء وبالحب والجنس والفتنة. وكيد النساء قد غذى هذه القصص بمادة غزيرة، مما يدل على تغلغل قصة حواء في نفوس العرب في تلك الأزمنة، بالإضافة إلى أن القرآن قد احتوى على قصة مشابهة وهي قصة يوسف وامرأة العزيز، وأصبحت الآية القرآنية ﴿ **إن كيدهن عظيم** ﴾ تأكيدا لها بأن كيد النساء حقيقة جوهرية بل إنه كيد عظيم أيضًا.

وفي قصص ألف ليلة وليلة نجد شبيهات حواء التي أخرجت آدم من الجنة، فإذا بهؤلاء النساء يكن السبب في هلاك الرجال أو الإضرار بهم، بمثل ما حدث في قصص الخياط والمباشر والنصراني.

ونجد شبيهات امرأة العزيز التي سجن يوسف بسببها في قصة قمر الزمان ابن الملك شهرمان، قد أحبت امرأتين هما ((بدور)) و ((حياة النفوس)) ابني قمر الزمان، وكما شكت امرأة العزيز يوسف لزوجها شكت ((بدور)) و ((حياة النفوس)) الابنين لأبيهما، ويأمر الزوج بقتلهما لو لا أن تنقذهما حادثة الأسد مع المملوك. وفي مقدمة هذه القصة تنشد المرأة التي حملها العفريت يوم زفافها وسجنها في صندوق حمله فوق رأسه حتى لا تخونه.

بحديث يوسف فاعتبر   متحذرا من كيدهن
أو ما ترى إبليس أخـ   ـرج آدما من أجلهن

وفي هذه القصص أيضا نجد نساء يكدن لمجرد الكيد، للسخرية من الرجال الذين أحبوهن مثل قصة الوزير السادس من قصص الوزراء السبع، وقد يقترن ذلك بإمعان

في الفتنة كما في قصص المزين عن إخوته السبعة (الأولى والثانية) من قصة مزين بغداد.

ونماذج العجوز الساحرة والكائدة متعددة في هذا الأدب الشعبي، وأبرز شخصية من هذا النوع هي ((شواهي)) بطلة قصة عمر النعمان وولديه. وهذه المرأة لم تستخدم مرها وكيدها في مجال الفتنة والغرام والجنس فحسب وإنما في الحرب والسياسة أيضًا، فقادت جيوشا وهزمت ملوكا ومماليك، وارتدت ملابس النسك وضحكت على خصومها المسلمين، وقتلت الملك عمر النعمان وابنه، وصبرت في سبيل كيدها ومؤامراتها السنين. وفي الحروب تكون شواهي مركز القتال بين المسلمين والنصارى، فهي تخدع المسلمين والنصارى معا، وهي تسبب الضرر والهلاك للجميع، ولهذا فهم يدبرون لها في نهاية القصة حيلة تنتهي بصلب شواهي على باب بغداد.

وكم تنفس أمثال هذه القصص عن الرجال حقدهم وكراهيتهم الدفينة للمرأة. وكم يشعرون براحة في نهاية القصة حيث تصلب (شواهي) ومثيلات شواهي.

وتعكس شخصية ((شواهي)) ومثيلاتها المتعـددات في أكثر هذه القصص ضحية المرأة العربية الإيجابية التـي كانت تشترك في السياسة والحروب وترتدي الدرع وتحارب في أول الصفوف من مثيلات ((هند بنت ربيعـة)) التـي قتلت بسيفها في معركة ((أحد)) عددا من الرجال من أتباع محمد، بل إنها ذهبت إلى أحد القتلى وهو ((حمزة بن عبـد المطلب)) فأخرجت (من جسده المقتـول) قلبـه وكبـده، وأخذت تعصر كبد حمزة بيدها وتلوكه بفمها وتلعـق الـدم منتشية وهي ترقص على جثته)) [1].

وهذا هو السبب في أن المرأة المحاربة في قصـص ألف ليلة وليلة لم تظهر على أنها امـرأة مسـلمة. ولكنهـا ظهرت كساحرة شريرة عجوز أو كامرأة نصرانية، لكن هذه المرأة النصرانية تحب رجلا مسلما، وهي تنضم في النهايـة إلى جيش المسلمين وتحارب معهم وتقتل أعـداءهم. فهـذه ((إبريزة)) النصرانية تحب ((شريكان)) المسلم وتتـزوج عمر النعمان المسلم وتلد ((رمزان)) وهي تنضم إلى جيش

([1]) عبد الرحمن الشرقاوي، محمد رسول الحريـة، كتـاب الهلال، القاهرة، ١٩٦٧ ص ٢١٩.

المسلمين وتحارب معهم. وهذه أيضا مريم الزنارية تعلن إسلامها وتحارب أباها وأخوتها من أجل الإسلام وتقتلهم، ويحميها الرشيد في النهاية بسبب إسلامها.

ويعكس هذا الأدب الشعبي رغبة المسلمين في بداية الإسلام من إدخال هؤلاء النساء القويات أمثال ((هند بنت ربيعة)) في الإسلام، وقد حدث ذلك فعلا في تاريخ الإسلام. كما يعكس الصورة القوية التي كانت عليها النساء العربيات واشتراكهن في الحرب والسياسة والدين والمجتمع الكبير، سواء قبل الإسلام أو في حياة محمد.

كما يعكس أيضًا ارتباط الفتنة عند العرب بالقوة والإيجابية في المرأة، فقد وجدت أن أكثر نساء المحاربات في قصص ألف ليلة وليلة فاتنات تفوق فتنتهن أي نساء أخريات سواء كن غانيات أو مغنيات أو عشيقات. وفي معظم هذه القصص فإن المرأة المحاربة لا تكشف عن وجهها إلا في آخر لحظة، وهي دائما لحظة حرجة، وعندها يتوقف كل شيء، الهزيمة البشعة أو النصر المبين. إذا بالمرأة (في هذه اللحظة) ذلك الفارس الشجاع الرشيق، (كثيرا ما كانت تتنكر المرأة العربية في الحرب في زي

فارس من الفرسان كما فعلت هند بنت ربيعة في معركة ((أحد))، تكشف عن وجهها فإذا بفتنتها تكسب المعركة الأخيرة كأنما هي سهم أشد فتكا من سهام الحرب. وهكذا انتصرت معظم البطلات المحاربات من أمثال ((الدنماء)) في قصة الجارية الثانية في اليوم السابع من مجموعة قصص الوزراء السبع.

مثل ما برزت المرأة العربية في الحرب والسياسة والفتنة، برزت أيضا في الفنون والآداب والعلوم. وقد بلغت بعض النساء والجواري شأنا عاليا في هذه المجالات في الحياة الواقعية للعرب إلى حد أن ((الرشيد)) نفسه تزوج بعض هؤلاء ممن رددن عليه ردا حكيما أو أكملن بيتا ناقصا من الشعر أو أنشدن أبيات شعر أعجب بها. وفي قصص ألف ليلة وليلة نجد بعض هذه الوقائع وقد نقلت من كتب الأدب على شكل أخبار. فهناك ثلاث نساء شاعرات حكم ((الأصمعي)) بقدرتهن على قول الشعر. وواقعة تحكي عن الرشيد والبنت العربية الشاعرة. واستمدت ألف ليلة وليلة قصصا من حياة ((إسحاق الموصلي)) والجواري والمغنيات اللائي كان يطرب لهن، وكم من أخبار تنسب

((لأبي نواس)) الشاعر العربي الذي اشـــتهر فـــي الأدب العربي بالسكر والمجون.

وكم تبلغ المرأة من قوة حين تصورها قصص ألف ليلة وليلة على شكل ((جنية)) يقع في غرامها وسحرها الرجل، لكنه يشقى من أجل الوصول إليها، مثل شمسة في ((قصة جانشاه)) و ((منار السنا)) في قصة حسن البصري. والمرأة ((الجنية)) التي تسكن البحر وتحكم طائفة من الجن، مثل ((جلنار)) فـــي قصة الملك ((بدر باسم)) أو المرأة ((الجنية)) التـــي تحكـــم مدينة يعبد أهلها الشمس أو النار. وهناك أيضا شخصية الملكـــة القوية ((لاب)) التي تسخر نفسها طـــائرًا إذا أرادت أو تكـــون آدمية حين تريد. أما ((جلنار)) فهي قادرة على الغـــوص فـــي البحر والسير في قاعه والتحدث مع أهله والغضـــب والانتصـــار بمثل ما تفعل على الأرض بالضبط.

وتشغل المرأة ((الجنية)) حيزا كبيرا في قصـــص ألف ليلة وليلة مما يؤكد أن قوة المرأة ظلـــت راســـخة فـــي وجدان الشعب العربي، وظلت مرتبطة بقوة الجان والعفاريت والشياطين منذ الأزمنة القديمة حتى القرون الوسطى حتـــى عصرنا الحديث.

المرأة في الملاحم الشعبية العربية

تلعب المرأة العربية دورا بارزا في الملاحم والسير الشعبية. ومن أشهر هذه الملاحم سيرة الأميـرة ذات الهمـة [1]، التي لعبت البطولة فيها امرأة، وهي فاطمة بنت مظلوم. والنساء في هذه الملحمة نساء فارسات مقاتلات أكثر شجاعة وقدرة على القتال من الرجال. وتردد صفة المرأة المرغوبة بأنها ((قاتلة الشجعان)) وإنها تنتصر على أشجع الرجـال في المبارزة بالسيف. وهي لا تتزوج إلا الرجل الذي تختاره والذي يستطيع أن يصمد أمامها في المبـارزة. ولا شـك أن القاص الشعبي كان يعكس واقعا تعيشه المرأة العربيـة فـي ذلك الوقت. وملخص قصة الأميرة ذات الهمة هو أن أباهـا كان يريدها ذكرا حتى يورثها نصيبه مـن العـرش الـذي استولى عليه أخوه ظالم لأنه أنجب ذكرا. وحين ولدت أنثـى حزن أبوها حزنا شديدا فذلك معناه أن يفقد السلطان والملـك والجاه والسيادة. وتنكر الأب لابنته، وحاول أن يتخلص منها

---

(1) نبيلة إبراهيم – سيرة الأميرة ذات الهمـة، دار الكتـب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.

بالقتل لكن القابلة تشير عليه أن يعهد بها إلى جارية بيضاء من جواريه اسمها ((سعدى)). وأصبحت سعدى ترضع هذه الطفلة التي سمتها ((فاطمة)) وتعيش فاطمة مع مربيتها الجارية لا تعرف شيئا عن أبيها وأهلها. وفي إحدى الحروب تؤخذ فاطمة هي وسعدى أسيرتين وتتعرضان للسبي، وتصبح فاطمة جارية من جواري بني طي وهم قبيلة غير قبيلتها. وأصبحت من نصيب رجل اسمه الحارث، غير اسمها وجعلها تعمل أعمال الجواري المهينة. وتقبل فاطمة أو ذات الهمة هذه الحياة الذليلة على كره وهي تأمل أن يكون لها قوم يأتون لإنقاذها هي وسعدى التي كانت تظن أنها أمها. لكن أحدا لم يأت لينقذها فبدأت تشعر أنها تحب أن تنقذ نفسها بنفسها فأخذت تتعلم فنون القتال والفروسية بعد أن أدركت أن القوة هي قوة السيف.

ويحاول أحد الفرسان اغتصابها جنسيا على أنها جارية فترفض ويطاردها مطاردة عنيفة فتقتله بسيفها. وتبدأ ذات الهمة حياتها كفارسة مقاتلة، ويثق سيدها بكفاءتها وشجاعتها فيستعين بها في حروبه وغزواته ضد القبائل الأخرى. وتنتصر ذات الهمة في جميع معاركها وتجلب

لسيدها الأموال والزهو والكرامة والسيادة وأطلق عليها ((داهية بني طي)) وذات الهمة، وأصبحت هي حامية بني طي برجالهم ونسائهم.

وفي إحدى غزواتها ضد إحدى القبائل وهي قبيلة بني كلاب التي ينتمي إليها أبوها تنتصر على القبيلة وتنتصر على أبيها وتأخذه أسيرا ذليلا إلى بني طي. ويقرر بنو طي قتله في يوم مشهود، لكن ((سعدى)) تتعرف على الأب، وتطلع ذات الهمة على السر الذي كتمته عنها. وتنقذ ذات الهمة أباها من الموت وتعود به إلى قبيلتها، حيث تعيش بينهم في الصدارة فهي منتصرة وهي قوية وهي مقاتلة شجاعة. ويثرى أبوها بفضلها ثراء عظيما ويحقق انتصارات هائلة، مما هدد نفوذ أخيه ((ظالم)) وابنه الذكر الذي أثبتت ابنة أخيه ((الأنثى)) أنها أقوى منه وأشجع.

ومن أجل احتواء ذات الهمة، رأى عمه ظالم أن يزوجها لابنه، لأنه كان يرى إنها ((إذا صارت لولده انكسرت حرمتها وقل نشاطها وذهبت قوتها)). وتدل هذه العبارة عن حقيقة الزواج الذي يسلب المرأة قوتها ونشاطها ويكسر شوكتها.

غير أن ذات الهمة تكشف الحيلة بــذكائها وتــرفض الزواج من ابن عمها وتقول: ((لست أريد لي بعلا إلا سيفي هذا)) ومعنى ذلك أن ذات الهمة فضلت أن تتــزوج الســيف على أن تتزوج رجلا. فالسيف يعطيها قوة وكرامة ويضعها بشجاعتها وقدرتها فوق الرجال. أما الــزواج برجــل فإنــه يحولها إلى أنثى محكومة وخاضعة لرجل.

ومن شدة ثقة ذات الهمة بقدرتها القتالية وفروســيتها فقد أدركت أن رجلا لا يستطيع أن يهزمها ومن ثم أطلقــت شعارها: ((لن أتزوج إلا من يقهرني في الميدان)). ويتقدم ابن عمها مغرورا بشجاعته لكن ذات الهمة تهزمــه هزيمــة منكرة أمام القبيلة كلها، فيشعر بالإهانة والغيظ، ويتوسل إلى الخليفة كي يزوجه منها.

ويتدخل الخليفة في الأمر وتتزوج ذات الهمة من ابن عمها لكنها لا تسمح له بالاتصال بها جسديا. فيدس لها نوعا من المخدر في الشراب وحين تفقد وعيها يتصل بهــا فــإذا أفاقت هددته بالانتقام منه، لكنها حملــت منــه ابنهــا عبــد الوهاب.

وتشتعل الحرب بين العرب والروم، وتعجز قــوات المنصور الخليفة العباسي عن الصمود أمام هجمات الـــروم، فيستعين الخليفة ببني كلاب الذين منهم ذات الهمة وينتصـــر المسلمون على الروم بفضل مهارة ذات الهمة في الحـــروب ورجاحة عقلها وقوة سيفها. وكانت إذا غابــت ذات الهمــة لحقت الهزيمة بالمسلمين، وإذا حضرت أحرزت النصر حتى أصبح مصير الدولة كلها مرتبطًا بوجودها وغدت في نظـــر العرب والروم معا ((نصف الإسلام)).

وكان جيش الروم أيضًا بقيادة امرأة هي ملطية بنت ملك الروم التي هزمت أبطال المسلمين في غياب ذات الهمة وتمكنت من الاستيلاء على الحصون الإسلامية. لكـــن ذات الهمة انتصرت عليها وحرقت حصنها واستولت على مدينـــة ملطية التي كانت قد سمتها باسمها.

وتعكس هذه الملحمة قوة المرأة سواء عند العرب أو عند الروم. بحيث إن أعظم الجيوش كانت تحت قيادة النساء وليس الرجال. ويستعرض القـــاص الشـــعبي فـــي وصـــفه شخصيات نسائية متعددة تثبت قوتها وإيجابيتها في المجتمـــع والحياة السياسية العامة وتتعدد النماذج البطوليـــة النســـائية،

وتزخر بها الملحمة من مثيلات (ميرونة) بنـــت البطـــرق، وزنانير بنت الملك بولس، والقناصة بنت مـــزاحم والملكـــة ميمونة وهن نساء في مثل بطولة وشجاعة ذات الهمة نفسها بل بعضهن تفوق أحيانا عليها في الميدان.

وكل هذه النماذج من النساء تعكس قدرات المرأة في ذلك الوقت وإمكانياتها غير المحدودة. وتتكرر هذه النمـــاذج في معظم الملاحم الشعبية وليست فقط في ملحمـــة الأميـــرة ذات الهمة مما يدل على أن بطولة المرأة ومشـــاركتها فـــي الحياة العامة كانت هي القاعدة وليست الاستثناء.

ويربط القاص الشعبي بين بطولة المرأة وبين الدفاع عن الإسلام. و يجعل المرأة هي الحاميـــة للإســـلام، وهـــي المدافعة عنه، فيه امرأة ((تغير على دين الإسلام وتحـــامي عن المسلمين)). ويحاول القاص أن يثبت أخلاقيات الـــدين ومن أهمها عفة المرأة ودفاعها عن شرفها إلى حد أنها تقبل الموت ولا تفرط في عرضها. وهي في معظم الأحيان زاهدة في الجنس، تزوجت السيف بدلا من الرجـــل، أو تزوجـــت الإسلام ووهبت حياتها دفاعا عن الدين، أو وهبت ابنهـــا أو أغلى شيء من أجل الدين. وبرغم أن الملاحم الشعبية تعكس

قدرة المرأة القتالية ومشاركتها في الحرب والسياسة إلا إنهـــا تصور عفة المرأة دائما كامرأة مستقلة تعيش وحـــدها بغيــر زوج، فهي زاهدة عابدة مقاتلة، أم شخصية المرأة الزوجة أو الحبيبة فهي شخصية امرأة تعيش من خلال وجها ومن خلال ابنها. إذا كان زوجها بطلا فهي تخدمه وتساعده على النجاح. وهي تخلص له وتتفانى في هذا الإخلاص إلى حد المـــوت. ومثال ذلك ملحمة عنترة ابن شداد وامرأته عبلة التي ظلـــت وراءه صامدة أمام كل المغريات حتى أثبت وجوده وتغلـــب على العقبات، وأصبح فارس الفرسان. وفي ملحمـــة حمـــزة العرب كانت وراء بطولة حمزة امرأته مهر دكار أي شمس النهار بنت كسرى أنوشروان [١].

---

(١) انظر كتاب السير الشعبية مثل سيرة الأمير عنترة بـــن شداد، مكتبة الجمهورية العربية (عبد الفتاح مراد) القـــاهرة، ســـيرة الأمير حمزة البهلوان، مكتبة الجمهورية (عبد الفتاح مراد) القـــاهرة، أضواء على السير الشعبية (فاروق خورشيد) المكتبة الثقافية العـــدد ١٠١ يناير ٦٤، القاهرة، عبد الحميد يونس، دفاع عن الفولكلور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٧٣، القاهرة.

وتختلف السير الشعبية عن ألف ليلة وليلة في أنها لم تجعل المرأة المقاتلة الشجاعة جنية أو ساحرة أو شيطانة وإنما جعلتها امرأة حقيقية طبيعية فيما عدا أنها تزهد الجنس والزواج في معظم الأحيان.

وقد تأثر الأدب العربي الحديث بالطبع بكل ما سبقه من أدب. إلا أن صورة المرأة كزوجة وحبيبة طغت على صورتها كفارسة مقاتلة في الحرب ومشاركة في السياسة. فقد زادت سلبية المرأة بازدياد المدنية الحديثة وازدياد رسوخ النظام الأبوي ورسوخ النظام الطبقي، وازدياد الفروق الموضوعية بين طبقة وطبقة. وبين جنس وجنس، وبين لون ولون.

وكما رسمت المرأة القوية الإيجابية في ألف ليلة وليلة هي إنها ((جنية)) أو ساحرة أو شيطانة، فقد صور الأدب الحديث أيضا المرأة الإيجابية القوية على أنها جنية أو عفريتة. إلا أن المرأة في الأدب العربي الحديث لم تأخذ صورة ((الجنية)) شكلا ومعنى كما حدث في ألف ليلة وليلة، وإنما أخذت المعنى فحسب واحتفظ جسدها بالشكل

الآدمي كغيرها من البشر، ولكن مرها ظل ينتمي إلى أهل الجان أكثر مما ينتمي إلى البشر.

وقد عبر عن ذلك زكي مبارك حين وصف المرأة بأنها أعظم قدرة من الشياطين والأبالسة على الفتك بالرجل. وعبر عن المعنى نفسه العقاد، لكنه أرجع قدرتها على الفتك والكيد والإغراء إلى طبيعتها الضعيفة. إن حواء في نظره لم تأكل من الشجرة المحرمة أو تغري آدم بالأكل منها إلا أن المرأة بطبيعتها تتعلق دائما بالشيء الممنوع، وتسول لها نفسها الضعيفة والإغراء. أي أن هذه الشجرة ((هي عنوان ما في المرأة من خضوع يؤدي إلى لذة العصيان ومن دلال يؤدي إلى لذة الممانعة، ومن سوء ظن وعناد ضعف، واستطلاع جهل، ومن عجز عن المغالبة، و عجز عن الغلبة بغير وسيلة التشهية والتعرض والإغراء)) [1].

وقد اشتهر توفيق الحكيم أيضا بلقب ((عدو المرأة)) وله في هذا المجال أفكار تكاد تشبه أفكار العقاد مع شيء من الاختلاف. ففي قصته ((الرباط المقدس)) يصور الحكيم امرأة متمردة، وتمردها في رأيه ليس من أجل

([1]) عباس محمود العقاد، هذه الشجرة ص ١٥.

طموحها الفكري في الحياة والمجتمع، وإنما هو تمـرد مـن أجل ملء الفراغ العاطفي في حياتها، وينادي توفيق الحكـيم ((وهو المفكر في القصة)) بأن المرأة لمي عد عندها وازع ديني بما يكفي وأن على المفكر أن يتولى إيقـاظ الضـمير الديني عندها. ويصور الحكيم المرأة كما صـورها العقـاد مخلوقا لا يخلص إلا لغريزتـه، ونـوازع الجسـد، وتكـاد تتصرف مثل ((سارة)) العقاد بغير قيم دينية أو فكريـة أو اجتماعية.

لا يمكن للقارئ إلا أن يشعر أن العقـاد والحكـيم ينطويان على خوف شعوري أو غير شـعوري مـن ذلـك المخلوق الأنثوي الغريزي والقوي في غريزتـه الجنسـية، والذي لا يأبه لـدين أو خلـق أو مجتمـع. والمـرأة عنـد ((الحكيم)) تعتبر اللهو والعبث حقها المشروع فهي تتحدث عن ذلك ((بلهجـة الواثـق المتحـدي بـأن هـذه حقهـا المشروع))[١].

([١]) توفيق الحكيم، الرباط المقدس، طبعة الآداب، ص ١٧٢.

الشرف والدم في عصرنا الحديث

ويعكس الأدب العربي الحديث نظرة المجتمع الأبوي التقليدي للشرف وارتباطه بعذرية البنت، وفي رواية داء الكروان يعبر ((طه حسين)) عن هذا المفهوم التقليدي للشرف وتعرض البنت الصغيرة ((هنادي)) للذبح بسكين خالها وبالتعاون مع أمها، تلك المرأة التي صورها الكاتب عاجزة عن الدفاع عن ابنتها بل ومشتركة مع الخال في القتل.

ويظل الخال القاتل حرا طليقا ولا يعتبر مجرما كأنما هو أدى واجبه كرجل غيور على شرف أسرته ((العار لا يغسله إلا الدم)) مثل عربي شائع. أما الشاب المهندس الذي اعتدى على شرف ((هنادي)) فهو أيضا لا ينال أي عقاب على يد الكاتب، وإنما يحظى في نهاية القصة بحب أختها آمنة. وتدور القصة في البداية حول رغبة آمنة في الانتقام من هذا الشاب الذي بسببه ذبحت أختها. وتقول آمنة: ((أصبح مما لا بد أن يكون الصراع بينه وبيني، فليعلمن بعد وقت طويل أو قصير أذهب دم ((هنادي)) هدرا أم لا

يزال على هذه الأرض من هو قادر على أن يظفر له بالثأر)) [1].

ولا تفكر آمنة على الإطلاق في عقاب خالها الذي ذبح أختها لأن طه حسين يقول في قصته عن النساء أنهن ((عورة يجب أن تستر، وحرمة يجب أن ترعى، وعرض يجب أن يصان)) ويدور الصراع بين آمنة وذلك المهندس، صراعا غير متكافئ من كل النواحي، فالمهندس متعلم ومن طبقة أعلى من آمنة، وآمنة ليست إلا فتاة جاهلة لكنها تستخدم أنوثتها وفتنتها في الصراع. فالصراع هنا ليس صراعا فكريا ولا اجتماعيا ولا ثقافيا يوضح للقارئ الظلم الواقع على المرأة، ولكنه صراع يؤكد أن سلاح المرأة في الحياة ليس إلا أنوثتها ودلالها وإغرائها وإقبالها وإدبارها وتلك الألاعيب الأنثوية الشيطانية. ويحاول المهندس أن يخدعها كما خدع أختها لكن خداعها له ينتصر على خداعه لها، وتتمنع شهوته لكنها ترفض أن يلمسها، فهي تدرك أن الرجل يزهد في المرأة التي ينالها جنسيا ويلفظها كالنواة كما

---

(1) طه حسين، دعاء الكروان، طبعة دار المعارف، القاهرة، ص ١٣٥.

فعل مع أختها. وتنجح خطة آمنة ويقع المهندس في حبها. وهذا الحب ((في رأيي)) لم ينبع إلا من الحرمان الجنسي واشتهاء أنثى ليست في متناول اليد، وشتان بين هذا الشعور وبين الحب الحقيقي. لكن الكاتب يصف شعور المهندس لآمنة وكأنه الحب الحقيقي. وكأنه يؤكد أن المرأة يجب أن تراوغ وتمكر وتحرم الرجل جنسيا حتى يقع في حبها. كما أنه يصور شعور آمنة وقد انقلب أيضا من خداع إلى حب حقيقي. ويعبر طه حسين عن حب آمنة للمهندس كالآتي: ((أصبحت آمنة لا تهم بالخلوة إلى ضميرها حتى تجد صورته ماثلة فيه، ولا ترفع عينيها إلا رأت شخصه، ولا تمد إذنها إلا سمعت صوته. قد أخذ عليها الحياة من جميع أقطارها. وقد زاد عنها كل شيء وكل إنسان، وزاد عنها حتى أختها تلك العزيزة وأشباحها الحمراء)) [١].

ويرى طه حسين في روايته المرأة عاجزة في سقوطها حين تفقد عذريتها، وعاجزة في انتقامها حين تقرر الانتقام، وعاجزة في حبها حين تحب، وهي دائما واقعة في فلك الرجل لا حيلة لها ولا قوة، وهي مقتولة بالرجل دائما،

---

(١) طه حسين، دعاء الكروان، ص ١٥١.

مقتولة لأسباب متعددة، مقتولة بالشرف، ومقتولة بالحب، ومقتولة بالكراهية والانتقام، ومقتولة بالعجز والانسحاق تحت الرجل ماديا ونفسيا وعاطفيا وأخلاقيا.

ويتعاطف طه حسين أحيانا والمرأة لكن تعاطفه ليس إلا تعاطف رجل عربي تقليدي، فيه رحمة الذكر القوي الأعلى على الأنثى الأضعف الأدنى، وكم يلذ له وصف ذلك الصراع الجنسي بين آمنة والمهندس، صراع الرجل بكل أسلحته وقوته ضد الأنثى بضعفها وانكسارها وخضوعها، وهي علاقة تكاد تكون سادية ماسوشية من كلا الجانبين.

وعلى خلاف معظم الأدباء العرب لا يميل الكاتب محمد عبد الحليم عبد الله إلى عقاب المرأة التي سقطت أي فقدت شرفها أو عذريتها والسبب في ذلك ليس لأن له نظرة أخرى في مفهوم الشرف، وإنما لأنه مجرد المرأة من وعيها بهذا الإثم، وبالتالي فلا يجوز معاقبتها بمثل ما لا يجوز معاقبة المجنون أو الغائب العقل، ويكتب هذا المعنى في روايته شمس الخريف على لسان بطلته ((إن المرأة أثناء السقوط لا تكون في وعيها بل تكون مغيبة تحت سحر الفتنة وسحر الشيطان، لذا يجب أن يغفر لها المجتمع لأنه لا يجوز

الحكم على نائم، فالمسئولية إذن على الرجل الذي أغواها))[1].

ويخالف عبد الحليم عبد الله هنا هؤلاء الذين جعلوا حواء مسئولة عن سقوط آدم لأنها هي التي أغوته، ويتفق مع هؤلاء الذين جردوها من المسؤولية تماما. ولعل عبد الحليم عبد الله تصور أنه يعطف على المرأة كما عطف عليها طه حسين، لكنه كان أشد احتقارا لها من غيره لأنه لم يكرمها حتى بتحمل مسئولية الفعل الذي تقوم به، وصورها مخلوقا عاجزا قاصرا ناقص العقل أو أبله، بل إنه صورها في موقف آخر كالمريض أو كالميت فيقول على لسان بطلته السيدة (ف) إن المرأة ((إذا زلت فليس عليها مسؤولية لأنها كالنائم أو المريض أو الميت (وضحكت) فالمسئولية واقعة على من يهاجمها لأنه ليس أهلا للدفاع)) [2].

ولم ير عبد الحليم عبد الله شيئا يزين المرأة عذريتها أو ((درة العفاف)) تقدمها لزوجها وتقول له ((لا أرى

([1]) محمد عبد الحليم عبد الله، شمس الخريف، مكتبة مصر، ١٩٥٤، ص ٢٠٦.

([2]) المصدر السابق ص ٢٠٦.

لشخصي كيانا مستقلا ولا أحسه قائمـا بـدونك)). ويعتقـد الكاتب أن شرف البنت كعود الكبريـت لا يولـع إلا مـرة واحدة، وهذا مثل شهير في مجتمعنا، اشتهر بترديـده أحـد ممثلي المسرح المعروفين ((يوسف وهبي)). وعبد الحلـيم عبد الله يرى أن البنت التي يلمسها رجل تصبح كالإناء القذر الذي شرب منه شخص آخر من قبل. ويقـول بطلـه فـي الرواية حين تتمنع عليه معشوقته ((إنها خافت على موردها أن يزنق فيعافه الشاربون)) [١].

والمرأة في معظم روايات عبد الحليم عبد الله سـلبية ضعيفة لا وجود لها إلا من خلال رجل، فإذا لم يكن هنـاك رجل فإن المرأة تموت إما بـالموت الجسـدي الحقيقـي أو بالموت حزنا على الحبيب، وحزن عبد الحليم عبد الله حزن فيه من القسوة والازدراء أكثـر ممـا فيـه مـن الرحمـة والاحترام، وهو يشبه إلى حد كبير حزن المنفلـوطي علـى بطلاته. وقد حكم عبد الحليم عبد الله بالموت علـى جميـع بطلاته تقريبا، فقد ماتت ((ليلى)) في لقيطة، وزينب فـي شجرة اللبلاب، والسيدة (ف) في شمس الخريف، وسـميرة

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٢.

في رواية من أجل ولدي، أما تلك التي لا تموت فهي تـــذوي بعيدا عن الرجل وتسحق.

وتظل المرأة في أدب ((نجيب محفوظ)) هي المرأة سواء في فقرها أو ثرائها أو جهلها أو تعليمها، فلا تزال هي المرأة التي يرتكز شرفها في حياتها الجنسية وعذريتها. وهي تسقط وتفقد شرفها في معظم الأحوال بسبب الفقر. وقد كـــان الأدباء الرجال قبل نجيب محفوظ يرون أن المـــرأة تســـقط بسبب غريزتها أو شهوتها أو ضعفها كأنثى أو ضعف عقلها. أما نجيب محفوظ فيري للسقوط أسبابا اقتصادية كالفقر، لكنه لا يغير مفهومه عن الشرف، ويظل شـــرف المـــرأة عنـــده متركزا في تلك المنطقة المحدودة من جســـمها (الأعضـــاء الجنسية).

وبرغم أن نجيب محفوظ يساير العصر ويري دورا جديدا للمرأة وهو العمل والإنفاق على الأسرة كالرجـــل، إلا أنه في حياتها الأخلاقية لا يساويها بالرجل. يقول الأب فـــي إحدى رواياته لابنته التي ضيعت من بين يديها شابا ثريا:

((إنك مسئولة عنا جميعا وخصوصا أخوتك السبعة)) [1].

ويلقي الرجل، سواء كان أبا أو زوجا مسئولية اقتصادية على المرأة لكنه يظل يحكم عليها بالسقوط إذا مارست في حياتها الشخصية ما يمارسه الرجل، وهي التي تسقط وحدها، وعليها يقع عقاب الكاتب في معظم المواقف.

وبرغم توضيح نجيب محفوظ لدور الفقر أو الظروف الاجتماعية في انحراف المرأة أو سقوطها، مثل ((وكانت الحرب بآثارها المادية والاجتماعية أول محرك لمأساة الزقاق التي أدت بحميدة إلى الانحراف)) [2]. إلا أنه يقرر على لسان بطله ((إبراهيم فرج)) إنها ((عاهرة بالسليقة)) وإنها من ((تبع أبالسة)). ورغم محاولة نجيب محفوظ لأن يرسم للمرأة صورة محايدة مساوية للرجل إلا أنها تظل صورة عقلية. ويقع نجيب محفوظ بشعوره حين يرسم صورة المرأة التقليدية الراسخة في وجدانه كرجل ورث تراثا أبويا طويلا. ويصور نجيب محفوظ المرأة

([1]) نجيب محفوظ، القاهرة الجديدة، مكتبة مصر، ص ٢١.

([2]) نجيب محفوظ، زقاق المدق، ص ١٣٠.

تصويرا سلبيا تقليديا وإن أسبغ عليه بعض الإيجابية الظاهرة التي سرعان ما تتلاشى، وتسقط المرأة في الرذيلة بـالمفهوم التقليدي.

وهو يصف ((نفيسة)) في روايته بداية ونهاية ويقول إن أباها مات ولم يستطع المجتمع أن يكون أبا، فاشتغلت خياطة لتساعد أسرتها، وهكذا أحاطت بها الهموم من كل جانب، وفقدت كل عطف، وكانت غريزتها الأنثوية هي الشيء الوحيد الذي سلم من النقص والضعف، واستوى ناضجا حارا. كان سليمان جابر أول رجل بعث فيها الثقة وطمأنها إلى أنها امرأة كبقية النساء، فسقطت أول مرة تختلي فيها برجل. فسقوطها هنا يبرره الأوضاع العامة التي جعلت ((الجاه والحظ والمهن المحترمة في بلادنا وراثية)) [1].

وتظل المرأة هنا لا تملك سوى أنوثتها وفتنتها كسلاح. ويناقض الكاتب نفسه حين يدافع عن غريزة المرأة الأنثوية ثم يعود فيدن هذه الغريزة ذاتها لأنها سبب سقوط المرأة. وامرأة أيضا هي التي تسقط وحدها وقد حكم نجيب

[1] نجيب محفوظ، بداية ونهاية، ص ١٩٩.

محفوظ على بطلته نفيسة الساقطة بالانتحار لأنه لم يجد حلا للساقطة سوى الموت.

وفي رواية أخرى على لسان أحد شخصياته يقول نجيب محفوظ ((المرأة في الأصل عجينة طرية، وعليك أن تشكلها كما تشاء، واعلم إنها حيوان ناقص العقل والدين فكملها بأمرين، بالسياسة والعصا)) [١].

وبرغم أن نجيب محفوظ في كتاباته رؤية متقدمة من حيث العدالة الاجتماعي إلا أن نظرته للمرأة لم تختلف كثيرا عن الذين سبقوه، وقد أباح لها حرية التعليم والعمل من أجل مساعدة الأب أو الزوج في مسئوليات الإنفاق وبشرط ألا تتعدى حدود الدين والأخلاق. والأخلاق هنا بالطبع هي أخلاق الأسرة الأبوية أو الازدواجية الأخلاقية من حيث أن المرأة هي وحدها التي تسقط. وقد يتحمس نجيب محفوظ أحيانا من أجل بناء المجتمع الاشتراكي على لسان أحد أبطاله، ويتخيل مجتمعا أفضل، وحالا أحسن ((وأسعده الأمل في تحقيق خياله دون الاعتداء على العقائد)) [٢].

([١]) نجيب محفوظ، خان الخليلي، ص ٤٩.

([٢]) نجيب محفوظ، بداية ونهاية، ص ٣٠٢.

وكان لا بد أن يقع نجيب محفوظ في التناقضات. فهو يبيح للمرأة العمل والكسب المادي لكنه لا يبيح لها الحرية الشخصية. وهو يبيح لها الحب لكنه يعاقبها بالسقوط إذا أحبت. وهو يشترط عليها الزواج كالوسيلة الوحيدة الشرعية والمسموح بها، لكن المرأة حين تشترط الزواج يتهمها بالتحفظ وعدم الإحساس بالحب. وها هو أحد أبطاله ((حسني)) يقول عن فتاته التي اشترطت الزواج ((إنها تريد أن تتزوجني لا أن تحبني، هذا سر برودها وتحفظها))[1]. وهو يصفها تارة بأنها حيوان ناقص العقل والدين، وتارة أخرى يقول عنها إنها مظهر القوة التي بيديها كل شيء في الوجود ((لا يوجد ثمة حركة بين الرجال إلا وراءها امرأة، والمرأة تلعب في حياتنا الدور الذي تلعبه قوة الجاذبية بين الأجرام والنجوم))[2].

ويعتبر ((نجيب محفوظ)) أكثر تقدما من العقاد أو ممن سبقوه، وقد تعرض في كتاباته لقضايا اجتماعية متعددة لكنه في موضوع المرأة ظل حريصا حذرا لا يمس العقاد

([1]) المصدر السابق، ص ٩٨.

([2]) نجيب محفوظ، السراب، مكتبة مصر، ص ٣١٠.

ولا يغير من القيم الأخلاقية النابعة من قوانين الزواج رغم وقوع معظم أبطاله وبطلاته في الحب.

ويمثل الصراع بين الحب والزواج مادة خصبة وغزيرة في الأدب العربي القديم والحديث. وكم ترنم ((أحمد شوقي)) في شعره بمجنون ((ليلى)) وكيف فصل العرب الحب العذري عن الزواج والجنس. و ((محمد حسين هيكل)) في قصته ((زينب)) يصف صراع البطلة بين الوفاء للحبيب والإخلاص للزوج. وتموت زينب من الحزن على حبها الضائع، وقبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة تقول لأمها ((بدي أموت وكله من إيدكوا، فضلت أعيط وأقولك يامه ما بديش أجوز، تقولي لي كل الناس أبوهم بيجوزهم على غير كيفهم وبعدين يصبحوا ويا اجوازهم زي العسل. إني ويا جوزي زي العسل وما قلتش حاجه. لكن أديني حاموت وتخلص العيشة اللّي بيننا وبين بعض، وصيتكوا أخواتي لما تيجوا تجوزوا حد منهم ما تجوزهمش غصب عنهم أحسن دا حرام)) [1].

---

(1) محمد حسين هيكل، زينب، ص ٢٣٩.

وقد عاش ((محمد حسين هيكل)) في مصـــر فـــي الفترة ما بين ١٨٨٨ و ١٩٥٦ وقـــد شـــهدت هـــذه الفتـــرة الدعوات الأولى لتحرير المرأة من الجهل والحجاب. ونادى ((قاسم أمين)) بتعليم المرأة لتصبح زوجة وأما كفئا. ومـــن أهم نواحي هذه الكفاءة إتقانها الخياطة لتخيط ملابس زوجها وأطفالها. وانعكس ذلك على الأدب في ذلك الوقت، وظهرت شخصيات نسائية جديدة مثل ((عزيزة)) في قصة ((محمد حسين هيكل)) وهي فتاة تعلمت القراءة والكتابة والخياطـــة والتطريز لكن الحجاب فرض عليها وهي في الثانية عشـــرة كما كان شائعا في ذلك الوقت. وأدخلها الحجاب إلـــى عـــالم ((الحريم)) بقيوده الجسدية والفكرية، و لهذا هـــي تســـمية ((الثوب الأســـود)) ثـــوب الحـــزن والأســـى. وتتحســـر ((عزيزة)) على نفسها ومثيلاتها حين تقول فـــي القصـــة ((ما لنا جماعة الدفينات وللحب، إنما نحب في ظلـــم نتلـــذذ منه بخيالات لا وجود لها)). وتقول ((عزيزة)) إن أهلهـــا وجدوا في نقوش الحيطان ما يكفي البنت عن التمتع بالحيـــاة

أو بالشمس وتصرخ قائلة ((يا عدالة السماء: هل من أجل هؤلاء السذج خلقت غروب الشمس لا لنا)) [1].

ويفرض على ((عزيزة)) زوج لا تريده ولا تحبه وتنقل من ((سجن الأبوة)) إلى ((سجن الزوجية)) وتصبح ((بين حيطانه الأربعة أشد حيرة من الدمعة في عيني المحزون)) وتبكي بكاء مرا ((تسكب الدمع على شبابها الذاهب تتخبطه يد الشيطان)) إلا أن حال ((عزيزة)) كان أرحم من حال ((زوجة حسنين أبو مخيمر)) التي كان يضربها زوجها بوحشية دون سبب. وإذا بكت ازداد الضرب والشتم ((ولم يكن ينقذها من يديه إلا الناس الذين يتجمعون على صراخها)) [2].

وقد نشر ((محمد حسين هيكل)) هذه القصة في طبعتها الأولى سنة ١٩١٤ وخشي أن يوقعها باسمه خوفا من أن تؤثر على عمله في المحاماة والسياسة ووقعه باسم ((مصري فلاح)) وقد كان محمد حسين هيكل من رواد الأدب العربي المعاصر ومن أوائل من صوروا الظلم الفادح

---

(١) محمد حسين هيكل، زينب ص ١٧٢.

(٢) محمد حسين هيكل، زينب، ص ١٧٥.

الواقع على المرأة في المجتمع العربي، إلا إنه لم يستطع أن يقدم حلا لمشكلة الفصل بين الحب والــزواج ســوى مــوت البطلة.

حواء، الأنثى، البغي، ومريم الأم الطاهرة

وقد كان الفصل بين الحب والزواج، إحـــدى نتـــائج الفكرة القديمة التي تمجد الحب العـــذري أو الروحـــي، أمـــا الزواج الذي يتضمن الجنس فهو نوع من الإثم، وقد أدى كل ذلك إلى أن تصبح النساء نوعين: الأنثى أو ذات الجاذبية أو الشهوة الجنسية.. والأم الطاهرة العذراء الخالية من أي جنس أو شهوة.

ويزخر الأدب العربي بنماذج متعددة لهذين النوعين النقيضين من النساء. وترمز الأم إلى الحب العظيم الســـامي وترمز الأنثى إلى الحب الأدنى المدنس.

ويظهر تقديس الرجل العربي لحب أمه فـــي الثقافـــة والأغاني والشعر وفي روايات الأدباء ومنهم ((المـــازني)) الذي قال لأمه ((أنت سيدتي. إنني أحبك، وأجلك وإني مدين لك بكل ما جعلني أنا)) [١].

ويسقط المازني حبه الطاهر لأمه على المرأة الحبيبة فيقول أن الإنسان لا يمكن أن ((يسعد في الحياة إلا في ظل

---

(١) قصة حياة المازني كتب ثقافية، العدد ٩٨، ص ٣٢.

امرأة حبيبة مشرقة كالصباح، جميلة كالقمر، طاهرة كالشمس، مرهبة كجيش بألوية)) [1].

وقد وقع المازني هنا في تناقضات عدة أو خلع على الحبيبة أوصافا متناقضة بعيدة عن الحقيقة والعقل؛ فهي مشرقة جذابة لكنها طاهرة، وهي طاهرة (بكل ما في الطهر من معاني الرقة والعذرية والوداعة والسلبية والضعف) لكنها مرهبة كجيش بكل ما في الجيوش من قوة وخطر محدق.

وهذا في رأيي تعبير عن نفسية رجل ربط الطهر بالجمال بالإرهاب، وهي تشبه نفسية الطفل الذي يخاف أمه ويرهبها ويشتهيها، ولكنها في نظره ظاهرة محرمة، وهو يحبها وحبه لها أقوى حب في حياته.

وبسبب ذلك تبدو المرأة الأنثى في نظر المازني غريبة غير مفهومة، والنساء (غير أمه) محيرات مستعصيات على الفهم: ((هؤلاء النساء أمرهن عجيب والذي يستطيع أن يعرفهن على حقيقتهن لم يخلق بعد)) [2].

---

(1) المازني، إبراهيم الكاتب، ص ١٥٢.

(2) المازني، إبراهيم الثاني، كتب ثقافية، العدد ٨٠، ص ١٦٣.

ويتخبط المازني في وصفه للمــرأة، وتــارة يراهــا مجرد أداة للولادة وحفظ النوع، وجمالها وجاذبيتها نوع مــن الكفر بالله: ((هي أداة لحفظ النوع وجمالهــا شــرك)) [١]. وتارة أخرى يقول عنها: (لا تفهم الدنيا باعتبارها كــلا، ولا تقدر أن تفنى في الجماعة)) [٢] لكنه يناقض نفسه ويعتــرف أن المرأة هي كل شيء فــي الحيــاة بــل ((هــي الحيــاة مختزلة)) [٣].

ويتغزل المازني في الفتاة الغربية التي تحب الرجــل بحريتها واختيارها، ويذم الفتاة المصرية التي لا تستطيع أن تحب بحريتها واختيارها ولذلك فإن الزواج في مصــر فــي رأيه ((ليس فيه ما يخدم الآداب أو الفنون أو يساعد علــى التقدم)) [٤].

إلا أن إعجابه بهذا النموذج من المــرأة المتحــررة بتكشف عن إنه إعجاب غير حقيقي لأنه سرعان ما يــزدرى

([١]) المازني، إبراهيم الكاتب، طبعة مصرية، ص ٢٤.

([٢]) المصدر السابق، ص ٦٨.

([٣]) المصدر السابق، ص ١٣١.

([٤]) المصدر السابق، ص ٣٠٤.

((ليلى)) المتحررة لأنها دفعت ((شرفها)) وعفافها ثمنا لتحرريها ويصرح بأن التحرر دنسها. ويعبر المازني عن أزمة الرجل العربي المتعلم الذي تجسد في بطل روايته والذي أراد أن يحطم سجن التقاليد ليفوز بالفتاة التي أحبها، لكنه في الوقت نفسه يرفض الفتاة المتحررة من هذه التقاليد ذاتها التي أراد تحطيمها.

ويقف أبطال المازني حائرين سلبيين أمام النماذج المختلفة، فالمرأة الأنثى المتحررة مرفوضة وتصدم عقلية الرجل العربي المحافظ على مفهوم شرف الفتاة وعذريتها. والمرأة العاملة المكافحة خشنة فقيرة لا ترضيه لأنه تعود على نساء منعمات عاطلات في البيت، أما الفتاة الطاهرة التي ترضيه فهي فتاة تقليدية بالطبع وتحول بينها وبينه التقاليد.

وأقصى ما تتمناه البطلات في أدب المازني على اختلاف أنواعهن هو أن تحقق وجودها بالزواج. أن عالم المرأة عنده ليس إلا الرجال وأحلام العثور على الزواج. وبعد الزواج لا تنشغل امرأة إلا بفنون الاحتفاظ بالزوج،

وتدربها أمها على هذه الفنون قائلة: ((ينبغي أن تكوني لــه كل يوم امرأة جديدة تتصدى له وتغريه وتفتنه)) [1].

وتتدرب المرأة على فتنة الرجل على يــد أمهــا أو خالتها كما تدربت نساء ألف ليلة وليلة على الكيــد والفتنــة والسحر على أيادي ((شواهي)) و ((تــودد)) ودواهــي وغيرهن من الساحرات الكائدات.

أما الزوج الذي يتزوج امرأة عاملة قوية الشخصــية واثقة من نفسها فهو يصوره على أنه رجل ضعيف الشخصية يرضخ لإرادة زوجته [2] ويعارض أمه التي كانت تحرضــه ضد خروج زوجته إلى العمل. ويقول نجيب محفوظ عن مثل هذا الزوج إنه زوج فاشل، لأنه ينشأ في حياة تعود فيهــا أن تكون المرأة هي صاحبة الإرادة، ومالكة الزمام، وأنه كــان عليه أن يأخذ زمام المبادرة والسيطرة حين أصــبح زوجــا ولكنه لم يفعل ذلك، وبذلك فشل كزوج ((ولم يخط في سفر الزواج الضخم حرفا واحدًا)).

---

(1) المازني، إبراهيم الثاني، ص ٥٢.

(2) نجيب محفوظ، السراب، ص ٢٤٩.

ويصور نجيب محفوظ المرأة ((رباب)) على إنها لا تحب مثل هذا الزوج ولكنها تعشق رجلا آخر، وتخون رباب زوجها مع عشيقها، ولا يغفر لها الكاتب ذلك فيجعلها تموت أثناء عملية الإجهاض.

وتمثل المرأة الأنثى للرجل خطرا وخوفا قديما مرتبطا بالجنس. ولذلك هو يريدها طاهرة كأمه أو غير أنثى، ويريدها كالملاك الضعيف المستكين. لكنه في الوقت نفسه يشتهي الأنثى ويشتهي فتنتها وسحرها لكنه يفزع من هذه الفتنة التي يقع أمامها صريعا فاقد القوى.

ويعبر توفيق الحكيم عن ذلك التناقض الذي يعيشه الرجل حين كتب في ((عودة الروح يصف بطلته سنية ويقول: ((وكانت المرأة في سحرها الجسمي والمعنوي، وإن هي أحيانا خفضت أهدابها الطويل الجميلة وهي تكلم ((محسن))، وضحكت ضحكات نسائية رقيقة غاية في الأنوثة، و منعت عينيها من إطلاق النظر إلا في أدب وخفر وتحفظ. فما كان ذلك كله عن طبيعة فيها، بل هو حياء مصطنع، لعله أرق سحر تمتاز به المصرية، والحقيقة أن المصرية أمهر امرأة تدرك بالغريزة ما في النظرة الواحدة

من وقع وتأثير. لذا هي لا تنظر إلى محدثها كثيرا ولا تبخس نظراتها ولا تقلبها جزافا كما تفعل الغربية الجريئة النزقة، بل إنها تحتفظ بنظراتها بين أهدابها المرخاة كما يحفظ السيف في الغمد، إلى أن تحين الساعة المطلوبة فترفع رأسها وترشق نظرة واحدة تكون هي كل شيء)) [1].

ويكاد يشبه هذا الوصف نساء ألف ليلة وليلة وخبرتهن وتمرسهن بوسائل السحر والفتنة وكيفية إيقاع الرجل في الشرك. وبرغم اشتهاء الرجل العربي لمثل هذه الأنوثة الساحرة سحر الشياطين إلا إنه لا يشتهيها إلا للمتعة فحسب أو العشق. أما المرأة التي يريدها أن تكون زوجة له وأما لأولاده فهو يختارها طاهرة كأمه وهو يريدها شريفة عفيفة وليست أنثى أو جريئة كتلك المرأة الغربية المتحررة.

ويظهر معظم الكتاب العرب المعاصرين كراهيتهم للمرأة الجريئة المتحرر. ويتقزز بطل ((عبد الحميد جودة السحار)) حين يرى ((كوثر)) حبيبته ((بالمايوه)) أو

([1]) توفيق الحكيم، عودة الروح، جـ ١ ص ١٤١.

لباس البحر ((فثار دمه في عروقه وشعر بتقـزز وضـيق فبدت لعينيه بغيضة تافهة)) [1].

وكان من الطبيعي أن يشعر البطل بانجذاب أشـد نحـو المرأة التي يحبها، خاصة وأنها كانت جميلة الجسم، ولا بـد أن هذه التقزز الذي اعتراه لم يكن لقبحها وإنما هو شـعور دفـاعي يلجأ إليه الرجل المحافظ على التقاليد. وهو بدلا من أن يعتـرف أنه غير طبيعي يتهمها بأنها بغيضة وغير طبيعية.

ويظهر مثل هذا الرجل المحافظ في معظـم القصـص والروايات، ونراه شديد النفور من تلك المرأة المتعلمة التي تخالط الرجال وتراقصه.. وهو أيضا شديد النفور من المرأة المحجبـة ومن المرأة الفقيرة أيضا التي كثيرا ما سقطت بسبب فقرها. أمـا الفتاة المتعلمة المتحررة فهي تزداد سـقوطا وانحطاطـا بسـبب تحررها، ويصبح الرجل حائرا منهارا: ((فانهار وراح يضـرب في الطريق وهو حيران يحس في أعماقه إحسـاس مـن يعـيش غريبا في الحياة)) [2].

([1]) عبد الحميد جودة السحار، قافلة الزمان، مكتبـة مصـر القاهرة، ص ٣٢٥.

([2]) عبد الحميد جوده السـحار، النقـاب، مكتبـة مصـر، ص ٢٨٤.

وتزداد حيرة الرجل العربي الحديث إزاء خروج المرأة الغربية للعمل والمشاركة في المجتمع وخاصة بعد غزو الأفكار الاشتراكية للشرق العربي، وينعكس ذلك في الأدب. وبرغم تأييد الرجل لخروج المرأة للعمل إلا أن الهدف الوحيد من عملها هو مساعدة الرجل في نفقات الأسرة، ويظل عملها خارج البيت في نظره شيئا ثانويا، ومهمتها الأساسية والأولى في الحياة هي أعمال البيت وخدمة والزوج ورعاية الأطفال. وعلى هذا فقد ظلت المرأة المثالية في الواقع وفي الروايات هي تكل الجميلة الوادعة المطيعة غير الجريئة وغير الطموحة، بعبارة أخرى المرأة الطاهرة القديسة. أما المرأة الجريئة أو الطموحة أو المتفتحة العينين ذات الجسارة والقوة فهي غالبا ما ترمز إلى الدمامة أو الفجر أو عدم الاحتشام، بعبارة أخرى المرأة العاهرة أو البغي.

ويظهر هذا التقسيم بين هذين النوعين من النساء واضحا في أعمال ((نجيب محفوظ: ومنها ((ثلاثيته)) [1]، حيث كانت هناك المرأة القديسة الطاهرة ((أمينة)) وتقابلها

---

(1) رواية نجيب محفوظ التي صدرت في ثلاثة أجزاء (قصر الشوق وزقاق المدق والسكرية).

العاهرة ((هنية أم ياسين)) و ((عائشـــة)) الجميلـــة ذات الحياء والخفر وتقابلها ((خديجة)) ذات الجـــرأة والوقاحـــة والدمامة. وهناك الحب العذري الذي تسوده القداسة والطهارة ويقابله الجنس واللذة المحرمة الآثمة فـــي حيـــاة العـــاهرات الداعرات البغايا.

وهذا هو التقسيم نفسه الذي أحدثه النظام الأبوي بين النساء فالمرأة إما أن تكون الآم الطاهرة المقدسة أو الزوجة العفيفة المخلصة الباردة المحترمة، وإما أن تكون المومس أو العشيقة الحارة والجذابة والمحتقرة. والحب أمـــا أن يكـــون طاهرا مقدسا وإما أن يكون حنسيا منحطا.

وقد حاول نجيب محفوظ أن يستخدم الاعتداء الجنسي على المرأة كرمز للاعتداء على شعب بأسره، ففي الليلة التي اعتدى فيها ((ياسين)) على نور جارية زوجته، واعتـــدى أبوه على أم مريم جارتهم إذا بالإنجليز يدخلون الحي. وبرغم هذا الرمز إلا إنه على مستوى حياة الأفراد فإن شرف المرأة عند نجيب محفوظ ظل مختلفا عن شرف الرجل، وظل هـــذا الشرف في رواياته يتعلق بسلوك المرأة الجنسي أكثـــر ممـــا يتعلق بأي شيء آخر.

وتلعب الأنثى البغي في الأدب العربي دورا أكبر مما تلعبه المرأة الطاهرة العفيفة وكأنما الطهر والعفة من الأمور غير الجذابة سواء في الواقع أو في الخيال. أو كأنما البغي هي الرمز للمرأة الحقيقية وقد نزعت عن وجهها النقاب: ((إنما البغي)) هي المرأة الحقيقية وقد جلت عن وجهها قناع الرياء فلم تعد تشعر بضرورة ادعاء الحب والوفاء والطهر)) [١].

وكم من نماذج للبغي أو المومس في أدبنا المعاصر وبالذات أدب نجيب محفوظ، الذي كثيرا ما حاول أن يغلف صورة المرأة المومس بإطار إنساني فيه كثير من الرحمة بها والتفهم لظروفها كضحية للمجتمع، لكنه يظل دائما تفهما ناقصا يعترف بمأساة المرأة الاجتماعية، وهو لا يصل إلى أعماق هذه المأساة، ولا يكشف عن أسبابها الحقيقية، أما مأساة المرأة الأخلاقية والجنسية فهذا هو المجال الذي لمي طرقه معظم الأدباء العرب القدامى أو المعاصرين.

([١]) نجيب محفوظ، خان الخليلي، مكتبة مصر، ص ٤٠.

الرواد من النساء والرجال العرب

رغم تميز الشرق العربي بحضارته القديمة العريقة في مصر والعراق وفلسطين تلك الحضارات والثقافات وعلى الأخص الحضارة المصرية القديمة التي انتقت إلى الغرب وأخذ منها الغربيون أسسا متعددة لعلومهم وفنونهم، ورغم الحضارة العربية الإسلامية التي امتدت شرقا وغربا وكانت من الأعمدة التي ارتكزت عليها حضارة العرب الحديثة، رغم كل هذا فقد أصبح الشرق العربي اليوم من البلاد التي يسمونها ((بالبلاد المتخلفة)) ومن ذلك الجزء من العالم الذي يسمى ((بالعالم الثالث)).

وقد استطاع المستعمرون الذين توالوا على مصر والبلاد العربية أن يسلبوا العالم العربي ثرواته المادية والثقافية معا، وأن يطمسوا كثيرا من حقائق التاريخ، وإن يزيفوا البعض منها وأن ينكروا الدور الذي لعبه بعض المفكرين العرب في وضع أسس بعض العلوم والفنون الحديثة من أمثال ابن سينا وابن خلدون.

وقد استنزف الاحتلال الأجنبي والاستعمار العسكري والاقتصادي والثقافي دماء الشعوب العربية سواء في مصر أو السودان أو الجزائر أو تونس أو ليبيا أو الأردن أو سوريا أو لبنان أو فلسطين أو العراق أو السعودية أو الكويت أو قطر أو البحرين أو اليمن أو المغرب أو الصومال.

ولا تزال البلاد العربية حتى اليوم من المناطق الثرية في العالم التي يتصارع على أرضها الاستعمار الجديد بشتى أشكاله ووسائله، ولا تزال أهم ثروات المنطقة العربية مسلوبة بواسطة الأنظمة الاستعمارية والاحتكارية الجديدة، ولا تزال الأغلبية الساحقة من الشعوب العربية تعاني الفقر والأمية والمرض على حين يستمتع بثروات العرب قلة من الرجال في أمريكا وأوروبا وبعض الحكام العرب المتعاونين مع الاستعمار والرأسمالية العالمية.

ويدلنا التاريخ أن الشعوب العربية برجالها ونسائها في أي بلد عربي لم تستسلم قط لتلك القوى التي تسلبها حقها في الحياة الكريمة وكم من شعب عربي ثار وأطاح حكومته الرجعية، وكم من بلد عربي طرد المستعمرين سواء كانوا

من الفرس أو الترك أو الفرنسيين أو الإنجليز أو الأمريكـــان أو غيرهم.

وقد كانت مصر ولا تزال قلب العالم العربي ومنارته الفكرية بحكم موقعها وعددها وتاريخها الطويل في النضـــال ضد المستعمرين الأجانب.

وقد عاشت مصر مع العالم العربي عهـود ظـــلام حتى نهاية القرن التاسع عشر. تقهقر فيها حال الشعب رجالا ونساء. واستطاعت الحكومـــات المســـتبدة مـــع الاســـتعمار الأجنبي أن تفرض على الرجال والنساء قيـــودا اقتصــــادية واجتماعية وأخلاقية.

أما النساء فقد كان نصيبهن من هـــذه القيـــود أشـــد وأعظم بحكم الأنظمة الأبوية الطبقية السائدة.

وقد بدأت اليقظة الفكرية العربية في نهايـــة القـــرن التاسع عشر على يد جمال الدين الأفغـــاني وتلاميذه،وأحمـــد فارس الشدياق أحد المفكرين العرب الذي أصدر سنة ١٨٥٥ كتباه ((الساق على الساق)) ويعتبر من أوائل الكتب العربية التي نادت بتحرير المرأة العربية. وظهـــر الرائـــد الفكـــري رفاعة الطهطاوي الذي نادى بتعليم المرأة وتحريرهـــا مـــن

الظلم وأصدر كتابه ((المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين)) سنة ١٨٧٢، ثم كتابه ((تخليص الإبريز في تلخيص باريز)) سنة ١٩٠٥.

وكان لهؤلاء الرواد دور في حث الجماهير العربية على مقاومة الاستعمار وتكسير القيود من أجل الحرية والاستقلال. وقد دلهم فكرهم الوطني المستنير إلى أن قضية المرأة إحدى القضايا الأساسية في الحرب ضد التخلف وضد الاستعمار الأجنبي.

ومن هؤلاء الرواد أيضا عبد الله النديم، والشيخ محمد عبده وقد كتب الشيخ محمد عبده ينقد وضع المرأة الأدنى، ويهاجم تعدد الزوجات والطلاق كحق مطلق للرجل، وطالب بالقضاء على نظام الجواري والمحظيات ونادى بمساواة المرأة بالرجل وتطبيق جوهر الإسلام.

وتعرض الشيخ محمد عبده لكثير من الهجوم من رجال الدين الإسلامي في ذلك الوقت لكنه لم يتردد في الاستمرار في دعوته وأعلن أن من أخطر أسباب الضعف التي أصابت المسلمين هو تخلف المرأة ولأن ((النساء قد ضرب بينهن وبين العلم بما يوجب عليهن دنيهن أو دنياهن

بستار لا يدرى متى يرفع)). بقول ((ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف)) [1]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشرك الرجل والمرأة في التكاليف الدينية والدنيوية، وترك البنات يفترسهن الجهل وتستهويهن الغباوة من الجرم العظيم)).

ومن أهم الكتب العربية التي تناولت قضية المرأة هو كتاب ((تحرير المرأة)) سنة ١٩٠٠ لقاسم أمين، ثم كتابه الثاني ((المرأة الجديدة)) ١٩١١. وبالرغم من أن دعوة قاسم أمين كانت من أجل تعليم المرأة لحماية الأسرة وتربية الأطفال، وبالرغم من أنه استند في دعوته إلى مبادئ الدين الإسلامي ولم يخرج عليها إلا إنه هوجم بشدة من رجال الأزهر والدين وكانوا أحد الأعمدة التي يرتكز عليها حكم الخديوي المستغل والمستبد بالشعب المصري بالتعاون مع الاستعمار الإنجليزي. وقد تعرض قاسم أمين لغضب الخديوي أيضا، وهاجمه رجال السياسة المحافظون وعلى رأسهم ((مصطفى كامل)) الذي كتب في جريدة اللواء

---

(١) عباس العقاد، محمد عبده، طبعة التربية والتعليم بمصر، ص ٢٢٩.

١٩٠١ يهاجم الدعوة إلى تحرير المرأة. وكانت جريدة اللواء هي لسان حال الرجال المتزمتين الرجعيين. وأصدر عبد الحميد خيري كتابه ضد تحرير المرأة "الدفع المتين في الرد على قاسم أمين " وأصدر محمد أحمد البولاقي كتابه ((المجلس الأنيس في التحذير عما في تحرير المرأة من التلبيس)). وقد استطاع أحمد لطفي السيد وزملاؤه أن يعبوا عن الفكر المتقدم في صحيفتهم ((الجريدة)) وقد ناصر الدعوة إلى تحرير المرأة في هذه الفترة سعد زغلول، لطفي السيد، وليّ الدين يكن، محمد حسين هيكل، طه حسين، سلامة موسى [1]، مصطفى فهمي، فرح أنطون، أحمد الزيات، مصطفى المنفلوطي، ووقفت مجلة ((المنار)) ((لرشيد علي رضا)) والمقتطف والهلالي في صف تحرير المرأة.

وقد شاركت المرأة العربية بقلمها منذ بداية هذه المعركة لتحرير المرأة ومن هؤلاء النساء عائشة التيمورية التي جمع قلمها بين الأدب العربي والتركي والفارسي في

([1]) سلامه موسى، مقدمة السبرمان، طبعة سلامه موسى، القاهرة، ص ٢٩.

الشعر والنثر. ثم جاءت بعدها زينب فواز التي نبغت في الشعر، والبيان، أما ملك حفني ناصف التي اشتهرت باسم ((باحثة البادية)) (١٨٨٦ – ١٩١٨) فقد شاركت بقلمها القوي في الكتابة من أجل تحرير المرأة وكانت معاصرة لقاسم أمين لكن آراءها اعتبرت تكملة لدور رفاعة الطهطاوي ودعوته، التي سمتها إصلاحا واعتبرها قاسم أمين تحريرا [١]. وقد نبغت ملك حفني ناصف في التأليف إلى حد أن لطفي السيد قال إن كتاباتها صورة للكاتبات العربيات اللائي تفوقن على كثير من الكتاب الرجال [٢] وقد كافحت ملك حفني ناصف من أجل تعليم البنات.

ومن الكاتبات الرائدات، ((مي زيادة)) المرأة العربية التي استطاعت رغم تخلف نظرة المجتمع للمرأة أن تنشئ صالونها الأدبي في القاهرة ١٩١٥، ١٩١٦. وكان يحضر ندوتها الأدبية كل ثلاثاء طائفة من الأدباء والمفكرين

---

(١) مجدي ناصف، آثار باحثة البادية، طبعة المؤسسة المصرية ص ٣٥.

(٢) إبراهيم عبده، تطور النهضة النسائية، القاهرة، الآداب، ١٩٤٥، ص ١٢.

المصريين والعرب. وكانت في العشرين من عمرها ومع ذلك استطاعت بفكرها الناضج الذكي أن تجمع حولها شيوخ الأدب والفكر في مصر.

وكانت مي الزيادة تعيش في مصر ولكن أمها كانت من فلسطين، وأباها من لبنان. واستطاعت رغم ذلك أن تفرض شخصيتها على المجتمع الأدبي في مصر وأن تخالط الرجال وتحادثهم وتراسلهم في وقت ضرب فيه الحجاب على مثيلاتها من النساء العربيات.

وقد انتهت حياة ((مي زيادة)) بمأساة تصور القسوة والوحدة والمشاكل التي تتعرض لها المرأة الذكية الفنانة في مجتمع رجولي لا يعرف عن المرأة شيئا سوى أن تكون رحما يلد الأطفال أو مهبلا لإمتاع الرجل جنسيا.

وقد تعرضت ((مي زيادة)) لأزمة عاطفية حين أحبت أحد الكتاب المصريين ((عباس العقاد)) وقد فشلت قصة حبهما بسبب نظرته المتخلفة للمرأة. وعاشت ((مي زيادة)) في وحدة قاتلة، رغم مطاردة الرجال لها، لكنها لم تكن تجد الرجل الذي يستطيع أن يفهمها ويعاملها كإنسانة لها عقل قبل أن يكون لها مهبل أو رحم.

ولم يفهم أحد مأساتها وحزنها وسبب وحدتها واتهمها أهلها بالجنون وأدخلوها مستشفى العصفورية للأمراض العقلية في لبنان. والتفت حولها حينما دخلت قائلة ((أولم يجدوا سجنا لي أكرم من هذا السجن)) [١]، وأخذت تتوسل إلى المسئولين بالمستشفى لإخراجها، وأضربت عن الطعام مرة بعد مرة، واستمرت على هذه الحال عدة شهور بالمستشفى إلى أن كشفت عليها لجنة من كبار الأطباء وقررت اللجنة أن لا شيء بها، وكتب الدكتور مارتان الطبيب الفرنسي تقريرا ينفي إصابتها بأي مرض من الأمراض، ومع ذلك لم يخرجها المستشفى بحجة أن تقوى صحتها [٢].

وانتهت حياة ((مي زيادة)) وهي في ريعان شبابها في إحدى الشقق بالقاهرة، ماتت وحيدة تماما بغير أحد جوارها، ماتت بعد أن تركت وراءها كتاباتها وشعرها ولوحاتها ومحاضراتها التي ألقتها في بيروت ومصر عن الأدب والفن واستقلال المرأة.

---

(١) طاهر الطناحي، الساعات الأخيرة، ص ١١١ – ١١٢.

(٢) المصدر السابق.

وتعتبر ((مي زيادة)) واحدة من النابغات في الأدب العربي إلا أنها لم تجن من نبوغها الفكري إلا الوحدة والاتهام بالجنون ثم الموت المبكر.

ولم يكن مصير ((مي زيادة)) المؤلم يختلف عن مصير أي امرأة رائدة حاولت أن تغير نظرة المجتمع الرجولي المتخلف للمرأة. ولم يختلف مصيرها كثيرا عن النساء الذكيات (الساحرات الحكيمات) اللائي اتهمن في العصور الوسطى بالجنون أو الفسق أو السحر، بل لم يختلف مصيرها كثيرا عن مصير كثير من النساء الذكيات في عصرنا الحديث اللائي لا يجنين من وراء ذكائهن إلا الوحدة القاتلة أو الاتهام بالهستريا أو الشذوذ.

المرأة العربية الثائرة

في المجتمعات العربية الزراعية كمصر تعمل الأغلبية الساحقة من النساء في الحقول جنبا إلى جنب الرجال منذ ألاف السنين، ويعتمد الاقتصاد والإنتاج على عرق الفلاحين والفلاحات. ولولا خروج الفلاحة من دارها كل يوم قبل شروق الشمس لما كان في استطاعة الرجال المعارضين لتحرير المرأة (وغير المعارضين أيضا) أن ينالوا فطورهم كل صباح ولا أن يجدوا من الملايين ما يستر أجسادهم ولا أن يجدوا الورق الذي يكتبون عليه أفكارهم والمتخلفة عن المرأة.

ولا يزال في مجتمعنا العربي حتى اليوم غير قليل من هؤلاء الرجال الذين يعارضون خروج المرأة من بيتها للتعليم أو العمل بدعوى المحافظة على أنوثتها أو شرفها. ويتجاهل هؤلاء الرجال تلك الملايين من النساء الفلاحات اللائي يخرجن كل يوم من بيوتهن للعمل. وربما اعتقد هؤلاء الرجال أن الفلاحات لسن نساء، أو أن العتالات والخادمات ليس لهن أنوثة أو شرف، وإلا فكيف نفسر صمتهم المطبق

إزاء خروج هذا العدد الهائل من النساء من بيوتهن كل يوم؟ وكيف يدعي الرجل منهم غيرته على أنوثة المرأة ورقتها في حين أن شعرة واحدة لا تهتز في جسده وهو يسير في الشارع ومن خلفه خادمته البنت الضعيفة الصغيرة تحمل عنه، وهو رجل قوي، الحقائب الثقيلة، ولا يهتز الواحد منهم وهو يرى كل يوم صفوف النساء العتالات والكادحات في الحقول والمشاغل والمصانع حيث تعمل المرأة ضعف الساعات التي يعملها الرجل لأنها تعمل خارج البيت وداخله، بل لا يهتز الرجل منهم وهو راقد في سريره وزوجته تخدمه ولا تكف عن الحركة داخل البيت من أجل تلبية طلباته وطلبات الأسرة والأطفال.

وهذا يدل على أن غيرة هؤلاء الرجال على شرف النساء أو أنوثتهن ومعارضتهم لخروج المرأة ليس موقفا أخلاقيا أو إنسانيا ولكنه موقف طبقي استغلالي.

وهذا هو الحال دائما بالنسبة لعمل المرأة في المجتمع الأبوي. وإن هذا المجتمع لا يسمح للمرأة بالعمل خارج البيت إلا من أجل استغلالها بدرجة أشد حيث تعمل أجيرة بغير أجر كحال الفلاحات اللائي يعملن لحساب الأب أو

الزوج وتحت سيطرته المطلقة، أو من أجل سد النقص في الأيدي العاملة في المصانع حيث تعمل المرأة (والأطفال أحيانا) بأجر أقل من أجر الرجل، وتحت سيطرته المطلقة في العمل أو في البيت.

وقد دخلت المرأة الغربية كعاملة في المصنع بعد الحرب العالمية الأولى، حين قلت الأيدي العاملة من الرجال، وبدأت الدول العربية شأنها شأن دول العالم تحتاج إلى تشغيل النساء في المصانع، بالإضافة إلى ازدياد نشاط الصناعات المحلية لانقطاع البضائع المستوردة بسبب الحرب. لم يجذب هذا العمل إلا الفقيرات والمعدمات من النساء والبنات. ففي هذه الطبقة الفقيرة المعدمة التي تلتقط طعامها اليومي بأي وسيلة تسقط جميع التقاليد الأخلاقية أمام الحاجة إلى الطعام، ويضطر الرجل في تلك الطبقة أن يشتري رغيفا يأكله بدلا من أن يشتري حجابا لزوجته أو ابنته، ويدفعه الفقر إلى أن يشغل ابنته أو زوجته خادمة في بيت فيه رجال أو يلحقها بمصنع حيث تعمل جنبا إلى جنب الرجال دون أن يفكر في تلك التقاليد الأخلاقية التي تحرم الاختلاط. ولهذا لم تعرف الحجاب أو الانحباس في البيوت إلا النساء الطبقات

المتوسطة وفوق المتوسطة أو العالية ممن لا يحتاجون اقتصاديا إلى تشغيل نسائهم وبناتهم خارج البيوت.

وفي المجتمعات العربية تمثل الطبقات الفقيرة الأغلبية من الناس. وقد استغلت الدولة حاجتهم لسد الرمق ففرضت عليهم أعمالا شاقة نظير أجور زهيدة. أما النساء منهم والأطفال فقد فرضت عليه أدنى الأعمال وأقل الأجور وأسوأ الظروف. وكانت المرأة العاملة منهن تعمل ساعات أكثر من الرجل وتتقاضى أجرا أقل منه. ويعود العامل ليستريح في بيته على حين تعود العاملة إلى البيت لتخدم زوجها وتخدم أطفالها وتطعمهم.

وقد عاشت هؤلاء العاملات ممزقات بين العمل خارج البيت وداخله، وكانت العالمة المتزوجة مهددة بالفصل من العمل في أي وقت بسبب الحمل والولادة، ومهددة بالطلاق في أي وقت إذا لم تخدم زوجها وأطفالها الخدمة الواجبة.

وفي بلد كمصر بلغ عدد هؤلاء العاملات الصناعيات في أول إحصائية سنة ١٩١٤ عشرين ألف عاملة، بنسبة ٥% من عدد العمال والرجال. وكانت البنات والزوجات من

الطبقات الفقيرة يتزاحمن في ذلك الوقت على العمل في المصانع ومحالج القطن، تعمل الواحدة منهن أكثر من ١٤ ساعة في اليوم الواحد، بأجر يومي لا يزيد عن ثلاثة قروش وقد يصل إلى ١٨ مليما فقط. لكن هذا الأجر على ضآلته كان أفضل من الجوع الذي كان يتهددهن. ولم تكن هناك قوانين تفرض على أصحاب المصانع أي شروط صحية وأي حماية للعاملات أو العمال. وكانت أقسام النساء أسوأ حالا من أقسام الرجال، لانخفاض قيمة النساء، وعدم تذمرهن، وتعودهن على قبول الذل والمهانة، ومن شدة سوء الأحوال والإرهاق وعد التغذية لم تكن العاملة منهن تستمر في هذا العمل أكثر من أربع أو خمس سنوات ثم يصيبها العجز أو المرض، فإذا بصاحب المصنع يفصلها ويلقي بها إلى الطريق كقطعة للغيار البالية، ويعين مكانها عاملة جديدة من قائمة المنتظرات المتلهفات على لقمة العيش.

وكانت هؤلاء العاملات البائسات المرهقات جسدا ونفسا خارج البيت وداخله هن أول النساء الثائرات في مصر، وهن أول نساء قمن بالإضراب والاعتصام بالمصانع، والخروج في مظاهرات في الشوارع يطالبن باحترام آدمية

المرأة العاملة ووضع قانون يحدد ساعات العمـل، وأجـازة وضع. وفي ذلك الوقت لم تكن المرأة العاملة تحصل علـى أي أجازة حمل، ولهذا كانت تسرع إلى علمها في اليوم التالي للوضع، وأحيانا كانت تخفي عن صاحب العمل أنها متزوجة من أجل أن يلحقها بالعمل (كان أصاحب العمـل يفضـلون البنات أو النساء غير المتزوجات) وحينمـا كانـت تحمـل العاملة منهن فهي تخفي مظاهر حملهـا كأنمـا هـو غيـر شرعي، وكان معظمهن يلجأن إلى إجهاض أنفسهن بالوسائل الريفية الخطرة (مثل إدخال عود الملوخية داخل الـرحم) وفي أحيان كثيرة كانت العاملة منهن تفقـد حياتهـا بسـبب النزيف أو الالتهابات المميتة.

وكانت نساء الطبقة الراقية في مصر في ذلك الوقت قد بدأن تكوين أو تنظيم نسائي سنة ١٩٢٣، لكنهن لم يكـن (بحكم الثراء والانعزال عن الطبقات الفقيرة) يدركن شـيئا عن حال هؤلاء النساء العاملات المستغلات أبشع اسـتغلال. وقد ذهبت إحدى مظاهرات هؤلاء النساء إلى مقـر التنظـيم النسائي، لكن النساء الأرستقراطيات لم يظهـرن أي اهتمـام بمثل هذه القضايا الخاصة بالفقيرات،وكان كـل اهتمـامهن

موجها إلى خلع الحجاب وهو أمر لم يكن يهم الأغلبية الساحقة من النساء لأن العاملات والفلاحات كن دائما سافرات.

وقد كانت هؤلاء النساء الكادحات (عاملات وفلاحات) هن اللائي اشتركن اشتراكا فعليا في الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وخرجن مع الرجال إلى الطرق الزراعية يقطعن أسلاك التليفون وينزعن قضبان السكك الحديدية ليحجزن قطارات السلطات الإنجليزية. وقد هجم بعض هؤلاء النساء على المراكز التي اعتقل فيها بعض المواطنين والثوار المصريين وسقطت بعضهن قتيلات وجريحات برصاص الإنجليز.

إن هؤلاء الكادحات الفقراء هن اللائي قدمن شهيدات ثورة ١٩١٩، ومنهن الشهيدة ((شفيقة محمد)) التي قتلها الإنجليز يوم ١٤ مارس ١٩١٩، و ((حمدية خليل)) من كفر الزغاوي بالجمالية [1] وسيدة حسن وفهيمة رياض

([1]) عبد الرحمن الرافعي، في أعقاب الثورة المصرية، الجزء الأول، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٢١١، درية شفيق، ١٩٥٥، ص ١١٩.

وعائشة عمر وغيرهن من مئـــات المصـــريات الفقيـــرات المجهولات.

وقد لعب رجال الطبقة العاملة الكادحـــة والفلاحـــون أيضا دورا كبيرا في ثورة ١٩١٩، لكن دورهم لم يظهر في التاريخ كما ظهر دور رجال الطبقة العليا، وبالمثل أيضا لـــم يظهر في التاريخ دور النساء الكادحات في الثورة كما ظهر دور النساء من الطبقة العالية. وذلك أن الذين يكتبون التاريخ هم الذين يملكون المال والسلطة.

ولم يحصل الرجال أو النساء من الطبقات الكادحـــة على شيء يذكر من ثورة ١٩١٩، مع إنهم هم الذين كـــانوا وقودها. وذهبت مكاسب الثورة إلى الطبقة العالية. وقد حدث للحركة النسائية في مصر ما حدث للحركة العمالية إذ إنها لم تعبر عن مشاكل الأغلبية الساحقة مـــن النســـاء أو الرجـــال وانتهى بها الأمر إلى التعاون مع القصـــر لخدمـــة القصـــر والأحزاب الرجعية، كما ظلت تتسم بالابتعاد عن مجال العمل السياسي واقتصر نشاطها على مجال الخدمة الاجتماعية [١].

([١]) محمد أنيس، السيد رجب حـــراز، التطـــور السياســـي للمجتمع المصري الحديث القاهرة،ص ١٩٠ – ١٩١.

وقد أسست ((هدى شعراوي)) التنظيم أو الاتحـــاد السوفيتي عام ١٩٢٣. ونجح هذا الاتحاد في رفع سن زواج البنت إلى ١٦ سنة في سنة ١٩٢٤ لكنه فشل في تغيير قانون الأحول الشخصية أو منح المرأة حق الانتخاب رغم الجهـــود التي بذلها في هذا المجال بقيادة هـــدى شـــعراوى وســـيزا نبراوي. وبالرغم من مرور أكثر من ٥٣ عاما على إنشـــاء الاتحاد النسائي وحماسه المستمر المخلص في هذين المجالين إلا أن معظم جهوده باءت بالفشـــل. إذ إن قـــانون الـــزواج والطلاق في مصر ما زال حتى اليوم يبيح للرجل أن يطلـــق زوجته متى شاء ويبيح له تعدد الزوجات. وقد سبقت بعـــض البلاد العربية مصر في هذا المجال وطورت هـــذا القـــانون تطورا يتمشى مع الوضع الجديد الذي حصلت عليه المـــرأة العربية. أما حق الانتخاب فلم تحصل عليه المرأة المصـــرية إلا في دستور ١٩٥٦.

ولم تكن مصر وحدها هي التي تشهد اشتراك النساء في الثورة ضد الاستعمار الأجنبي أو الظلم الداخلي.

إن المرأة العربية في مختلف أنحاء العـــالم العربـــي اشتركت مع الرجل في تحرير الوطن وفي الثورة ضد الظلم.

ففي سوريا اشتركت المرأة العربية في الجمعيــات الســرية لمقاومة عملية التتريك عام ١٩١٤، وفي عام ١٩١٩ شاهدت دمشق أول مظاهرة نسائية بسقوط الاحتلال الفرنسي وواجهن رصاص الفرنسيين. واشتركت المرأة فـــي ثـــورة الشـــعب السوري ١٩٢٥، وحملت السلاح في المقاومة الشعبية منـــذ إعلان هيئة الأمم تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨.

وفي العراق ناضــلت المـــرأة مـــع الرجـــال ضـــد الاستعمار والملكية وساهمت في عمليات التحرير والتطـــور وحصلت على حقوقها السياسية كما وصلت إلـــى منصـــب وزاري.

وفي الأردن، رغم القيود التي تحيط بالنساء، كم من مظاهرات نسائية كبيرة سادت شوارع عمان تحيـــي بطولـــة النساء والرجال العرب في السجون والمقاتلين الفلســطينيين الفدائيين.

وفي السودان ناضلت النساء ضد الاحتلال الإنجليزي وكون اتحادهن النسائي الذي اشتهر بنشاطه وتقدمه والـــذي قدم نساء بطلات منهن فاطمة إبراهيم.

وفي لبنان خرجت النساء العربيات في مظاهرات كبيرة ضد الفرنسيين للإفراج عن زعماء لبنان الوطنيين سنة ١٩٤٣.

أما نساء الجزائر فقد شاركن مع الرجال في الثورة ضد الاستعمار الفرنسي وعلى أرض المليون شهيد سقطت الكثيرات شهيدات، وبعضهن عذب في السجون ولعل أشهرهن في هذا جميلة بوحيدر وجميلة بوعزة.

وفي اليمن الجنوبية وقفت النساء والفتيات العربيات إلى جانب الرجال في الثورة من أجل الاستقلال. وفي السودان أيضا كانت هناك مناضلات والمقاتلات من الحزب النسائي السوداني. أما نساء وفتيات فلسطين فقد ضربن المثل في البطولات من أجل استرداد وطنهن من بين أنياب المغتصبين وكم من بنات فلسطينيات ذهبن في حملات فدائية داخل الأرض المحتلة فلسطين، وكم من نساء قمن وتظاهرن فوق الأرض المحتلة ذاتها، في القدس ونابلس ورفح والخليل وبيسان، وكم من فتيات ونساء يعملن ويناضلن داخل منظمة التحرير الفلسطينية، وقد عرف العالم ليلى خالد وفاطمة

برناوي وأمينة دحبور وشادية أبو غزالة ومثيلاتهن اللائـــي وضعن حياتهن على أكفهن من أجل تحرير الأرض والوطن.

وفي الكويت وفي ليبيا وفي تونس وفي المغرب وفي الصومال، هناك السناء يشاركن في النضال من أجل تحرير الرجال والنساء معا. وقد كسبت المرأة العربية في بعض هذه البلاد مكاسب جديدة في المجتمع وفـــي الأســـرة وظهـــرت قوانين جديدة تمنع تعدد الزوجات، وتساوي الرجل بـــالمرأة في حق الطلاق.

وقد نالت المرأة العربية حق الانتخاب فـــي معظـــم البلاد العربية. لكنه بالرغم من ذلك فإن نسبة النساء اللائـــي يشاركن في المجال السياسي أو الانتخابات ضئيلة. إن النساء المصريات اللائي يشاركن في الانتخابات بالإدلاء بأصواتهن لم يزدن على ١% من عدد الأصوات الكلية للنـــاخبين ســـنة ١٩٥٦. ارتفعت هذه النسبة ١٩٧٢ إلى ١٢% أمـــا نســـبة النساء العضوات في مجلس الأمة فلم تزد عن ٢,٥% ســـنة ١٩٧٦.

وقد اتضح أن الاعتراف بحق المرأة في الانتخابـــات أو غيره من الحقوق السياسية لا يحدث تغييـــرا يـــذكر فـــي

وضع المرأة الأدنى، وسـواء ذهبـت النسـاء إلـى الإدلاء بأصواتهن أو لم يذهبن، سواء نجحت بعضهن في الوصـول إلى مقاعد في البرلمان أم لم ينجحن فإن وضع المرأة الأدنى لا يتغير كثيرا، وتبعيتها لزوجها لا تمس، وتبعيتها لطبقتهـا الاجتماعية تظل كما هي.

لم يحدث في أي بلد من العالم أن المـرأة حصـلت على المساواة الحقيقية بالرجل لمجرد حصولها على الحقوق السياسية فقط، بالرغم مما يصاحب الاعتراف بهذه الحقـوق من ضجة كبرى عن الديموقراطية وخطب رنانة عن حريـة المرأة. بل إنه اتضح انه فـي ظـل الأنظمـة الإقطاعيـة والرأسمالية الأبوية كثيرا ما تستخدم أصوات النسـاء ضـد مصلحة النساء الحقيقية، بمثل ما تستخدم أصوات الفلاحـين والعمال ضد مصلحة الفلاحين والعمال.

وبالرغم من أن الثورة المصرية (١٩٥٢) منحـت العمال والفلاحين ٥٠% من المقاعد في مجلس الأمة إلا إنها لم تمنح النساء أي عدد من المقاعد. وبـرغم أن الفلاحـين والعمال حصلوا على نصف المقاعد نظريا إلا أن الكـادحين والعمال لم يصلوا أبدا إلى كراسي مجلس الأمة وإنما وصل

إليها رجال من طبقات أعلى تنكروا في زي الفلاحين والعمال، وقد كان تعريف العامل والفلاح فضفاضا يسمح بدخول أصحاب الدخول الكبيرة ممن لا يفلحون الأرض أو يعملون بأيديهم في المصانع.

ولا أظن أن وضع المرأة يختلف كثيرا، وربما لو خصص للنساء بعض مقاعد في البرلمان لاحتلتها نساء الطبقة العالية اللائي يؤيدن النظام والسلطة في معظم الأحيان أو ربما تنكر بعض الرجال في زي النساء واحتلوا مقاعدهن.

وبالرغم من أن المرأة العربية أصبحت وزيرة لأول مرة في مصر سنة ١٩٦٢، وخمس أو ست نساء دخلن مجلس الأمة إلا أن أغلبية الساحقة من المصريات ما يزلن حتى اليوم أميات جاهلات يكدحن طوال النهار وجزءا من الليل في الحقول والمصانع والمكاتب والبيوت (نسبة الأمية بين الإناث ٨٤% سنة ١٩٦٠، انخفضت سنة ١٩٧٦ إلى ٧١%) ويعشن ي حال يرثى لها من الإرهاق الجسدي والنفسي تحت سيطرة الزوج أو الأب أو الأخ أو أي رجل آخر من أعضاء الأسرة الأبوية. بل إن هذه النسبة الصغيرة

من النساء اللائي حظين بالتعليم المتوسط أو العالي ما زلـــن أيضا حبيسات التقاليد تحت سيطرة الرجال أيضـــا وقـــد زاد عليهن عبء جديد هو العمل خارج البيت.

وهذا يدلنا على الخطأ الكبير الذي تقع فيـــه بعـــض النساء المنتميات إلى حركات تحرير المرأة، حين يتصـــورن أن المرأة يمكن أن تتحرر بخوض معركة الحقوق السياسية، أو الاشتراك فـــي الانتخابـــات أو الأحـــزاب السياســـية، أو الصعود إلى السلطة والمشاركة في الحكم مع الرجل.

إن تولي المرأة السلطة أو الحكم في نظام إقطـــاعي طبقي أو رأسمالي طبقي لا يغير كثيرا من الاستغلال الواقع على النساء أو الرجال. وسواء كانت هناك امرأة تحكم فـــي الولايات المتحدة بدلا من نيكسون أو فورد أو كـــارتر فـــإن النظام يظل أبويا رأســـماليا طبقيـــا قائمـــا علـــى الحـــروب والاستعمار والاستغلال. إن رئاسة جولدا مائير لإسرائيل لم تغير شيئا من النظام القائم على الطبقية والرأسمالية والحرب وإن رئاسة باندرانايكا لسريلانكا أو أنديرا غاندي للهنـــد لـــم يغير كثيرا من النظام الأبوي القائم على سيطرة الرجل داخل الأسرة ولا تزال الأغلبية الساحقة من نساء سريلانكا والهنـــد

مرهقات جسديا ونفسيا بالكدح خارج البيت وداخلـــه تحـــت سيطرة الأب أو الزوج.

إن تحرير المرأة تحريرا حقيقيا في الشرق العربـــي أو الشرق الأقصى أو الغرب لن يتحقق إلا بـــالتخلص مـــن النظم الطبقية الأبوية سواء كانـــت رأســـمالية أو إقطاعيـــة، بمعنى آخر أن تحرير المرأة لن يتم إلا فـــي ظـــل مجتمـــع اشتراكي حقيقي وهذا أمر لم يحدث حتى اليوم في أي بلـــد، ولا في أي بلد من البلدان التي تسير نحو الاشتراكية. ولكنه سيحدث في المستقبل حينما تصبح النساء قوة سياسية قـــادرة على انتزاع حقوقها فالحرية تؤخذ و لا تمنح كما عرفنا مـــن التاريخ.

العمل والمرأة في المجتمع العربي

باستثناء الفلاحات والعاملات الكادحات والخادمات والجواري فقد فرض المجتمع على النساء الانحباس داخل البيت من أجل خدمة الزوج والأطفال والأسرة بغير أجر اللهم إلا الكساء والطعام والمسكن. ولم تكن المرأة من هؤلاء تخرج من بيتها إلا للضرورة القصوى كالمرض الخطير مثلا وهي تخرج في هذه الحالة محجبة ومعها رجل من الأسرة. وفي بعض الأحيان كانت تموت المرأة دون أن يصرح زوجها بأن يفحصها طبيب رجل.

وقد أدى الفصل بين الجنسين إلى ضرورة خلق مهن نسائية تكون مهمتها رعاية النساء المحجبات من الأسر العالية والمتوسطة. ومن أوائل هذه المهن مهنة التمريض التي لم تقبل عليها إلا البنات الفقيرات، حيث إن عمل المرأة خارج البيت كان عارا على الأسرة التي تستطيع أن توفر الطعام لنسائها.

وكان الحكام العرب ينشئون مدارس التوليد والتمريض من أجل خدمة نساء الطبقات العالية. وقد لاحظ

((محمد علي)) الذي كان حاكما على مصر في ذلك الوقت أن الأسر المصرية العالية تحتاج إلى نساء يعملن كمولــدات وحكيمات. واشترى ((محمد علي)) [1] لهذا الغرض بعض الجواري السودانيات وعهد إلى ((كلــوت بــك)) مهمــة تعليمهن مبادئ الطب والجراحة، مع ((الأغــوات)) وهــم العبيد الرجال، وأول طلاب عرفتهم مدرسة الولادة الملحقــة بمدرسة الطب البشري بأبي زعبل. وفي هذا الــزمن كــان ظهور المرأة في الطريق يعتبر عملا فاضحا. وكانت مدرسة التوليد تعلــم البنــات شــيئا يتصــل بــالتكوين الجســدي ((التشريح)) [2]، وقد أظهر الرجال المصريون اســتياءهم من أن تتعلم بناتهم مثل هذا العلم المنافي للأخلاق.

وفي سنة ١٨٤٢ أنشئت أول مدرسة للمولدات فــي مصرن ثم أشئت أول مدرسة ابتدائية للبنــات (الســيوفية) ١٨٧٣، وكانت تلميذاتها في البداية من الجــواري البــيض

([1]) أحمد عزت عبد الكريم، التعليم في عهد محمــد علــي، مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٣٨، ص ٢٩٧.

([2]) إبراهيم عبده، درية شفيق، تطور النهضة النسائية مــن عهد محمد علي إلى عهد فاروق، القاهرة، الآداب، ص٩٤٥، ص ٤١.

المشتغلات في قصور الأسر الحاكمة. ولم تظهر في مصر من المدارس الخاصة بالبنات قبل هذا العام إلا ما يتولى تعليم بنات الطبقات الفقيرة واليتيمات من أجل توفير بعض احتياجات الأسر الراقية، وبعض احتياجات الجيش كالخياطات اللائي يحكن ملابس الجنود.

وقد فرضت الدولة المصرية أول الأمر على الممرضات والمدرسات ألا يتزوجن حتى يتفرغن للعمل كاملا، وكانت تأخذ على الواحدة منهن تعهدا كتابيا بأنها لن تتزوج. وكانت هؤلاء الفتيات لحاجتهن الشديدة إلى الرزق يوافقن على هذا الشرط. وقد استغلت الدولة حاجتهن للعمل ففرضت عليهن هذا الشرط، وخلقت منهن طبقة من العوانس الوحيدات التعيسات المريضات نفسيا، حيث أن ممارسة الجنس لم يكن يسمح بها للمرأة إلا داخل الزواج، أو للنساء المومسات اللائي ينظر إليهن المجتمع على أنهن نساء ساقطات بغير شرف ولا كرامة.

وكان من العار أن ترسل أسرة محترمة بناتها إلى مدرسة من تلك المدارس، وبقيت هؤلاء البنات في البيوت لا يتعلمن إلا وسائل الإغراء الجنسي من أجل الاحتفاظ بالزوج،

الذي كان يحق لها أن يطلق زوجته بسبب أو بغير سبب أو يجمع بينها وبين عدد من الزوجات أو ما ملكت يمينه من الجواري [١].

ولم يبدأ التعليم الرسمي الثانوية للبنات إلا عام ١٩٠٠ حين أنشئ قسم معلمات السنية. (أنشئ التعليم الثانوي للبنين سنة ١٨٢٥ أي قبل البنات بخمسة وسبعين عاما) أما الجامعة المصرية فلم تفتح أبوابها للمرأة إلا عام ١٩٢٩ ودخلتها أربع طالبات فقط ذلك العام.

وقد تزايد بعد ذلك إقبال البنات المصريات على التعليم وخاصة بعد ثورة ١٩٥٢ إلا أن نسبة العاملات بالمهن العلمية والفنية لم تصل إلا إلى ١٨,٩% من جملة العاملات في عام ١٩٦٩. ومعنى ذلك أن الأغلبية الساحقة من النساء المصريات ٨١,١% ما زلن يعملن بالزراعة أو أعمال الخدمة أو الأعمال الكتابية الصغيرة. وقد بلغت العاملات بالتدريس والتمريض في سنة ١٩٦٠ ٧٢,٨%، ٣٨,٧% على التوالي من جملة العاملات بالمهن العلمية

---

(١) زينب فريد، تطور تعليم البنت في مصر في العصر الحديث، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، نوفمبر ١٩٦١.

والفنية [1] ويبين تعداد السكان في مصــر لســنة ١٩٦٠ أن ٨٩,٣% من العاملات المشتغلات بالخدمات يقمــن بالعمــل بالخدمة المنزلية كخادمات. (لا تخفى على أحد الاســتغلال الذي تتعرض له هــؤلاء الخادمــات اقتصــاديا واجتماعيــا وجنسيا).

ويبين هذا التعداد أن هناك حوالي ١٠ ملايين امــرأة في سن العمل (يدخل ضمن ذلك الطالبات والفلاحات وربات البيوت) ويبلغ مجموع ســكان المــدن مــنهن ٤ ملايــين، والباقيات (٦ ملايين) فلاحات. ويبلــغ مجمــوع النســاء العاملات بأجر في جميع القطاعات (مــا عــدا الفلاحــات وربات البيوت) ٦% من عدد النساء في سن العمل، وتبلــغ ٦,٥% من القوى العاملة في مصــر. وفــي تعــداد ١٩٧٦ ارتفعت هذه النسبة إلى ٩,٢%.

وعلى هذا فإن الأغلبية العظمى من نســاء مصــر فلاحات يعلمن بدون أجر لحساب الزوج أو الأسرة، وربات

---

(1) المرأة المصرية في عشرين عاما (١٩٥٢ ، ١٩٧٢) مركز الأبحاث والدراسات السكانية، الجهاز المركزي للتعبئــة العامــة والإحصاء، ص ٥١ – ٧٢.

بيوت يعملن بغير أجر لحساب الزوج أو الأب أو الأسـرة، وينطبق هذا القول على النساء في معظم البلاد العربية. ففي سوريا مثلا تبلغ قوة العمل النسائية [1] من مجموع الإنـاث ١٦,١% ثم إن القسم الأكبر من العاملات وتبلغ نسبة ٨٨% يعملن في الحقول والمزارع كفلاحات الباقيات يعملـن فـي إدارات الدولة ومؤسساتها وفي الخدمات والصناعة والبيـع والتجارة.

إن الفلاحات يمثلن الأغلبية من النسـاء العربيـات العاملات، ولأنهن يعملـن بغيـر أجـر فـإن كثيـرا مـن الإحصاءات تتجاهل وجودهن ضمن قوة العمل النسائية. ففي الإحصاءات تجيء قوة العمل النسائية على أنها ٩,٢% فقـط من القوى العاملة. ولكن إذا أضيفت الفلاحات إلـى النسـاء العاملات بأجر لأوشكت نسبة العاملات في مصر أن تقترب من نصف القوى العاملة في البلاد، وتصبح من أعلى النسب

---

(١) الاتحاد العام النسائي، للجنة الدراسات المركزية، المرأة العربية في القطر السوري، ص ٤٩ وحسب إحصائية وزارة التخطيط السوري لعام ١٩٦٨.

العالمية، ولا يزيد عليها إلا نسبة النساء العاملات في الاتحاد السوفييتي.

وقد لعب العمل بأجر دورا في تحرير بعض النساء وخاصة هؤلاء اللائي حظين بقسط من التعليم العالي، ونسبتهن ٠,٣ في الألف فقط من جملة النساء لعام ١٩٦٦. وبالنسبة لمجموع السكان تبلغ نسبة حاملات المؤهلات العليا ١,٢% سنة ١٩٧٦، وكانت ٠,٢% فقط سنة ١٩٦٠، وقد أدى ذلك إلى تحررهن الاقتصادي. واستطاعت بعض الزوجات منهن أن ينتزعن حقوقا جديدة في المجتمع أو داخل الأسرة رغم قانون الزواج الجائر. وبعضهن رفض الزواج حتى لا يخضعن لهذا القانون المتخلف وبعضهن تزوجن ثم طلقن حرصا منهن على الاستقلال والحرية.

ولا يوجد أي نص في القانون المصري اليوم يفرق بين الجنسين في التعليم أو تولي الوظائف. والقانون رقم ٢١٠ لسنة ١٩٥٩ بشأن موظفي الدولة ولم يشترط في الوظيفة سوى أن يكون المرشح لها مصريا حسن السيرة مستوفيا شروط السن و الأهلية والكفاءة (المادة ٦) لكن التفرقة بين الجنسين تحدث في التطبيق العملي لهذا القانون.

مثال ذلك أنه في قانون القضاء رقم ١٨ لسنة ١٩٥٢ تنص المادة ٢ على أنه لا يجوز تعيين أحد في وظيفة قاض إلا بعد التحقق من كفايته وصلاحيته للقضاء، وقد اسـتطاع الرجال المسيطرون على القضاء منع دخول المرأة المصرية فيه حتى اليوم بحجة أن الإسلام جعل شهادة الرجل الواحـد تساوي شهادة امرأتين واثنتين، وفسروا هذا بأن المرأة ليست مؤهلة لتولي عمل القاضي، لأن الشهادة لا تزيد عن تقريـر حادثة في حين أن القضاء حكم في نزاع.

وبالرغم من أن المرأة المصرية أصبحت وزيرة منذ سنة ١٩٦٢ إلا أنها منعت من أن تكون قاضية حتى اليـوم، وما زال الرجال في مصر يناقشون فكرة صـلاحية المـرأة لتولي منصب القضاء، ولعل آخر ما قرأته بهذا الصدد مقال في جريدة الأخبار في ١٢ يناير ١٩٧٦، حيث يقول الكاتـب ما معناه أن منصب القاضي محرم على المرأة ي الإسـلام لأنه ((غني عن الإيضاح أن القضاء في الإسلام له شـروط عشرة، لا يتم القضاء إلا بها ولا تنعقد الولايـة إلا معهـا، وهذه الشرائط هي:- الإسلام والعقـل والـذكورة والحريـة

والبلوغ والعدالة والعلم وكونه واحدا ثم سلامة حاسة السمع والبصر ثم سلامة اللسان)) [1].

ولا يجوز للمرأة حتى اليوم تولي الوظائف ذات السلطات التنفيذية كمنصب العمدة في القرى [2].

وهذا يدل على التناقض الذي يعيش فيه المجتمع العربي الحديث، ففي الوقت الذي يسمح فيها للمرأة أن تصبح وزيرة وتقود وزارة بها الآلاف من الرجال والنساء وتصدر أكبر القرارات وأخطرها، يحرم عليها أن تكون قاضية في محكمة صغيرة تبت في بعض المشاجرات والمنازعات الشخصية، ويحرم عليها أن تكون عمدة في قرية صغيرة تحكم في بعض المشاكل المحدودة.

وهذا يدل على أن هؤلاء الذي يعارضون دخول المرأة العمدية أو القضاء يناقضون أنفسهم، فلم نسمع أن واحدا منهم اعترض على تعيين الوزيرة، هل مسؤوليات

---

(1) جريدة الأخبار، القاهرة، ١٢ يناير ١٩٧٦ تحت عنوان ((جولة في طريق التصحيح)) بقلم أحمد فتحي القاضي.

(2) نصار، حقوق المرأة في التشريع الإسلامي والدولي المقارن، دار النشر والثقافة، الإسكندرية، مصر ١٩٥٧، ص ١٤٧.

الوزير في نظرهم لا تحتاج إلى سلامة العقل والذكورة والعدالة والعلم وسلامة اللسان؟

أو أن قرار تعيين الوزيرة يصدره رئيس الدولة وهم يعتبرون قرار رئيس الدولة أعلى من القرارات المقدسة التي جاء بها الإسلام؟.

وقد ظلت المرأة المصرية العاملة محرومة من أجازة الوضع حتى سنة ١٩٥٩ حتى تضمن قانون العمل في هذا العام بعض الأحكام الخاصة بعمل النساء، وحصلت المرأة على أجازة وضع خمسين يوما بمرتب قدره ٧٠% من مرتبها الأصلي.

وقد حرم هذا القانون اشتغال النساء في بعض الأعمال بحجة أنها ضارة صحيا، وكان هذا التحريم ضد المرأة أكثر مما كان في صالحها، لأن كثيرا من أصحاب الأعمال اتخذوا من هذا البند حجة رفض طلبات النساء للعمل، أو فرضوا عليهن أجورا أقل أو أعمالا أدنى لا تتناسب مع مؤهلاتهن وخاصة في مجال الإنتاج وبالذات القطاع الخاص.

وتحصل الموظفات بالحكومة والقطاع العام على أجور متساوية لزملائهن الرجال لكنهن لا يحصلن على الفرص المتكافئة في الترقية أو التعيين في المناصب الرئاسية أو التدريب على وظائف أعلى.

وفي قانون المعاشات تفرقة واضحة بين المرأة والرجل وقد سمح القانون حاليا للمرأة العاملة أن تجمع بين مرتبها ومعاشها وبين المعاش المستحق من زوجها في حدود ٢٥ جنيها مصريا كحد أقصى [١].

وتنص المادة ١٩ من دستور يناير ١٩٥٦ بأن ((تيسر الدولة للمرأة التوفيق بين عملها في المجتمع وبين واجباتها في الأسرة)). إلا أن الدولة لم تفعل هذا حتى اليوم، ولا تزال الأغلبية من النساء العاملات منسحقات جسدا ونفسا. تحت وطأة العمل خارج البيت وداخله.

إن مصر وغيرها من البلاد العربية لا تزال ترى أن المرأة خلقت أصلا لتلعب دور الأم والزوجة من حيث الخدمة في البيت وتربية الأطفال، ولم يسمح المجتمع العربي للمرأة بالعلم إلا من أجل حاجة اقتصادية ملحة للمجتمع أو

---

(١) قانون المعاشات المصري، رقم ٦٢ لسنة ١٩٧١.

للأسرة فهي تعمل خارج البيت بشرط أن تعود إلـــى البيـــت لتؤدي واجباتها الأساسية والسودان وغيرها قد رفعت بعض شعارات الاشتراكية إلا أن هذه المجتمعات العربية لم تجـــد حلولا لمشاكل النساء العاملات وأولهـــا تـــوفير الإمكانيـــات والمؤسسات في المجتمع التي تحرر المرأة من أعباء الطـــبخ والتنظيف والخدمة وتربية الأطفال.

إن توفير مثل هذه الإمكانيات والمؤسسات لا تمثـــل أهمية أو أولوية عند الحكام أو الساسة العرب، كما أن النساء العربيات العاملات في أي بلد عربي لا يمثلن أية قوة للضغط على هؤلاء الحكام أو الساسة من أجل توفير هذه الإمكانيات. ولا تزال التنظيمات النسائية في البلاد العربية إما مجموعات من نساء الطبقات العليا المنشغلات ببعض الأعمال الخيريـــة السطحية أو أقسام من التنظيمات السياسية المسماة الاتحادات الاشتراكية التي لم تأخذ من الاشتراكية إلا الاسم فقط والتـــي لا يعيش داخلها إلا مجموعة سلبية بيروقراطية من الرجـــال والنساء تتلقى الأوامر من السلطة.

ولا شك أن عمل المرأة العربية بأجر يساعدها على الاستقلال اقتصاديا عن الأب أو الزوج خاصة وأن جـــوهر

الإسلام يعطي المرأة حريتها واستقلالها في شئون أموالها وليس لزوجها أي سلطة على أموالها [1]. ولكن العمل قد يكون نوعا جديدا من استغلال المرأة إذا حدث هذا العمل في مجتمع طبقي لا يساوي بين أفراده أو في ظل أسرة يسيطر فيها الرجل عرفا وقانونا وشرعا على جسد المرأة وعقلها.

وهل يمكن للمرأة المحكومة جسديا، والتي لا تملك حرية التصرف في جسدها، هل يمكنها أن تتصرف بحريتها في أموالها؟ وهل يمكن للمرأة التي تخشى الطلاق في أي لحظة أن ترفض تدخل زوجها في أموالها؟ وهل يمكن للمرأة التي تساق إلى زوجها بالبوليس أن تملك حرية التصرف في مالها وهي عاجزة عن التصرف في حياتها كلها؟.

ولهذا فإن العمل بأجر لم يحرر المرأة العربية بصفة عامة وإنما أضاف إليها أعباء وهموما ومشاكل جديدة.

---

(١) أحمد خيرت، مركز المرأة في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٦. علي عبد الواحد وافي، المرأة في الإسلام، مكتبة غريب، القاهرة سنة ٧١، ص ١٣.

وفي أحد البحوث [1] المصرية أن اشتغال المرأة بأجر لم يؤثر في رئاسة الرجل للأسرة، ولم تباشر المرأة هذه الرئاسة إلا في حالة غياب الزوج، وإن أهم المميزات التي يحققها اشتغال المرأة هو ارتفاع متوسط دخل الأسرة.

وأثبت هذا البحث في نتائجه أن المرأة العاملة تستغل اقتصاديا من جانب الزوج والأسرة وتظل بدون نفوذ أو سلطة وإنما خاضعة تمام لسلطة الرجل.

وقد ظهر من بحث آخر أن ((وجود المرأة في العمل مع الرجال في مكان واحد أدى إلى تغيير الفكرة التقليدية عن المرأة في أنها لا تصلح إلا للمنزل، فقد تبين للرجل من واقع العمل أن المرأة العاملة كفء وتتحمل المسئولية تماما بحيث لا يوجد هناك فرق بين المرأة والرجل فيما يمكن أن يقوم به كل منهما من عمل)) [2].

---

(1) سنية خليل، اشتغال المرأة وأثره في بناء الأسرة ووظائفها ماجستير غير منشورة. جامعة الإسكندرية ١٩٦٣، ص ٥٤٧.

(2) كاميليا عبد الفتاح، سيكولوجية المرأة العاملة، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٧٢، ص ١٨٤.

وهذا يدلنا على أن المرأة العاملة المصرية تبذل من طاقتها الجسدية والنفسية أكثر مما يبذله الرجل لأنهـا تقـوم بأعباء البيت والأطفال وحدها، بالإضافة إلى أنها لا تتمتع لما يتمتع به الرجل من حريات شخصية للترفيه عن نفسه فـي خارج البيت، أو في محيط العمل فما زال جو العمل رجوليا يظهر عداء وكراهية للمرأة التي تقتحمه خاصـة إذا كانـت ذكية ومؤهلة ومنافسة قوية للرجال.

وفي البحث السابق توصلت الباحثة ((إلى أن هناك تبادلا في علاقة العمل بين الجنسين وليس هناك تبـادل فـي العلاقة الخاصة، إذا فالعلاقة عموما بين الجنسـين محاطـة بالقيود)) [١].

وبرغم أن المرأة في بعض الأحيان تسعى إلى العمل بأجر ((مدفوعة في تأكيد ذاتها وتحقيق إمكانياتها والمساهمة في تطوير المجتمع)) [٢] إلا أن ظروف العمل غير المؤهلة لعمل النساء وتقاليد المجتمع والأسرة غير المرحبة باستقلال المرأة عن سيطرة الرجل أو تقصيرها في واجباتها المنزليـة

---

(١) المصدر السابق، ص ١٨٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٢.

كل ذلك لم يسمح للمرأة العاملة في معظم الأحيان أن تجد الفرصة لتحقيق ذاتها أو ممارسة إنسانيتها على نحو أكثر تحررا.

إن العمل لأي فرد كان (رجلا أو امرأة) لا يمكن أن يحقق التحرر المنشود عقلا وجسدا إلا في ظل مجتمع يساوي بين أفراده ويعطي الفرص المتكافئة للجميع حسب القدرة الشخصية والفكرية وليس حسب الانتماء لطبقة أو جنس.

وبالرغم من الازدياد المستمر في أعداد النساء المتعلمات والعاملات بأجر في البلاد العربي إلا أن الغالبية العظمى لا تزال ترزح تحت وطأة الأمية [1]. كما أن التعليم نفسه لا يلعب دورا كبيرا في القضاء على الأفكار البالية والتقاليد التي لا تزال متفشية بين النساء والرجال، وتظل

---

(١) في تعداد ٦٦ في مصر وجد أن جملة عدد النساء (١٠,٥٦٣,٣٥٨) والأميات، منهن عددهن (٨,٣٣٥,٢٩٠) أي نسبة الأمية بين النساء المصريات ٧٨,٩ بالمائة، وفي تعداد ١٩٧٦ انخفضت نسبة الأمية بين الإناث إلى ٧١ بالمائة.

أغلبية المتعلمات والمتعلمين يرزحون تحت وطأة التخلف والخزعبلات التي سمعوها من آبائهم وأجدادهم، والتي لا يزال يرددها كثير من الحكام والساسة العرب بهدف تضليل الشعوب من أجل الاستغلال المستمر.

كما أن معظم الأنظمة في البلاد العربية لا تزال أبعد ما تكون عن الاشتراكية أو العدالة، ولا تزال تتآزر بشكل علني أو خفي مع النظم الاستعمارية العالمية، وهذا كله يستدعي أجهزة أعلام وثقافة سطحية مضللة، كما أن نظم التعليم تظل عتيقة غير متطورة، منفصلة عن واقع المجتمع وحاجاته، معتمدة على حشو الأدمغة بغير فهم ولا ربط بين العلوم، ولا نظرة شاملة تفسر الظواهر والمشاكل التي تعاني منها الأغلبية تفسيرا صادقا أو حقيقيا، ولا مناقشة أو تحليل أو إقناع وإنما هي الطاعة والتلقي السلبي من أجل تخريج جيوش من الموظفين البيروقراطيين المطيعين للرؤساء والسلطة الحاكمة أو الموظفات المطيعات للأزواج والرؤساء.

وقد استطاعت بعض البلاد العربية من خلال ثورات تحريرية شعبية أو عسكرية أن تتخلص من بعض الحكام والأنظمة الاستغلالية الرجعية والاستعمارية القديم والجديد،

إلا أنه كثيرا ما تحدث الانتكاسات، وبعد أن يسير الشعب خطوات نحو الاشتراكية والحرية إذا به يتلقى ضربة جديدة قد تسدد إليه من قوى الاستعمار الخارجي أو قوى الحكم الداخلي أو كليهما معا.

ومن أهم المشاكل التي تزال تعترض المرأة العربية بالنسبة للعمل هو قوانين الزواج المتخلفة التي لا تزال تعطي الزوج حق منع زوجته من العمل أو السفر أو الخروج من البيت حينما يردي، وتقف المجتمعات العربية من المرأة في هذا موقفا متناقضا استغلاليا، ففي الوقت الذي تدفع فيه النساء الكادحات إلى العمل في الحقول والمصانع والمكاتب يتركن تحت رحمة أزواجهن بشأن السماح بهذا العمل حسب رغبة الزوج ومصلحته، وعلى هذا تستغل السناء من جانبين من جانب الدولة ومن جانب الزوج معا.

ونظرا لشدة حاجة الدول العربية (وبالذات الدول التي تحتاج إلى سواعد النساء في الحقول والمصانع والمكاتب) إلى عمل النساء فقد ترددت هذه الدول في إعطاء الزوج السلطة الكاملة لمنع زوجته من العمل، فلو نفذ الأزواج هذا الحق ومنعوا زوجاتهم من العمل لانهار

الاقتصاد في تلك الدول بسبب احتمال بقاء الفلاحات والعاملات والموظفات في بيوتهن، ومن هنا ذلك التناقض الواضح الذي نجده في قوانين العمل وقوانين الزوج في معظم المجتمعات العربية.

إن قوانين العمل في كثير من الدول العربية مصر وسوريا والعراق وغيرها تسمح للمرأة بالعمل على حين أن قوانين الأحوال الشخصية حتى اليوم تعطي الزوج سلطة منع زوجته من العمل ومن السفر ومن الخروج من البيت إذا أراد.

ويتعارض موقف الدول العربية من عمل المرأة وميثاق حقوق الإنسان الذي ينص على حق العمل كأحد الحقوق الأساسية للإنسان ويتعارض أيضا وجميع الشرائع السماوية وغير السماوية التي نصت على حق العمل وتضمنت حثا على العمل وتكريما للعمل، ويتعارض أيضا وما تعلنه هذه الدول العربية في المحافل الدولية وغير الدولية من أن المرأة العربية تحررت ونالت حقوقها.

وتتناقض الدول العربية مع نفسها ومع قراراتها في هذا الشأن. فقد شكلت هذه الدول لجنة خاصة بمركز المرأة

العربية في قوانين الأحوال الشخصية وعقدت هذه اللجنة في جامعة الدول العربية وكان من أهم قراراتها هـذا الـنص: ((أن يكون للزوجة حقها الكامل في العمل ما لـم يشـترط الزوج في عقد الزواج خلاف ذلك، ومع هذا فللزوجة رغـم قيام هذا الشرط أن تلجأ إلى القاضي ليأذن لها بالعمل إذا جد من الظروف ما يقتضي ذلك)).. ورغم ضعف هذا الـنص من حيث عدم إطلاق الحرية الكاملة للزوجة لأن تعمل بغير قيد أو شرط إلا أن قوانين الأحوال الشخصية لم تتغير لتشمل هذا التطوير في معظم البلاد العربية، حتى تلك البلاد التـي سارت في طريق الاشتراكية. ففي سوريا مـا زال الاتحـاد العام النسائي يطالب للمرأة السورية بالحق للعمـل خـارج المنزل وألا تسقط حضانتها لأولادها إذا عملت [1].

وما زال قانون الأحوال الشخصية المصري يعطـي للزوج سلطة منع زوجته من العمل إذا أراد، وفي المشروع

---

(1) الاتحاد العام النسائي، المرأة العربية في القطر العربـي السوري، المطبعة والجريدة الرسمية ١٩٧٤، ص ٢٨.

الجديد [١] الذي لم يصبح قانونا بعد، والذي اشتمل على تعديلات طفيفة لا تمس جوهر سلطة الرجل على زوجته، ورد نص جديد خاص بعمل المرأة يقول إن من حق الزوج أن يمنع زوجته من العمل إلا إذا اشترطت هي في عقد الزواج على العمل، وفي هذه الحالة ليس من حق الزوج أن يمنع زوجته من العمل إلا إذا طرأ ذلك ما يجعل الشرط منافيا لمصلحة الأسرة.

ومن هنا يتضح لنا كيف تتردد الدول العربية في إعطاء الزوجة حق العمل الذي منح لها بصفتها إنسانية في جميع المواثيق والشرائع واللجان والدول بما فيها جامعة الدول العربية وكلنا يعرف كيف يستغل الأزواج حقوقهم، وكيف يتحايل الزوج باسم مصلحة الأسرة والأطفال على سلب حقوق المرأة، وهو في الحقيقة يعمل لصالحه وحده ضد مصلحة الأطفال بل مصلحة المجتمع، وكم من زوج يستغل حقه في حرمان حقه في حرمان زوجته من العلم أو دفعها إلى العمل واستغلال أجرها وتسخيرها خارج البيت وداخله.

---

(١) نشر هذا المشروع الجديد في جريدة الأهرام، القاهرة، ٢٩ فبراير ١٩٧١.

ومن أهم الأسباب التي تدعو الزوج إلى منع زوجته من العمل هو رغبته في إخضاعها وحرمانها من أجرها الذي قد يحقق لها نوعا من الاستقلال الاقتصادي فتستطيع أن تشعر بكيانها وكرامتها وترفض إهانته لها أو ضربه لها أو عربدته مع النساء أو زواجه من امرأة أخرى أو على الأقل ترفض الفارغ والخمول في البيت بغير عمل منتج يشعرها بكرامتها الإنسانية.

وكثيرا ما قرأنا عن هؤلاء الأزواج الذين يتلاعبون بزوجاتهم من أجل استغلالهن أو إخضاعهن، ولعل آخر ما قرأته في هذا الشأن ما نشر في جريدة أخبار اليوم تحت عنوان ((إنذار من الزوج لزوجته: اتركي الوظيفة فورا. والمحكمة تقول: العاملة بدون إذن زوجها ناشز)) [1]. وملخص القصة أن إحدى الفتيات زوجها أبوها بعد أن حصلت على الثانوية العامة ولم يكمل لها تعليمها كي يزوجها، وعاشت الزوجة مع زوجها عشر سنوات ثم شعرت بالفراغ فبحثت عن عمل واستطاعت الحصول على وظيفة، لكن الزوج اعترض وطلب منها أن تترك العمل فورا لأن

([1]) جريد أخبار اليوم، القاهرة، ٢٦ يوليو ١٩٧٥، ص ١٠.

الزوجة التي تخرج للعمل بغير إذن زوجها تعتبـــر ناشـــزا وأيدت المحكمة قول المحامي وقررت أن الزوجة ناشز لأنها تعمل بغير إذن زوجها.

أما ذلك النص الخاص بأن مـــن حـــق الزوجـــة أن تشترط على زوجها قبل الزواج بأن يكون لها عمل خـــارج البيت فهو نص لا ينفع إلا القلة النادرة من النساء المستقلات اقتصاديا ونفسيا وأخلاقيا عن المجتمع والأسرة وهـــو أمـــر تعجز عنه الأغلبية الساحقة من البنات قبـــل الـــزواج حتـــى هؤلاء اللائي حظين بالتعليم أو العمل بـــأجر نظـــرا لتقاليـــد المجتمع والأسرة. ويشبه هذا النص إلى حد كبير ذلك النص القديم في القانون في قانون الزواج الذي يعطي الزوجة الحق في الطلاق وذلك باشتراط هذا الحق في عقد الزواج قبل أن تتزوج، (أي أن تأخذ العصمة بيدها) ورغم أن هذا الحق لا يلغي حق الزوج قبل في تطليق زوجته حين يشاء وكل مـــا يفعله هذا النص هو إعطاء الزوجة مثل هذا الحق إلا أن قلة نادرة من النساء استطاعت أن تستخدم هذا الحق، فإن التقاليد العربية كانت ولا تزال تنظر بازدراء الرجل الـــذي يتـــزوج امرأة تأخذ العصمة بيدها، أو تشرط عليه قبل الـــزواج، أن

العكس هو الصحيح دائما، فوضع الرجل المتقدم للزواج هو الأعلى، وهو المرغوب والمنشود بل والمطارد ولذلك فهو الذي يضع الشروط قبل الزواج وليست البنت الصغيرة التي يفرض عليها الزواج بواسطة الأب أو الأسرة وليس لها أن تختار زوجها في معظم الأحيان، فما بال أن تشرط عليه الشرط قبل الزواج.

هذا ولا يزال عمل الزوجة خارج البيت في نظر كثير من الرجال العرب إهانة لرجولة الرجل، إذ تقتضي الرجولة، وعلى الأخص الرجل ((النزق)) أن يكون قادرا على إعالة زوجته وعدم السماح لها بالاختلاط بالرجال في المكاتب أو الشوارع أو المواصلات العامة، وقد تغلب الرجل العربي المثقف المتحرر على هذه العقدة، لكن معظم الرجال ما زالوا أسرى لهذه الفكرة وقد يضطر الواحد منهم إلى تشغيل زوجته خارج البيت لحاجة اقتصادية ملحة، لكنه يظل يعاني نفسيا من قدرته على إعالة الأسرة وحماية زوجته داخل البيت، بل إن الزوجة نفسها قد تشعر بازدراء لزوجها بأنه يشغلها، أو تتباهي بأن زوجها لا يسمح لها بالخروج للعمل، إلا أن الحاجة الاقتصادية في السنين الأخيرة قد أجبرت الشباب العرب اليوم على تفضيل الزوجة العاملة بأجر لتساعده على النفقات.

عمل المرأة داخل البيت

هناك فئة كبيرة من النساء المضطهدات في قــانون العمل وهن النساء العاملات داخل البيت، ويطلــق علــيهن ((ربات البيوت)).

إن عمل المرأة داخل البيت غيــر منظــور وغيــر معترف به ضمن أعمال الإنتاج في المجتمع، ونحن لا نطلق على المرأة التي تعمل في البيت اسم امرأة عاملــة مــع أن عمل المرأة في البيت عمل إنتاجي مائة في المائة، لكنه عمل بغير أجر، وبغير مقاييس اقتصادية واجتماعية، في حــين أن عمل المرأة داخل البيت يبدأ أول النهار وينتهي في أخره، أي إنه بمقاييس العمل يزيد عن أي معدل لأي عمل آخر خارج البيت، (هذا باستثناء النساء العاطلات في البيوت من الطبقة القادرة على استئجار الخدم والطباخين ومربيــات الأطفــال وهن يمثلن فئة صغيرة من المجتمع العربي بصفة عامة).

وعمل المرأة داخل البيت أيضا يشتمل علــى عــدة وظائف وعدة تخصصات، فهي تقوم بوظيفة الطباخ والخــام والممرضة والمرضعة والغسالة والنادلة ومربيــة الأطفــال

والمدرسة والمرفهة النفسية والمواسية والمشجعة والمشبعة جنسيا والمنفسة عن غضب الزوج أو فشله أو توتره أو إحباطه.

تقوم المرأة داخل البيت بجميع هذه الوظائف بغير أجر، وبغير أن يعترف بعملها ضمن الأعمال الإنتاجية في المجتمع، أي أن المرأة العاملة داخل البيت مستغلة اقتصاديا وإنسانيا، لأن الإنتاج هو الذي أعطى البشر صفة الإنسانية، فالفرق بين الإنسان والحيوان هو والإنتاج. وقد توصل الإنسان للإنتاج لأنه هو وحده دون سائر الحيوانات الذي اكتشف الأدوات أي وسائل الإنتاج.

الإنتاج إذن عمل خاص بالإنسان وحده، أما الاستهلاك فتقوم به جميع المخلوقات والكائنات.

إن سلب إنتاجية المرأة العاملة في البيت سلب لإنسانيتها، وإن سلب أجرها وفرض هذا العمل عليها بغير أجر إنما هو سلب لحقوقها الاقتصادية الأساسية، كما أن فرض هذا العمل عليها يحرمها من حرية اختيار عمل آخر، والمفروض أن الإنسان هو الذي يختار عمله لا أن يفرض عليه لأنه ولد أنثى، وإن وظيفة تنظيف البيت يجب ألا

تفرض على المرأة لمجرد أنها أنثى، كما أن وظيفة تنظيف الأحذية يجب ألا تفرض على الزنجي لمجرد أنه ولد أسود اللون.

وعلى هذا فإن الاضطهاد الواقع على المرأة العاملة في البيت اضطهاد مضاعف ثلاث مرات كالآتي:-

١ - حرمانها من شرف الإنتاج كإنسان وتجاهل عملها بمقاييس العمل المنتج.

٢- حرمانها من الأجر.

٣- فرض عمل البيت عليها والخدمة فيه لمجرد أنها أنثى.

ويمكن لنا أن نتصور الأموال التي توفرها أي دولة بتسخير النساء في العمل داخل البيوت بغير أجر، حين ندرك النفقات الباهظة والتي تتطلبها هذه الوظائف في المجتمعات الاشتراكية التي حاولت أن تحرر نساءها العاملات خارج البيوت من الأعمال المنزلية وخدمة الأطفال، إلى الحد الذي جعل معظم البلاد الاشتراكية عاجزة عن تحرير الأغلبية من نسائها من هذه الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال، إن الاتحاد السوفييتي مثلا لم يوفر من دور الحضانة إلا ٢٥% فقط مما

يمكن أن يكفي أطفال الأمهات العاملات، وألمانيا الشرقية لم توفر إلا ٣٠% فقط.

أما في المجتمعات الرأسمالية مثل الولايات المتحدة فإن النسبة لا تزيد عن ٣% رغم ثراء المجتمع النسبي.

لكن المجتمع الرأسمالي قائم أساسا على الربح ومضاعفة رأس المال، ومثل هذه الخدمات الضرورية للنساء العاملات لا تمثل للمجتمع الرأسمالي ضرورة فهي مصاريف ونفقات باهظة بغير عائد مباشر.

ويتجاهل المجتمع الرأسمالي العائد من وراء عمل النساء في البيوت، إذ لولا عمل النساء في البيوت لانهار الاقتصاد الرأسمالي، فكيف يعمل العامل إذا لم تكن له امرأة في البيت تطعمه وتغسل ملابسه وتربي أطفاله، وكيف يدبر المجتمع الرأسمالي الأيدي العاملة الجديدة إذا امتنعت النساء عن ولادة الأطفال أو عن رعايتهم؟.

ومن هنا ذعر المجتمع الرأسمالي من قوة النساء الصاعدة الجديدة التي قد تفرض على المجتمع شروطا جديدة للعمل في البيت وتطالب بأجر عن عمل البيت وعن الحمل والولادة والرضاعة أو أن تثور النساء ضد كل هذه الوظائف

المفروضة، وترفض الزواج والحمل وتسعى إلى منع الحمل والإجهاض وهذه كلها حقوق مسلوبة من النساء لأن النساء لم يمثلن في يوم من الأيام قوة ضاغطة على أي نظام أو حكم.

وبرغم أن الاشتراكية سعت إلى تحرير المرأة وذلك بأن تعمل المرأة مثل الرجل وتتقاضى أجرا مساويا له عن العمل نفسه، إلا أن الاشتراكية دفعت أعداد متزايدة من النساء للعمل دون أن تحررهن من عمل البيت ورعاية الأطفال إلا بنسب صغيرة.

كما أن النظرية الاشتراكية الخاصة بفائض القيمة لم يطبقها الاشتراكيون على الإنتاج داخل البيت وإنما طبقت هذه النظرية على الإنتاج في المجتمع، ولذلك تم الكشف الواضح عن مدى الربح الذي يجنيه الرأسماليون من وراء عمل النساء في البيوت.

وفي مجتمعاتنا العربية لا تزال معظم النساء مسخرات للعمل داخل البيت بالمجان، ودون الاعتراف بدورهن الهام في الاقتصاد والإنتاج. أما النساء العاملات خارج البيت فإنهن يجمعن بين العملين داخل البيت وخارجه في معظم الأحيان مما يسبب الإرهاق الجسدي والنفسي

لمعظم الأمهات العاملات بالإضافة إلى مشاكل الأطفال الذين تركوا بغير رعاية الأم أو الأب وبغير رعاية الدولة.

ولا يمكن للنساء العربيات أن يعالجن مشاكلهن وهن أفراد متفرقات، إن الذي عطل حصول النساء على حقـوقهن هو إنهن لم يكن أبدا مجموعة قوية متماسكة، ولم يكن لهـن في أي مجتمع حزب سياسي يناضل مـن أجـل تحريـرهن ويفرض شروطهن بالاقتناع والمنطق أو الإضراب والضغط فبغير القوة الضاغطة الاجتماعية والسياسـية لا يمكـن لأي مجموعة من البشر أن تنال حقوقها في ظل أي نظام أو حكم.

إن المهام الملحة المطلوبة من حزب النساء السياسي مثلا هي وضع خريطة جديدة لقوة العمل النسـائية المنتجـة بحيث تضم الفلاحات وربات البيوت، إن إحصاءاتنا الرسمية تقول إن قوة العمل النسائية هي ٩,٢% فقط، وهي لا تحسب الفلاحات ضمن هؤلاء وإنما تحسب النساء العاملات بـأجر فقط، لكن الفلاحة المصرية منتجة مائة فـي المائـة لكنهـا محرومة من الأجر ومحرومة أيضا من شرف الدخول فـي قوة العمل المنتجة لمجرد أنها لا تتقاضى أجرا.

وإني أتصور أن من المهام المطلوبة أيضا من حزب النساء السياسي هو موضع مقاييس لعمل المرأة في البيت حسب مقاييس العمل والإنتاج في المجتمع، بحيث يصبح عمل ربة البيت ضمن أعمال الإنتاج في المجتمع، بمعنى آخر إعطاء صفة الإنتاجية الاقتصادية لربات البيوت، فذلك يمنحهن الشرف الإنساني كأعضاء منتجات في المجتمع (وليس مستهلكات فقط) بالإضافة إلى الحصول على أجر مساو لما يحصل عليه شخص آخر يقول بالعمل نفسه.

ومن مهام الحزب أيضا تحرير النساء المشتغلات خارج البيت من العمل في البيوت وذلك بأن توفر الدولة المطابخ والمغاسل ودور الحضانة، وبأن يكون لتوفير هذه الدور والمؤسسات أولوية في ميزانية الدولة؛ لأن عدم توفيرها يسبب المشاكل والأزمات العديدة للنساء والأطفال بل والرجال أيضا.

والذين يقولون إن هذه المشاكل يمكن أن تحل بعودة المرأة إلى البيت لا يدرسون الواقع دراسة علمية موضوعية، لأنهم لو فعلوا ذلك لوجدوا أن الذي يدفع الأغلبية الساحقة من النساء العاملات في الحقول والمصانع والمكاتب هو الحاجة

الاقتصادية للمجتمع والحاجة الاقتصادية للأسرة. إن أغلبية نساء مصر مثلا فلاحات يخرجن إلى العمل كل يوم منذ آلاف السنين، ولولا خروج الفلاحة المصرية من دارها لما وجدنا الخبز الذي نأكله ولا الملابس التي نلبسها. إن الفلاحة المصرية عاملة منتجة مائة في المائة، ولا تكاد تستهلك شيئا وإن أغلبية النساء العاملات في غير الزراعة عاملات كادحات في المصانع أو الخدمات أو المهن الضرورية وكلهن يعملن من أجل توفير القوت الضروري لأسرهن وأطفالهن.

وإن نسبة ضئيلة جدا من جملة النساء اللائي يخرجن للعمل لأسباب غير اقتصادية ضرورية، وحتى بالنسبة لهذه الفئة القليلة فإن أسباب العمل ضرورية وإنسانية.

فمن قال إن الهدف الوحيد من العمل في حياة الإنسان هو الحصول على القوت الضروري؟ إن الإنسان العاطل بغير عمل يفقد مع فقدان العمل إنسانيته وشرفه بسواء.

وقد كتب أحد كتابنا وهو توفيق الحكيم يقول: إن الرجل إنتاج والمرأة استهلاك وهذه هو التقسيم الاقتصادي

في الفكر الرأسمالي الذي يحرم المرأة شرف الإنتــاج رغــم إنها منتجة مائة في المائة، فإن أغلبية النساء فلاحات منتجات مائة في المائة وأغلبية العاملات فــي المصــانع والمكاتــب منتجات، والنساء العاملات في البيوت فقط منتجات أيضــا، وإنتاج المرأة العاملة أكثر من إنتاج الرجل لأنها تعمل فــي وظيفتين داخل البيت وخارجه، أما المرأة المستهلكة فهــي لا تمثل إلا نسبة ضئيلة جدا من المجتمع واستهلاك الرجل فــي هذه الفئة مثل استهلاك المرأة وأكثر.

المرأة العربية والاشتراكية

ليس من السهل على أحد أن ينكر الدور الهام الـــذي لعبه المفكرون الاشتراكيون في كشف الأسباب الحقيقية التي دعت إلى اضطهاد المرأة في تاريخ البشــرية، ولــيس مـــن الصعب على أي دارس أن يلحظ العلاقة الوثيقة بين درجـــة تحرير النساء وبين درجة تحول المجتمع إلـــى الاشـــتراكية، كلما زادت درجة تحول المجتمع إلى الاشتراكية الحقيقية زاد تحرر النساء بالمعنى الحقيقـــي للتحـــرر، أعنـــي التحـــرر الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي.. أي أن تكـــون المـــرأة مستقلة اقتصاديا، لها عمله الذي تختاره والذي تأخـــذ عنـــه أجرا مساويا لأجر الرجل، ولها جسدها الذي تملـــك حريتـــه بالكامل فتحمل حين تريد وتجهض نفسها حين تريد، وتمـــنح اسمها لطفلها حين تريد، وتختار شكل العلاقة الشخصية بينها وبين الرجل، وتتزوج حين تريد وترفض الزواج حين تريد، وتتحرر من أعباء عمل البيت وتربية الأطفال حـــين تريـــد، تفعل كل ذلك باختيارها وإرادتها وهي تتمتع بكامل كرامتهـــا وشرفها في المجتمع.

إن هذه الحريات والحقوق الأساسية لأي إنسان لن تستردها المرأة إلا في ظل مجتمع نجح في التخلص من النظم الطبقية والأبوية معا، وهو أمر لم يحدث بعد في أي مجتمع اشتراكي. إن المجتمع الروسي حتى اليوم لم يحقق للأغلبية من نسائه هذه الحريات والحقوق الأساسية مع أنه أول مجتمع في العالم حدثت فيه الثورة الاشتراكية. فقد كانت أفكار إنجلز الاشتراكية لا تزال تدوي، وقد كشف عن العلاقة الوثيقة بين الاضطهاد الجنسي والاضطهاد الاقتصادي، وأوضح أن أول اضطهاد طبقي حدث في التاريخ هو اضطهاد الرجل للمرأة، وأن الاضطهاد الذي وقع على المرأة كان مضاعفا، فالرجل العامل يعاني من اضطهاد صاحب العمل أما المرأة فتعاني من اضطهاد صاحب العمل واضطهاد زوجها، وأوضح أن غاية الاشتراكية هي تحرير العامل (الصناعي أو الزراعي) وتحرير المرأة، وأكد أن تحرير المرأة لا يتم ميكانيكيا بعد تحرير العمال والفلاحين، أو بعد التحرير الاقتصادي، لكن التحرير الاقتصادي شرط ضروري لحدوث التحرير الإنساني، وبغير التحرير الإنساني يتحول الإنسان إلى أداة للعمل فحسب.

إلا أن الفكر الستاليني الجامد اتهم إنجلز بأنه بالغ في تقدير أهمية تحرير المرأة والتحرير الإنساني وسرعان ما تقهقرت قضية المرأة إلى الوراء. وسلب منها كثيرا من الحقوق التي حصلت عليها في بداية الثورة الروسية، وأعادها حكم ستالين إلى حظيرة الأسرة الأبوية والخضوع لسيطرة الرجل داخل الأسرة، وأهملت مشاكل النساء العاملات ولم تتحمس الدولة لتوفير الإمكانيات التي تسهل لهن الجمع بين العمل خارج البيت وداخله، وفرضت القيود من جديد على الطلاق وعلى الإجهاض وعلى الطفل غير الشرعي، وانحصرت الاشتراكية داخل المفهوم الضيق المتعلق بالتحرير الاقتصادي، لكن التحرير الاقتصادي وحده بغير تحرير إنساني وفي ظل حكم سلطوي أبوي لا يقود إلا إلى تحويل الرجل إلى أداة للعمل في المصنع، وتتحول المرأة إلى أداة للعمل في المصنع وفي البيت أيضا، وهذا هو ما حدث للمرأة والرجل الروسي في عهد ستالين.

وبالرغم من إنهاء حكم ستالين ١٩٥٣ وتجاوز المجتمع السوفيتي للمرحلة الستالينية الجامدة وتحقيقه للمزيد من حريات وحقوقا المرأة إلا أنني لا أستطيع أن أقول إن

أغلبية نساء الاتحاد السوفيتي قد تحررن تحررا كاملا، ويكفي أن نعلم أن ٧٠ – ٧٥% من النساء العاملات الروسيات ما زلن يجمعن بين العمل خارج البيت وداخله لأن الدولة لم تنشئ من دور الحضانة إلا ما يكفي ٢٥ – ٣١% فقط من الأطفال [1] (وهذه النسبة في الولايات المتحدة ٣% فقط) وفي ألمانيا الشرقية تبلغ هذه النسبة ٣٠%.

وإذا عرفنا القيود التي لا تزال تعانيها المرأة داخل الأسرة الأبوية وقيود الإجهاد والعار الذي ما زال يطارد الأم غير المتزوجة أو الطفل غير الحاصل على اسم أبيه، هذه القيود التي ما زال معظمها يعيش في المجتمعات الاشتراكية، في روسيا وألمانيا الشرقية والصين وغيرها، أدركنا أن استقلال المرأة الاقتصادي (عن طريق العمل بأجر مساو لأجر الرجل) لا يكفي لتحرير المرأة تحريرا حقيقيا.

إلا أن القليل أفضل من لا شيء، ووضع المرأة في هذه المجتمعات الاشتراكية أفضل بكثير من وضعها في البلاد الرأسمالية، ويكفي أن ندرك أن حركة تحرير النساء

---

(١) Feminism and Socinlism. The Family: by Dianne Feely p. ٨٥ (Psth Finder Press. N. R. ١٩٧٢).

في أمريكا لا تزال تطالب ضمن ما تطالب به بـأجر لعمـل المرأة مساو لأجر الرجل، وبفرص متساوية للنساء في التعليم العالي وفي الأعمال الهامة والمجالات الإنتاجيـة، وبتـوفير دور الحضانة لأطفال النساء العاملات بأجور بسيطة تتناسب ودخولهن، واستقلال المرأة باسمها وأموالها داخـل الـزواج والكف عن استخدام المـرأة كـأداة جـنس فـي التجـارة والإعلانات وحوانيت الجنس، وتحرير المومسات.

إن انخفاض مكانة المرأة في المجتمعات الرأسـمالية رغم تقدمها العلمي والتكنولوجي وثرائها النسبي يجعلنا ندرك أن الطريق نحو الاشتراكية هو الطريق نحو تحرير المـرأة وتحرير الرجال أيضا، لأن الرجل بسلبه إنسانية المرأة يسلب إنسانيته هو أيضا، وبالمثل الإقطاعي أو الرأسـمالي الـذي يسلب إنسانية العامل إن الشخص الذي يستعبد شخصا آخر لا يمكن أن يكون حرا، فالسيد والعبد كلاهما مسلوب الإنسـانية والحرية.

لكن كثيرا من الحكام الاشتراكيين أساءوا فهم هـذه المعاني الجوهرية، وفصلوا قضية تحرير المرأة عن قضـية تحرير العمال والفلاحـين، وتصـوروا أن إلغـاء الملكيـة

وقرارات التأميم ستؤدي تلقائيا إلى تحرير الإنسان أو تحرير المرأة، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه معظم الحكام العرب الذين رفعوا شعارات الاشتراكية والتأميم في بعض البلاد العربية.

ولعل أهم ما حققته الثورة المصرية ١٩٥٢ هو قراراتها الاشتراكية الخاصة بتحديد الملكية والقضاء على الإقطاع وتأميم البنوك والشركات الكبرى، ثم الميثاق الوطني في ٢١ مايو ٦٢ الذي اشتمل على هذا النص ((ضرورة إسقاط بقايا الأغلال التي تعوق حركة المرأة الحرة حتى تستطيع أن تشارك بعمق وإيجابية في صنع الحياة)).

وبرغم تزايد أعداد البنات والنساء في المدارس والجامعات والعمل في المجتمع إلا أن الأغلال بقيت حول الأغلبية الساحقة من النساء المصريات. وفي بعض البلاد العربية رفع المجتمع شعارات الاشتراكية ونصت مواثيقهم على نصوص مشابهة للنص المصري من حيث إسقاط الأغلال التي تعرقل حركة المرأة وعلمها في المجتمع الاشتراكي إلا أن الأغلبية من النساء العربيات في هذه البلاد لم يتحررن كما يجب، وكان المفروض أن تصدر هذه

الحكومات مع قراراتها الاقتصادية والاشـتراكية قـرارات جديدة لعلاقة الرجل والمرأة تلغي سـيطرة الرجـل داخـل الأسرة وتعطي المرأة من الحريات الشخصـية والأخلاقيـة والاجتماعية والاقتصادية ما تعطيه للرجل.

لكن ذلك لم يحدث في أي مجتمع عربي حتى اليوم، وهناك بعض البلاد العربية التي قيدت حريـة الرجـل فـي الطلاق، ومنعت تعدد الزوجات إلا أن قانون الزواج والطلاق والنسب والإرث والولاية مازال يعطي الرجل السيادة علـى المرأة في معظم هذه البلاد.

وقد حصلت المرأة العربية على حقوق جديـدة فـي المجتمع والأسرة بحكم ازدياد وعيها أو تعليمها أو مساهمتها في الإنفاق كصاحبة عمل بأجر إلا أن الأغلبية الساحقة مـا زلن أميات كادحات يجمعن بـين العملـين داخـل البيـت وخارجه، ويخضعن بحكم الطاعة لقوانين الزواج والطـلاق، محكومات في حياتهن داخل الأسرة وخارجها بالتقاليد العتيقة والقيم الأخلاقية المزدوجة التي تدين المرأة وحدها، وتتحمل البنات والنساء سوء العلاقة الزوجيـة، وفوضـى الرجـال الجنسية، وتعدد الزوجات، والطلاق بغيـر سـبب ومآسـي

العذرية والشرف والختان، والخوف من الحمل داخل الزواج وخارجه، ومشاكل الإجهاض غير القانوني، وعبء تحديد النسل يقع على كاهل النساء وحدهن.

ولا شك أن مشاكل المرأة العربية تختلف باختلاف طبقتها الاجتماعية، وتزيد المآسي والمشاكل كلما هبطت المرأة في السلم الاجتماعي، إلا أن هناك مأساة مشتركة تشترك فيها جميع النساء من كل الطبقات وهي مأساة الزواج والطلاق، إذ بمجرد أن تتزوج المرأة تصبح خاضعة لذلك القانون الذي يطلق عليه اسم قانون الأحوال الشخصية.

وفي بلد كمصر لم ينل قانون الأحوال الشخصية الاهتمام الكافي من رجال السياسة أو الحكم.

الزواج والطلاق في المجتمعات العربية

ظل قانون الزواج والطلاق في مجتمعاتنا العربية من الأمور الثانوية التي تترك لموظفي الشـئون الاجتماعيـة أو بعض الجمعيات النسائية. بل إن بعض القيادات النسائية التي وصلت إلى مقاعد البرلمان أو الحكم كانت تبتعد عن مناقشة هذا القانون حتى لا تـتهم بأنهـا ضـيقة الأفـق محـدودة الاهتمامات بما هو نسائي. وظل رجال السياسة بمـن فـيهم الاشتراكيون ينظرون باستخفاف إلى قضية تحرير المرأة أو تغيير قانون الأحوال الشخصية. أنهم يظنـون أن الأحـوال الشخصية للمرأة والرجل لا علاقة لها بالسياسة العليا التـي تشغلها القضايا الكبرى، وترى الواحد مـنهم منهمكـا فـي اجتماع انتخابي داخل الاتحاد الاشتراكي أو في إحدى قاعات البرلمان أو في إحدى حفلات السفارات والسلك السياسي.

إن السياسة العليا لأي بلد لا تجرى في هذه القاعات والردهات والحفلات الدبلوماسية وإنما هي تجرى في حيـاة الناس الصغير اليومية، في خروج الفلاح إلى عمله صـباح كل يوم بعد أن يبول بغير ألـم أو دم (مـرض البلهارسـيا

يستنزف دم الفلاحين المصري كل يوم ويستنزف الدخل القومي بما يصل إلى ٧٠%)، في تناول العامل كل صباح قطعة من الجبن أو بعض الفول المدمس يساعده على مواصلة الوقوف أمام الآلة، في خروج الفلاحة إلى الحقل دون أن يضربها زوجها حتى تصبح كسيحة، في ركوب الموظفة الأوتوبيس دون أن يدفعها أحد من الخلف، في امتناع الزوجة عن ممارسة الجنس مع زوجها إذا كانت متعبة أو مريضة، في رعاية الأب لأطفاله وعدم الهروب منهم إلى زوجة ثانية أو عشيقة جديدة.. الخ.

إن هذه الأمور الشخصية والخاصة جدا والصغيرة جدا كالأكل والتبول وممارسة الجنس والخروج كل صباح وركوب الأوتوبيس التي تحدث في حياة الرجال والنساء اليومية هي التي تصنع الدولة وهي التي تصنع السياسة العليا في أي دولة، ولا يمكن

لمن يهتم بالسياسة العليا في أي دولة أن يهمل هذه الأمور الشخصية الصغيرة جدا. لا يمكن للفلاح أن يعمل وينتج إذا أصيب بألم ونزف دموي في كل مرة يذهب فيها إلى دورة المياه (البلهارسيا). ولا يمكن للعالمة أو للعامل أن يواصل

العمر من غير أن يرضي رغبته الجنسية، ولا يمكن للزوجة أن تنتج في المجتمع وهي مضطهدة عاطفيا وجنسيا. بمعنى آخر لا يمكن للبشر أن يعملوا وينتجوا بغير أن يفكروا ويشعروا ويمارسوا الجنس. ولا يمكن لهم أيضا أن يفكروا ويشعروا دون أن تكون هناك نتائج اقتصادية. لذلك لا يمكن بحال من الأحوال فصل حياة الناس العاطفية والجنسية عن الحياة الاقتصادية. إن أي فصل بينهما يقود إلى فكر ناقص سطحي ومشوه. إن الذي صنع تاريخ الإنسان ليست هي العلاقات الاقتصادية وحدها كما يؤمن بعض الاشتراكيين وليست العلاقات الجنسية أو الغريزة الجنسية كما يؤمن بعض الفرويديين ولكن الذي صنع التاريخ هما الاثنان معا في وحدة واحدة وفي مستوى واحد كما أثبت التاريخ.

لهذا فإن الاهتمام بقانون الأحوال الشخصية وبقضية مساواة المرأة لا يقلل من قيمة الرجل السياسي الاشتراكي، بل إن الرجل الاشتراكي الحقيقي يعرف من موقفه إزاء قضية المرأة وبقدر ما يكون الرجل اشتراكيا وبقدر ما يكون الرجل إنسانا بقدر ما يكون اهتمامه بقضية المرأة.

وتستقي قوانين الزواج والطلاق في البلاد العربيــة أسسها من الشريعة الإسلامية هذه الشريعة التي ترتكز أساسا على القرآن وأحاديث الرسول محمد وتفسيرات علماء الــدين الإسلامي لهذه الأحاديث والآيات القرآنية.

ولأن أحاديث وآيات القرآن لم تصدر كلها في يــوم وليلة وإنما صدرت في ظروف ومناسبات متعددة ومختلف، ومن أجل أن تتناسب مع المجتمع العربي في زمن معين، كل ذلك جعل هذه الأحاديث والآيات تشتمل أحيانا على أوامــر متناقضة وبالذات فيما يختص بحياة المرأة.

وتنص الشريعة الإسلامية على قطع يد السارق، لكن قانون العقوبات في البلاد العربية ومنها مصر لا ينفذ هــذه الشريعة وإنما وضع قوانين أخرى لعقاب الســارق. والــذي يدرس تاريخ البلاد العربية يدرك أن السلطة السياسية في أي بلد استطاعت في كل وقت أن تضع من القوانين ما يخــالف الشريعة الإسلامية، ولم يكن في مقدور أي مؤسسة دينية أن تمنع صدور هذه القوانين، بل كثيرا ما كانت تتعــاون مــع السلطة السياسية وتطوع الدين للسياسة وتستخرج من الآيات أو من الشريعة تفسيرات جديدة تتمشى مع رغبــة الحكــام.

وكما طورت الكنيسة نفسها في أوروبا لتساير العصر الحديث فقد تطورت المؤسسات الإسلامية ومشايخها أفكارهم وتفسيراتهم لتساير العصر الحديث.

وبقدر ما أسرعت السلطة السياسية في تغيير قوانين الدين لتناسب النظم الاقتصادية المتغيرة من الإقطاعية إلى الرأسمالية إلى الاشتراكية بقدر ما تلكأت في تغيير القوانين الدينية المتعقلة بالزواج وحياة المرأة. والسبب في ذلك واضح، وهو أن السلطة السياسية في كل زمان ومكان لا تعبر إلا عن مصالحها ولم تكن هذه السلطة في معظم البلاد العربية وغير العربية إلا سلطة أبوية قائمة على سلطة الرجال داخل الأسرة وفي المجتمع الخارجي.

وهذا هو السبب في أن أغلبية نساء أوروبا وأميركا حتى اليوم يفقدن أسماءهن بعد الزواج،وتحمل المرأة منهن اسم زوجها. بل إن كثيرات منهن حتى اليوم لا يملكن حرية التصرف في أموالهن إلا بإذن من الزوج. إن الزوجات العربيات أكثر حظا من الأوروبيات والأميركيات في هذين المجالين، إذ تحتفظ الزوجة العربية باسمها بعد الزواج ولا تحمل اسم زوجها، كما أن لها حرية التصرف في أموالها

بغير إذن الزوج. وليس هذا إلا أحد البقايا الضئيلة المتبقية من النظام الأمومي في المجتمع العربي قبل الإسلام، واتساع أفق محمد رسول المسلمين ونظرته المتحررة للمرأة بالنسبة لغيره من الأنبياء أو الزعماء الدينيين أو السياسيين.

ورغم احتفاظ المرأة العربية باسمها بعد الزواج (وهو اسم أبيها بالطبع) ورغم حقها النظري في التصرف بأموالها بغير إذن الزوج إلا أن القيود الموضوعة على الزوجة العربية قانونا وعرفا والتي تجعل زوجها صاحب الأمر والنهي في دخولها أو خروجها من البيت يجعل مثل هذه الحقوق بغير فائدة فعلية للأغلبية الساحقة من النساء.

وقد استطاعت السلطة السياسية في بعض البلاد الإسلامية مثل تونس والصومال أن تخالف الشريعة الإسلامية فيما يختص بقوانين الزواج والطلاق والإجهاض وأن تضع قوانين جديدة تمنع تعدد الزوجات وتحدد حرية الرجل في الطلاق وتبيح الإجهاض وتساوي الرجل والمرأة في الميراث.

ولا تختلف السلطة السياسية في البلاد الإسلامية في تفسير النصوص الإسلامية حسب ظروفها الاقتصادية ولكن

رجال الدين الإسلامي أنفسهم يختلفون في تفسير الدين حسب مصالحهم ومدى ارتباطهم بالسلطة السياسية، أو حسب مستوياتهم الثقافية أو الفكرية.

وقد كان الإمام الشيخ محمد عبده من رواد القرن العشرين من رجال الدين الإسلامي الذي حارب تعدد الزوجات وقال إنه إذا كانت له فوائد في صدور الإسلام فقد أصبح ضررا على الأمة الإسلامية. والشيخ أحمد إبراهيم الذي قال: ((يجب أن نبادر إلى وضع قانون شامل لمسائل الأحوال الشخصية وعرض آراء أصحاب المذاهب وأقوال الفقهاء من غيرهم عرضا جديدا على مقتضى الشريعة الإسلامية المطهرة، وفقه يلم بأحوال الناس ويساير ما أثبته العلم في مختلف ظروف الزمان والمكان)) [١].

ويعتبر الإسلام من أكثر الأديان مرونة ليتمشى مع العقل والتطور. وذلك بفتحه باب الاجتهاد. وقد رأى أئمة الدين الإسلامي ومنهم الإمام أحمد بن حنبل (وهو صاحب المذهب الحنبلي أحد مذاهب الإسلام الأربعة وأكثرهم تشددا

---

(١) مجلة كلية الحقوق للمباحث القانونية والاقتصادية، السنة الأولى، العدد الأول الذي صدر بالقاهرة عام ١٩٤٥.

وتزمتا) أن الاجتهاد ضروري، وأن وجود المجتهد المستقل المطلق فرض كفاية لا يصح أن يخلو منه أي عصر. ورأى ابن تيمية فتح باب الاجتهاد لكل قادر دون الالتزام بمذهب معين. وقد قال في حرية الاجتهاد واستقلال المجتهدين عن الأئمة: ((هذا اختلاف زمان وليس اختلاف برهان. ولو كان الإمام في عصرنا لقال مثل قولنا)).

وإن الذي يبحث في الدين الإسلامي حول موضوع كتعدد الزوجات مثلا يرى أن آراء علماء الدين اختلفت اختلافا عظيما، فريق من هؤلاء يرى أن الدين الإسلامي يمنع تعدد الزوجات، ويستند في ذلك إلى ما جاء بالقرآن في سورة النساء:

﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة..﴾ [1].

ويقول هؤلاء إن هذه الآية تحرم تعدد الزوجات لأنها تشترط العدل بين الزوجات وهو شرط يستحيل على الرجل تحقيقه لأن معنى التعدد هو التفضيل، تفضيل الزوجة اللاحقة على الزوجة السابقة،ويكفي هذا التفضيل أنه جعل العدل

([1]) القرآن – سورة النساء، الآية ٣.

مستحيلا على أي رجل وإن كان نبيا. بل إن النبي نفسه محمد رسول الله لم يستطع أن يعدل بين زوجاته إذ كان العدل يقضي منه أن يقسم لياليه بالتساوي بين زوجاته بحيث لا تجور واحدة على ليلة الأخرى. إلا أن محمدا كان بشرا ولم يكن في وسعه دائما أن يحقق هذا التقسيم العادل. فقد كان يفضل زوجته عائشة ويحبها أكثر من زوجاته الأخريات. وعن عائشة قالت: ((كانت سودة بنت زمعة (إحدى زوجات الرسول) قد أسنت. وكان رسول الله ﷺ، لا يستكثر منها، وقد علمت مكاني من رسول الله وأنه يستكثر مني، فخافت أن يفارقها وضنت بمكانها عنده فقالت: يا رسول الله يومي الذي يصيبني لعائشة وأنت منه في حل فقبله النبي ﷺ، وفي ذلك نزلت الآية القرآنية: ﴿ وإن **امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضها** ﴾ [1].

وأكثر من هذا ما جاء في كتاب الطبقات الكبرى أن حفصة ((زوجة النبي)) ((خرجت من بيتها فبعث رسول الله إلى جاريته فجاءت إلى بيت حفصة، فدخلت عليه حفصة وهي معه في بيتها فقالت: يا رسول الله في بيتي وفي يومي

([1]) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ص ٢٦.

وعلى فراشي، فقال رسول الله: اسكتي فلـــك الله لا أقربهـــا أبدا، ولا تذكريه)) [1].

وهناك علماء في الدين الإسلامي يرون أن الطــلاق في الإسلام ليس حقا مطلقا للزوج كما هو في قوانين معظــم البلاد العربية ومنها مصر، وأنه لا بد من أن يرجع الـــزوج إلى القاضي ولا يستقل بإيقاع الطلاق متى شاء كما هو الحال اليوم.

وتقف تونس في مقدمة البلاد العربية التي طــورت قانون الزواج والطلاق في ١٩٥٦ حيث تنص المادة ١٨ منه على منع تعدد الزوجات. وبالنسبة للطلاق تنص المـــواد ٣٠ وما بعدها على أن الطلاق لا يقع إلا لدى المحكمة بناء على طلب الزوج أو الزوجة. وقانون سوريا للأحوال الشخصـــية سنة ١٩٥٣ اشترط في المادة ١٧ على أن: ((للقاضي أن لا يأذن للرجل أن يتزوج على امرأته إذا تحقق أنه غير قـــادر على نفقتها)). وبالنسبة للطلاق ضمن القانون السوري فـــي

([1]) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار التحرير، القاهرة. ١٩٧٠، ص ١٣٤- ١٣٥.

المادة ٢٧ مبدأ تعويض الزوجة إذا ما تعسف زوجها في استعماله لحقه في الطلاق، وهو ما يعرف بمتعة المطلقة.

وقانون الأحوال الشخصية لجمهورية اليمن الديمقراطية لسنة ١٩٧١ تضمن نصا مماثلا تماما لما ورد بالقانون السوري. وقانون الأحوال الشخصية للعراق لسنة ١٩٥٩ نص بالفقرة الرابعة من المادة الثالثة بخصوص تعدد الزوجات على إنه ((لا يجوز الزواج بأكثر من واحدة إلا بإذن القاضي)) ويشترط لإعطاء الإذن تحققي شرطين.

أ – أن تكون للزوج كفاية مالية لإعالة أكثر من زوجة واحدة.

ب _ أن تكون هناك مصلحة مشروعة. ونص بالفقرة الخامسة على أنه إذا خيف عدم العدل بين الزوجات فلا يجوز التعدد ويترك تقدير ذلك للقاضي.

ونص بالفقرة السادسة على أن ((كل من أجرى عقدا بالزواج بأكثر من واحدة خلافا لما ذكر بالفقرتين ٤ و ٥ يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على سنة أو بالغرامة بما لا يزيد عن مائة دينار أو بهما معا)). ومؤدي هذه النصوص هو تحقيق الرقابة القضائية على التعدد بشروطه الثلاثة فلم

تقتصر هذه الرقابة على القدرة المالية فحسب – على ما جاء بالقانون السوري – وإنما تخطاها إلى شرطي العدل بين الزوجات وقيام المصلحة المشروعة إلى العذر والضرورة. هذا إلى جانب ما تقرره هذه النصوص من تأثيم فعل الزوج الذي يخالف الالتزام بالرجوع إلى المحكمة لاستئذانها في طلب التعدد. وبالنسبة للطلاق فإن المادة ٣٩ من القانون العراقي تقضي بوجوب رفع الدعوى بطلب إيقاع الطلاق والحصول على حكم به. وإذا تعذر ذلك وجب تسجيل الطلاق بالمحكمة خلال مدة العدة، وتبقى حجة الزواج قائمة في هذه الحالة ما لم تبطلها المحكمة.

وقانون الأحوال الشخصية للمملكة المغربية لسنة ١٩٥٧ تنص بالفقرة الأولى من الفصل الثلاثين على عدم جواز التعدد إذا خيف عدم العدل بين الزوجات كما تنص بالفصل الواحد والثلاثين على أن للمتزوج عليها أن ترفع أمرها للقاضي لينظر في الضرر الذي لحق بها بسبب التعدد.

وقانون الأحوال الشخصية بباكستان لسنة ١٩٦١ يقضي بالنسبة لتعدد الزوجات والطلاق بوجوب استئذان مجلس التحكيم بطلب يقدم إليه متضمنا الأسباب التي تبرره.

فإذا لم يستأذن الزوج مجلس التحكيم قبل التعاقد على الزواج الذي يؤدي إلى تعدد الزوجات أو قبل أن يوقع الطلاق، فإنه يلتزم بتعويض زوجته، فضلا عن الحكم عليه بالحبس والغرامة أو إحدى العقوبتين. وقد تضمن قانون ١٩٦٧ أحكاما مماثلة تقريبا لما يقتضي بها قانون الأحوال الشخصية بباكستان من حيث ضرورة الحصول على الإذن قبل التعاقد الذي يؤدى إلى التعدد وقبيل إيقاع الطلاق.

وفي ضوء ما سبق يعتبر قانون الزواج والطلاق المصري من أكثر القوانين تخلفا في البلاد العربية وأكثرها تعسفا بالمرأة، هذا القانون الذي صدر في سنة ١٩٢٩، أي مضى عليه حوالي نصف قرن وما زال يتحكم في مصائر النساء ويتيح للأزواج استغلالهن.

وقد ناضل الاتحاد النسائي المصري من أجل تغيير هذا القانون، كما ناضلت مجموعات من النساء والرجال من ذوي العقول المستنيرة لتطوير هذا القانون دون أثر يذكر.

ويتصور بعض الناس أن الشريعة الإسلامية هي التي تقف عقبة في وجه تطوير هذا القانون، لكن الشريعة الإسلامية نفسها لم تمنع تغيير هذا القانون في بلاد إسلامية

أخرى، بل إن الشريعة الإسلامية لم تمنع تغيير قوانين أخرى في مصر بعد ثورة ١٩٢٥، ومنها قوانين تحديد الملكية وبعض بنود قانون العقوبات كعقوبة السرقة والزنا مما يخالف الشريعة.

إن قانون الزواج والطلاق في مصر ما زال حتى اليوم يمنح الرجل حرية الطلاق وتعدد الزوجات، وفي إمكان أي زوج له زوجة ومن الأطفال عشرة أو أكثر ثم تقابله امرأة صدفة في الطريق يعجبه شكلها فإذا به يتزوجها ويطلق زوجته القديمة ومعها أطفالها العشرة. إن مثل هذه المآسي تحدث في مجتمعنا المصري. ولعل آخر ما قرأته في هذا الصدد ما نشر في جريدة أخبار اليوم [١] تحت عنوان ((ذهب الأب إلى مجلس الآباء، فخرجت زوجته وأولاده من البيت)). ونشرت الجريدة ما يأتي (انشغل الموظف الكبير بالمشرفة نفسها ولم يتتبع حديثها، وكان قد تلقى دعوة لحضور مجلس الآباء في المدرسة التي تدرس فيها ابنته.

---

(١) انظر: جريدة أخبار اليوم الصادرة يوم ٦ مارس ١٩٧٦، الصفحة العاشرة تحت عنوان: ذهب الأب إلى مجلس الآباء فخرجت زوجته وأولاده من البيت.

وعندما ذهب إلى هناك قابلته المشرفة على المجلس... وأخذت تتحدث عن مجلس الآباء والأمور التي تهم الطالبات.. ولكنه غاب عن الحديث في التطلع إلى وجه المشرف في إعجاب – وعاد إلى المدرسة بعد ذلك مرارًا.. كانت حجته السؤال عن ابنته. وكان هدفه أن يرى المشرفة – وفوجئت زوجته وهو يدخل البيت ومعه المشرفة التي تزوجها.. فحملت حقيبتها وأخذت أولادها وذهبت إلى بيت أسرتها.. وأمام المحكمة وقفت الزوجة الأولى تطالب بالنفقة وتقول أن له ٣ أولاد أكبرهم في نهائي طب والثانية بكلية التجارة والثالثة بالثانوية. وحكمت المحكمة بأن يدفع الزوج نفقة للزوجة والأولاد قدرها ٧٠ جنيها في الشهر.

هل هناك فوضى جنسية أكثر من هذا؟ أي دين من الأديان يمكن أن يدافع عن مثل هذه النزوات الجنسية غير المسئولة؟ وهل من حق كل زوج ينجذب إلى أي امرأة أن يطلق زوجته ويشرد أطفاله؟ وهل ينتهي كل شيء بأن يدفع الرجل نفقة سبعين جنيها في الشهر أو سبعين مليمًا حسب دخله الشهري؟

هذا هو الحال الذي يعيشه الرجال في مصر وبعض البلاد العربية حتى اليوم. وقد صدر في الأيام الأخيرة مشروع جديد لتطوير هذا القانون في مصر قالت الصحف إنه ظل سنوات عديدة يناقش من رجال الدين. وانه في النهاية عرض على أكبر هيئة علمية إسلامية هي مجمع البحوث الإسلامية. ونشرت التعديلات المقترحة في جريدة الأهرام في ٢٩ فبراير ١٩٧٦، ومنها نرى أن جوهر القانون القديم لم يمس، وأن حق الرجل في النزوة الجنسية ما زال موجودًا بوجود حقه غير المسئول في الطلاق. إذ يقول المشروع إن الرجل هو الذي يطلق فقط، ويشترط لوقوع الطلاق أن يكون الزوج عاقلا ليس مجنونًا وليس سكران وليس مدهوشًا وليس غضبانا. والزوج هو الذي يحدد حالته حين وقوع الطلاق (لا أدري كيف يحكم الشخص على نفسه ويصبح هو الخصم وهو الحكم في وقت واحد) ومن بنود المشروع الجديد أيضا أن الزوج يمكن أن يطلق زوجته إذا قال لها ((أنت طالق أنت طالق. أنت طالق)) في مجلس واحد ويعتبر ذلك طلقة واحدة فقط. مثلما يقول لها أنت طالق ثلاثًا، فهذه أيضًا طلقة واحدة... والزوج يملك على زوجته

ثلاث طلقات وزواجها برجل آخر يهدم طلقاته فـإذا عـادت إليه ملك عليها ٣ طلقات جديدة.

ومن الغريب أن يتكلم المشـروع بعـد ذلـك عـن إجراءات توثيق الطلاق فيقول: إنه في حالـة عـدم اتفـاق الزوجين على الطـلاق ولا يوثـق الطـلاق إلا إذا تمـت إجراءات التحكيم المنصوص عليها في القرآن الكـريم، ثـم ثبت عدم نجاح التحكيم في الإصلاح بينهما، ولكن لا يعتبـر التوثيق شرطًا لوقوع الطلاق، ومعنى هذا أن الطـلاق يقـع بدون التوثيق، وبدون إجراءات التحكيم المنصوص عليها في القرآن الكريم فكيف يكون ذلك؟ وكيـف ينـاقض المشـرع القرآن الكريم، و ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما** ﴾، وكيف يشتمل المشروع على عبـارتين متناقضـتين تمـام التناقض وكل منهما تلغي الأخرى، لكن الطلاق في النهايـة يقع بتوثيق لمجرد أن يقول الزوج لزوجته أنت طالق.أنـت طالق. أنت طالق في مجلس واحد. ويعتبر ذلك طلقة واحـدة فقط، وتبقى من حق الزوج بعد ذلك طلقتان أخريـان لأنـه يملك ثلاث طلقات على زوجته، وهو يملك أيضًا أن يتـزوج

عليها أربعا أخريات. وقد كسبت الزوجة فقط في هذا المشروع حق الامتناع عن السكن في بيت واحد مع ضرتها (الزوجة الأخرى) وكسبت حقًا آخر جديدًا وهو أن تطلب الطلاق من زوجها إذا تزوج عليها مرة أخرى. وإذا نظرنا إلى حال معظم الزوجات وبالذات الفلاحات اللائي يعملن بغير أجر لحساب الزوج والأسرة فمن هي تلك الزوجة التي سوف تستخدم هذا الحق وتطلب الطلاق لتخرج إلى الشارع بغير رجل (ظل رجل ولا ظل حيطة) وتتعرض للتشرد الأخلاقي والاقتصادي معًا في ظل تقاليد تدين المرأة المطلقة ومجتمع يستغل جهود النساء في الحقول والبيوت بغير أجر.

ومن الحقوق التي كسبتها المرأة أيضا في هذا المشروع أنها يمكن أن تسافر إلى الحج فقط بغير إذن من زوجها بشرط أن يسافر معها محرم (أخوها أو أبوها) وهي ملزمة بالسفر مع زوجها إلى أي مكان يذهب إليه. وفيما يخص بيت الطاعة فلا يجوز تنفيذ حكم الطاعة على المرأة بواسطة رجل البوليس. وهذا كله في رأيي تعديلات طفيفة لا تمس جوهر بيت الطاعة ولا تمس جوهر الظلم الواقع على

المرأة المتزوجة وهي تناقض روح الشريعة الإسلامية التي مبدؤها المعاشرة بالمعروف أو التسريح بالمعروف.

إن مشكلة الطلاق وتعدد الزوجات في مصر ليست مشكلة المرأة فحسب ولكنها مشكلة الرجال والنساء والأطفال. وكم سمعنا عن قصص مؤلمة لأطفال شردهم الطلاق ولنساء مطلقات لم يجدن من وسيلة للعيش سوى بيع أجسادهن، وبنات صغار انصرف عنهن الأب إلى عشيقات أو زوجات جديدات.

والطلاق قد يكون أحيانًا ترفًا (بالنسبة لمآسي الزوجة) لا تحصل عليه الزوجة أبدا، وقد يكون محنة سرعان ما تحصل عليها وفي كلا الحالين فإن الأمر بيد الزوج وحده الذي يطلق بكلمة، وقد لا يطلق أبدًا عنادًا وتجبرًا واستغلالا لحق قانوني جائر، وقد يطلب زوجته في بيت الطاعة ويحضرها له البوليس، فإذا بها تجد زوجة أخرى مع زوجها.

وتحدث المأساة حين تصبح المرأة مطلقة وليس لها عمل أو إيراد تعيش منه، ولا يصبح أمامها إلا النفقة التي تحصل عليها بمشقة من زوجها وقد لا تحصل عليها في

معظم الأحيان بسبب تحايل الأزواج على القانون، أو بسبب ضعف القانون وتشجيعه لتحايل الأزواج وهروبهم من النفقة.

ولعل من أغرب ما قرأت أخيرًا حول موضوع النفقة وحق المرأة فيها هو ما نشر في جريدة الأخبار ٢١ سبتمبر سنة ١٩٧٥ تحت عنوان ((لا نفقة للسيدة)) التي تحج دون أذن زوجها [١].

تقول الجريدة:-

أصدرت محكمة مصر القديمة للأحوال الشخصية ثلاثة أحكام هامة في ٣ قضايا أحوال شخصية....

الحكم الأول:

لا نفقة للسيدة التي تحج دون إذن من زوجها.. لأن النفقة تعطى للزوجة مقابل الاحتباس.. ولا نفقة للزوجة التي تحج دون إذن زوجها عن فترة الحج.. كانت إحدى الزوجات رفعت دعوى نفقة عل زوجها الموظف الكبير. قالت أنه منع عنها النفقة عن فتر أدائها فريضة الحج، وأصدرت المحكمة بعدم أحقية الزوجة للنفقة الشرعية عن فترة أدائها لفريضة

(١) انظر جريدة الأخبار ١٩٧٥/٩/٢١ الصفحة السادسة.

الحج التي قامت بها بدون إذن من زوجها لأن النفقة واجبة على الزوج مقابل احتباس زوجته.

الحكم الثاني:

أقامت مطلقة دعوى ضد زوجها المهندس قالت إنه بعد طلاقها وضعت في مستشفى خاص، وتكلفت الولادة ومصروفات العلاج بعد الولادة ٥٠٠ جنيه وقدمت بها قوائم رسمية.. وقضت المحكمة برفض الدعوى.. واستندت المحكمة في حكمها بعد أحقية المطلقة لمصروفات الولادة على فتوى تقول إن: ((أجر القابلة على من استدعاها)) فالزوج المطلق غير ملزم بدفع مصروفات الولادة... أما العلاج لفترة النفاس فهو علاج مرضي وليس على الرجل المطلق سداد هذه النفقات.

ولست بصدد الدخول تفصيلا في مهزلة النفقة، والتي إن حظيت بها المرأة المطلقة فهي نفقة مؤقتة لفترة قصيرة محدودة، ثم تصبح المرأة بغير عائل وبغير مورد.

والعمل المنتج بأجر يحمي المرأة بالطبع ويمنحها إيرادًا شهريًا يسد رمقها. لكن المرأة العاطلة تصبح في الشارع بغير عمل وبغير إيراد وعليها وحدها أن تنتزع لقمة

عيشها من أنياب المجتمع، عليهـا أن تسـرق (إذا تعلمـت السرقة) أو عليها أن تبيع جسدها وهي فـي كـلا الحـالين (السرقة والبغاء) معرضة للسجن. وفـي سـجن القنـاطر التقيت بنماذج متعددة من هؤلاء النسـاء التعيسـات اللائـي حرمن نمن التعليم والعمل بسبب التقاليد القديمـة أو لسـبب آخر، وحرمن من الزواج بسبب تطليق الزوج لهن بسبب أو بغير سبب، وحرمن حتى من العدالة القانونيـة لأن القـانون يعاقب المرأة البغي ولا يعاقب الرجل.

أما هؤلاء اللائي لم يتعرضن لمثل هـذه الظـروف التعيسة فإنهن بسبب فقدان المورد الاقتصادي الكافي يعشـن حياة ذليلة، وكم من امرأة مطلقة لم تجد المأوى بعد أن نفدت النفقة التي حصلت عليها وأصبحت حائرة بين أهلها وأقاربها وتتسول لقمة العيش أو تعمل خادمة في بيت تتعرض لمشاكل وإهانات لا حصر لها.

وقد تعرض مشروع الأحـوال الشخصـية الجديـد لموضوع النفقة لتعديلات طفيفة لم تحل جوهر المشكلة اذكر منها ذلك النص: إذا طلق الرجل زوجته دون رضاها ولم تك الإساءة منها فإنها تستحق مبلغًا إضافيًا بخلاف النفقة يسـمى

((المتعة)) ويقدر بما لا يجاوز نفقة سـنة حسـب حالـة الزوج. ومن هنا نفهم أيضا أن الرجل يطلق زوجته بـدون رضاها وبدون خطأ منها نظير أن يدفع شيئًا إضـافيًا مـن المال. وبهذا يعطى الرجل الغني حرية أكثر من الرج الفقير لإرضاء نزواته الجنسية، ثم ماذا تفعل نفقة سنة واحدة لامرأة بغير إيراد طلقها زوجها دون رضاها ودون خطـأ منهـا؟ وماذا تفعل نفقة سنة أو سنتين لامرأة عاشت مـع زوجهـا عشر سنوات أو ثلاثين سنة وأعطته جهدها وشبابها وأطفالها ثم خرجت إلى الشارع بنفقة إن أطعمتها سنة فلـن تطعمهـا السنة الثانية. وفي ظل إمكانيات العمل المحدود في المجتمع وكثرة المتعطلين بغير عمل لا تجد مثل هذه المرأة إلا تجارة الجسد بل إن مثل هذه المرأة قد لا تصلح لتجارة الجسد أيضًا بعد أن استهلك زوجها جسدها وشبابها ثم ألقـى بهـا فـي الشارع قبة ممصوصة.

وقد وجد أن عددا من البنات الصغار اللائي لجـأن إلى تجارة الجسد هن ضحايا آباء تركوا زوجاتهم وأولادهـم من أجل رغبة جنسية جديدة. وقد ثبت أن الأم بعد الطـلاق هي التي تتحمل هم تربية الأطفال بسبب وضعها الأدنى فـي

المجتمع، وبسبب حرصها على المسئولية الأمومية التي فرضها عليها المجتمع، وبسبب خوفها من ألسنة الناس التي تهاجم المرأة التي تهمل أطفالها أكثر من مهاجمة الرجل الذي يهمل أطفاله، وبسبب حبها لأطفالها كإنسانة وأم، وبسبب عدم وجود فرص كثير للمرأة المطلقة من الزواج مرة أخرى (الزواج بمطلقة مثل أكل الطبيخ البايت)، وبسبب القيود على حريات المرأة الاجتماعية والشخصية، وبسبب انطلاق الرجل المطلق حرا يعربد كما يشاء أو يتزوج كما يشاء دون أن يحمل هم أولاده أو بناته. كل ذلك جعل من المرأة المطلقة أكثر التصاقًا بأطفالها وأكثر رعاية لهم وأكثر مسئولية نحو مصالحهم، بعكس الرجل، فلم نسمع إلا نادرًا عن هذا الرجل الذي طلق زوجته ثم بذل الجهود لرعاية أولاده أو بناته، بالإضافة إلى أن الرجل في معظم الأحيان لا يطلق زوجته إلا من أجل الزواج بامرأة أخرى، وكم يتخلص الرجال من أولادهم وبناتهم من أجل الزوجة الجديدة، وإذا لم يستطع التخلص منهم فكم من عذاب يراه أولاده وبناته على يد زوجة الأب، وكم من آباء ينحازون إلى صف الزوجة الجديدة المدللة ضد مصلحة أولادهم وبناتهم.

ومع كل ذلك يأتي المشروع الجديد لقانون الأحــوال الشخصية فينزع من الأم حضانتها لأطفالهــا فــي ســن ٧ سنوات للصبي، و ٩ سنوات للبنت، ويفرض على البنت التي عمرها تسع سنوات أن تعيش مع أبيها بالقوة وبدون رغبتها أما الصبي فهو حر منذ سبع سنوات وله أن يختار الحياة مع أبيه أو مع أمه حسب رغبته.

ولا أدري أين العدالة هنا؟ بل لا أدري أين مصــلحة الطفلة البنت هنا حين تساق إلى أبيها وزوجة أبيهــا بــالقوة وهي تصرخ للتشبث في حضانة أمها؟!

ويقولون إن البنت في حاجة أكثر من الصبي لرعاية الرجل. لذا فإن الذين يدرسون حياة الأطفــال يــدركون أن الاعتداءات الجنسية على الأطفال الذكور لا تقل عن الأطفال الإناث أن لم تزد. وإن الذي يدرسون حياة الآباء والأمهــات يدركون أن الأم دون الأب؟ ثم إن الذين يدرســون ظــروف البنات الصغار اللائي لجان إلــى تجــارة الجســد يجــد أن معظمهن ضحايا آباء أهملوا الإنفاق علــى بنــاتهم بســبب الزوجة الجديدة أو العشيقة الجديدة، وكلهن ضحايا أسر فقيرة مزقها الطلاق وتعدد الزوجات.

ويقول المشروع الجديد أيضًا في تعديلاته المقترحة إن مدة حضانة الأم للطفل قد تطول مدة إضافية إذا اقتضت مصلحة الطفل ذلك، لكن المشروع نص على عدم استحقاق الأم الحاضنة للأجر عن هذه المدة الإضافية. والسؤال هنا هل الحضانة مسألة ضيافة حتى يتكلف بها المضيف أم هي مصلحة الطفل التي اقتضت إطالة مدة حضانة الأم وإذا كان كذلك فلماذا تحرم من أجر الحضانة؟

ولا شك أن الفقر وانعدام المورد الاقتصادي يلعب دورًا خطيرا في مآسي الأمهات المطلقات الحريصات على صالح أطفالهن ولهذا فإن أول خطوة لتحرير المرأة من الظلم والقهر الجنسي والاقتصادي هو أن تعمل وتنال عن عملها أجرًا من الدولة وليس من الزوج.

ولعل أعجب شيء في قانون الزواج والطلاق في مصر وعدد من البلاد العربية هو ذلك الذي سمي ((بيت الطاعة)) وتلك الصفة التي تطلق على الزوجة أحيانًا وهي ((النشوز)).

وإن كلمة ((ناشز)) من الكلمات الشائعة في مجتمعنا، تلصق بالمرأة التي تعصي أوامر زوجها وإن كان

هذا الزوج سكيرًا أو عربيدًا أو قــوادًا أو لصـًــا أو مهــرب مخدرات.

وإذا ضرب الزوج زوجته بســبب أو بغيــر ســبب فهربت من ه إلى بيت أهلها وطلبت الطلاق فهو قــادر (إذا أراد) أن يرسل إليها (بسلطة قانون بيت الطاعــة) رجــل الشرطة ليجرها من يدها بالقوة إلى بيت زوجها فإن رفضت وامتنعت عن الذهاب أصبحت في نظر القانون ((ناشزًا)).

وقد سبق كثير من الدول العربية والإسلامية مصــر في البغاء بــين الطاعــة وفــي تطــوير قــوانين الــزواج والطلاق،ولكن مصر التي هي رائدة الوطن العربي في التقدم ورائدة العالم في الحضارة لا يزال فيها حتــى اليــوم بيــت الطاعة.

وقد نشر في جريدة الأخبار الصادرة فــي يــوم ٢٥ فبراير سنة ١٩٧٤ في صفحتها الأولى موضوعًا بعنوان مبدأ في الأحوال الشخصية:

للزوجة عدم الطاعة إذا كان بيت الطاعة في جبــل درنكة، وكتبت الجريدة ((إن محكمة الاســتئناف للأحــوال الشخصية بأسيوط أصدرت مبدأ هامًا قضــت بإلغــاء حكــم

الطاعة على زوجة مزارع لأن منزل الزوجية أعده الــزوج في جل درنكة الذي لا يزال مأوى للهــاربين مــن القــانون والمجرمين، وكان الجبل مأوى ((الخط)) الشــهير زعــيم العصابات في الأربعينيات.. قالت المحكمة ((لا يصلح هــذا المكان للطاعة لأنه يشترط أن يكون بيت الطاعة بين جيران تأمن فيه الزوجة على نفسها وليس لهذا البيت فــي الجبــل جيران.. صدر الحكم برئاسة عبد الوارث عبد الحليم عبد الله رئيس المحكمة)).

وإنه لواضح أنه لم يطرأ علــى بــال المحكمــة أن تناقض فكرة إجبار الزوجة على العيش مــع زوج لا تريــده ولكن كل ما تناقشه هل بيت الطاعة أو المكان الذي ســتجبر على العيش فيه له جيران أم ليس له جيران؟

والذين يقولون إن بيت الطاعــة نــابع مــن الــدين الإسلامي يغالطون لأن رسول المسلمين نفسه كثيرًا ما ذكــر في أحاديثه أن المرأة لا تجبر على العيش مع زوج لا تريده أو تكرهه بل إن من حقها قبل الزواج أصلا أن تختار الــرج الذي ترغب فيه.

والمرأة أيضًا في الإسلام لها أن تفصح عقد الــزواج إذا خدعت فيه أو أكرهت عليه. وليس لامرئ أن يقودها إلى من لا تريده. فلقد فصم الرسول محمد زاج خنساء بنت خدام الأنصارية، لأن أباها زوجها وهي كارهة [1].

إن قانون الزواج والطرق في مجتمعنا العربي لــيس إلا أحد بقايا قوانين الإقطاع الأبوية التــي تجعــل الزوجــة كقطعة الأرض يمتلكها الرجل ملكية تامة. يفعل بها ما يشاء، يستغلها، أو يضربها أو يبيعها في أي وقــت بــالطلاق، أو يشتري عليها زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعــة. أمــا حقــوق الزوجة فهي أن يعدل الزوج بينها وبين ضــرائرها وبــين الزوجات الأخريات. ولا أدري كيف يمكن أن يعدل الــزوج بين زوجة قديمة وبين عروس جديدة.. ومن الذي يثبت على الزوج العدالة أو عدم العدالة؟..

أما بنود القانون التي تعطى للقاضــي حــق تطليــق الزوجة من زوجها فهي صارمة جدًا. يقول القانون ما يــأتي

---

(1) انظر: صحيح البخــاري جـــ ٨. ص ٦٥ وعبــد الله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها ، وإسلامها الجزء الثاني ص ٦٠.

عن الحالات التي يسمح فيها بالطلاق [1]: ((إذا حبس الزوج ثلاث سنوات فأكثر، يصبح للزوجة الحق في أن تطلب تطليقها منه، ولا يطلقها القاضي إلا بعد أن يثبت أن الحكم صدر بالسجن لمدة ثلاث سنوات فأكثر، وأنه أصبح. نهائيًا، وأنه نفذ على الزوج، ومضت سنة فأكثر من تاريخ تنفيذه، وتطلب الزوجة الطلاق في حالة عدم إنفاق الزوج عليها أو مرض الزوج بالجنون أو البرص أو ضرب الزوج لزوجته إلى حد الإضرار بها (معنى ذلك أن الضرب إلى حد عدم الإضرار مسموح به) أو غياب الزوج عن زوجته مدة طويلة، وهذه الحالات كلها تترك للقاضي ليتثبت منها. وتتشدد بنود القانون في هذه الحالات بحيث يصبح الطلاق صعبًا جدًا، مثال ذلك النص بأن مرض الزوج بالجنون أو البرص أو الجذام لا يعطي الزوجة الحق في طلب الطلاق إذا تزوجته وهي عالمة بالعيب: أو حدث العيب بعد عقد الزواج ورضيت به.

([1]) انظر: أحكام الأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية، عبد الوهاب خلاف، مطبعة دار الكتب المصرية (الطبعة الثانية) ١٩٣٨. ص ١٦٥.

هذا هو قانون الطلاق المفروض على النساء العربيات في معظم البلاد العربية حتى اليوم. وقد يختلف القانون من بلد إلى بلد اختلافًا سطحيًا أما الجوهر فإن الرجل العربي له حق الطلاق في أي وقت وبإرادته وبغير علم الزوجة أحيانًا. وفي مصر قد يرسل الزوج لزوجته ورقة الطلاق بالبريد دون سابق علمها.

وفي البلاد العربية التي حاولت تقييد حرية الرجل في الطلاق لم تضع قرار الطلاق في يد القاضي كليلة كما هو الحال عند الزوجة ولم تفرض عليه الشروط المشددة مثلها. ثم ما هو القاضي؟ أليس هو رجلا من رجال المجتمع الأبوي الطبقي الإقطاعي أو الرأسمالي؟ أليس القضاء كالبوليس جهازا من أجهزة الحكم الطبقي وفرض العدالة الأحادية النظرية. عدالة من وجهة نظر الحكام فقط؟

ولست أظن أن الزوجة العربية يمكن لها أن تتساوى مع الرجل في حق الطلاق ما دام المجتمع طبقيًا أبويًا. إن مؤسسة الطلاق، كمؤسسة البغاء كمؤسسة الأطفال غير الشرعيين، إحدى المؤسسات اللازمة لنشوء واستمرار المجتمع الطبقي الأبوي. لقد أوجد الطلاق ليتخلص الرجل

من زوجته غير المرغوب فيها بأقل تكاليف ممكنة (ما سمي بالنفقة) أو مؤخر الصداق وبحيث يضمن حصـــوله علـــى أطفاله منها إذا كانت حاملا حين طلقها، ومراقبة ذلك العلـــم لمدة معينة حددها العرب بثلاثة شهور وسموها العدة حتـــى لا يتسرب إلى حظيرته طفل رجل آخر يقتسم مـــع أطفالـــه أمواله وتركته.

في كل الأنظمة الاجتماعية منذ نشوء الأسرة الأبوية والطبقات والعبودية ثم الإقطاع لم يكن حق الطلاق إلا فـــي يدا لرجل. فالمجتمع الطبقي الأبوي جعل من المـــرأة ســـلعة تشترى بالمهر أو الصداق وتباع بمؤخر المهر والنفقة. ولقد حرر المجتمع الرأسمالي الفلاحين من عبودية الإقطاع. ليس لأسباب إنسانية تحريرية بل لأن الرأسمالية كانت في حاجـــة إلى سواعد الفلاحين في الصناعات الجديـــدة، وقـــد حولـــت سواعد الفلاحين إلى عمال أو قوة عمل. تدخل السوق أيضًـــا كسلعة تضمن للرأسمالي حرية شرائها بأبخس الأثمان (كما تشترى المرأة بأقل مهر) أو يطردها في أي وقـــت بغيـــر معاش لتبقى في السوق جائعة تعاني البطالة، كقوة احتياطيـــة يمكن أن يستخدمها مرة أخرى بأبخس ثمن إذا احتاج إليها.

وقد يعيد الرجل العربي زوجته التي طلقها خلال مدة ((العدة)) بغير إرادتها، لأنها خلال تلك المدة تكون ملكًا له، فهي زوجة وليست زوجة في الوقت نفسه، حتى لا تستطيع خلال مدة ((العدة)) فإذا لم يردها إليه أصبحت في حل من الزواج برجل آخر.

وبمثل ما حرر المجتمع الرأسمالي الفلاحين من عبودية الإقطاع فقد حرر النساء أيضًا من عبودية البقاء في البيت، ليس لأسباب تحريرية إنسانية بل لحاجته إلى سواعد النساء في الصناعة. وإذا كان المجتمع الرأسمالي قد أعطى المرأة حق الطلاق كالرجل في بعض البلاد الصناعية فلم يكن ذلك إلا لتصبح النساء قوة عمل متحركة معروضة أو احتياطية في السوق. وقد اقتضى ذلك إعطاء بعض الحرية للمرأة للخروج من تحت سيطرة الرجل. ونتج عن ذلك قوانين زواج وطلاق جديدة سميت ((بالزواج المدني)) ونجح المجتمع الرأسمالي المتقدم في فصل الزواج عن الدين كما نجح في فصل الدين عن الدولة ليس لأسباب تحريرية إنسانية وإنما لأسباب اقتصادية استغلالية.

وقد يفسر لنا هذا ازدياد معدلات الطلاق في البلاد الرأسمالية المتقدمة عن البلاد الإقطاعية المتخلفة. ويفسر لنا ازدياد الطلاق في المدن عن القرى وازدياد معدلات الطلاق بين النساء العاملات بأجرهن عن النساء العاطلات في البيوت تحت رحمة الأزواج أو الفلاحات العاملات بغير أجر تحت سيطرة الرجل.

إن معدلات الطلاق في مصر [١] تدل على أن معدل الطلاق في محافظة القاهرة ٢,٩ لكل ألف من السكان وكذلك محافظة الإسكندرية وهما أعلى معدل للطلاق في مصر وهما أكبر مدينتين في مصر وتتركز فيهما الشركات الكبرى والصناعات والوظائف الحكومية وتعيش فيهما أكبر النسب من النساء العاملات بأجر. ويهبط معدل الطلاق بعد ذلك إلى ١,٢ في كفر الشيخ، ١,٣، وفي سوهاج ١,٤، وفي المنوفية، و ١,٩ في الدقهلية.

---

(١) المرأة المصرية في عشرين عام (١٩٥٢ – ١٩٧٢) مركز الأبحاث والدراسات السكانية، الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء.

ويكاد يكون هذا هو الحال في معظم البلاد العربيـــة. ففي سوريا مثلا تزيد معدلات الطلاق بين النساء العــاملات بأجر عن النساء المعتمدات على الرجل في الإعالة. إن معدل الطلاق [1] بين النساء السوريات العاملات بأجر ٢,٢% أمـــا معدل الطلاق بين النساء الأخريات فهو ٠,٦% كما أن إقبال النساء العاملات بأجر على الزواج أقل من إقبال النساء غير العاملات. في سوريا نسبة المتزوجات بين النساء العـــاملات هي ٤٦,٧% فقط أما بين النساء الأخريات فإن هذه النســبة ترتفع إلى ٧٨,٢%.

وهذا أمر طبيعي فالمرأة التـــي تســتطيع أن تطعــم نفسها بأجرها المستقل لا تستسلم للعبودية كالمرأة التي تحتاج للزواج لتأكل أو تخشى الطلاق فتفقد موردها الوحيد للطعام. وإذا تركنا موضوع الطعام وتكلمنا عن موضوع الجــنس أو حاجة المرأة لإشباع حاجتها الجنسية فإن الزواج هو الوسيلة الوحيدة أمام المرأة العربية للممارســة الجــنس. فالعلاقــات الجنسية قبل الزواج ممنوعة تمامًا بالنسبة للبنت العربية فـــي

---

(١) المكتب المركزي للإحصاء (دمشق) المــرأة العاملــة بلغة الأرقام، سلسلة الدراسات ٣٠، دمشق ١٩٧٠، ص ١١ – ٢٩.

أي بلد عربي حتى اليوم. كما أن العـادة السـرية ممنوعـة ومحرمة في المجتمعات الغربية. والمرأة غير المتزوجـة أو المطلقة أو الأرمل لا تسـتطيع أن تمـارس الجـنس إلا إذا تزوجت وإذا لم يتزوجها رجل فهي تظل عذراء أو عزبـاء. وقد تضحي المرأة بسمعتها لتقيم علاقة حرة بالرجل لكنهـا تصبح في نظر المجتمع العربي امرأة محتقرة أقرب ما تكون إلى المومس.

إلا أن المجتمع العربي أصبح يشـهد فـي السـنين الأخيرة قلة من النساء العاملات بأجر والمسـتقلات نفسـيًا وأخلاقيًا إلى حد كبير وممن يستطعن رفض الـدخول فـي مؤسسة الزواج أو الطرق الأبوية ويخترن طريقة الحياة التي ترضيهن ويفرضن على المجتمع احترامهن أيضًا والاعتراف بهن. لكن الأغلبية الساحقة من النساء العربيـات مـا زلـن مدفوعات إلى الزواج من أجـل إشـباع حاجـات الجسـد الضرورية، وما زلن مذعورات من كلمة الطلاق خوفًا مـن الجوع والتشرد وألسنة الناس، يتقبلن أي معاملة سـيئة مـن الزوج دون شكوى أو تذمر. وقد تخدم الواحدة منهن ضرتها (الزوجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة) كما يحدث حتى اليوم

في الريف المصري، بل إن الفلاحة المصـــرية قــد تبحــث بنفسها لزوجها عن زوجة أخرى لترضيه أو لتخفــف علـــى الأقل من قسوته عليها، أو لتجنب الزوجة الجديدة له طفـــلا ذكرًا إذا كانت هي قد أنجبت بنات فقط، ومـــا أتعـــس تلـــك الزوجة العربية التي لا تنجب طفلا ذكرًا خاصة في الريف. إن أقل ما يمكن أن تتعرض له هو أن يسقط على وجهها من حين إلى آخر حين كف زوجها الغليظ في صـــفعات قويـــة وبغير سبب، أو صوته الغاضب الخشن يرتفع لأتفه سبب في وجهها صائحًا ((عليّ الطلاق بالثلاثة)).

وقد يبلغ الأمر بالمرأة أن تفضل الطلاق مع الجـــوع والعري على الحياة مع زوجها وحينئذ تجد أبـــواب الطـــلاق كلها مغلقة فالقانون صارم متشدد والقاضي صارم متشدد. بل إن أسرتها نفسها صارمة متشددة وعلى الأخص في الريـــف العربي. فالأسرة في معظم الأحيان لا تتكون من الأب والأم والأطفال فحسب (Nuclear family) كما هو الحال فـــي المدن أو المجتمعات الصناعية المتقدمة، ولكن الأسرة كبيرة العدد (Extended family) تشمل الجد والجدة وعددا من الآباء والأمهات والأعمام والأخـــوان والأخـــوة والأخـــوات

والأولاد. وهذه الأسر الكبيرة لا تزال تسود في الريف العربي. ولا تزال تمسك بيدها قرار زواج أو طلاق المرأة. وهي في كلا الحالين تأخذ القرار أو لا تأخذه حسب مصلحة الأسرة وليس حسب مصلحة المرأة. فالمرأة قد تطلق من زوج فقير ليزوجوها برجل أخر ثري. والمرأة قد لا تطلق أبدًا وتعاد إلى زوجها بالقوة وبالضرب إذا لم يكن في مقدور الأسرة إطعامها وإعالتها هي وأطفالها إذا كان لديها أطفال.

وكم تحدث كل هذه الأعمال الوحشية تحت مظلة كثيفة من القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية وتحت وابل من الألفاظ الرنانة البليغة عن الشريعة الإسلامية وواجب المرأة من حيث الطاعة واحترام زوجها والمحافظة على كيان الأسرة والأطفال.

أما الرجل العربي فهو غير مطالب بالحفاظ على الأسرة والأطفال مع أن الأسرة والأطفال ملك له هو وليس ملكًا للمرأة. ويساعد القانون والعرف والشرع الرجال على العبث بالنساء، إن القانون والشرع قد أباح للرجل المسلم أن تكون له أربع زوجات في وقت واحد، ولكن الرجل يستطيع أن يكون له أكثر من أربع زوجات شرعيات في ظل القانون

نفسه بسبب ((العدة)) وحرية الطلاق وقدرة الزوج على إعادة زوجته إليه في أي وقت قبل انتهاء ((العدة)) (ثلاثة شهور). أن الرجل قد يكون له أربع زوجات في البيت، وأربع زوجات أخريات في ((العدة)) وحين يرد إليه واحدة من ((العدة)) يطلق واحدة من البيت. وعلى هذا النحو قد يكون للرجل أي عدد من الزوجات في أي وقت عن طريق إخراجهن من ((البيت)) وإدخالهن ((العدة)) وتطليق ما يزيد عن الحاجة عند الضرورة. وقد اشتهرت هذه الطريقة في المجتمع الصومالي الإسلامي بين طبقة الرجال الأثرياء بعد أن بدأ المجتمع يلغي نظام الجواري والسراري ومما ملكت اليمين.

وكم من أشكال مشابهة من الزواج واللازواج الممنوحة للرجال المسلمين تحت مظلة الشريعة، مثل ما سمي ((بمهر شرطي)) في الصومال وغيرها من البلاد الإسلامية وهو شبيه بزواج المتعة أو الزواج المؤقت. ثم ما سمي ((بالخطبة السرية)) وهي أن يتزوج الرجل سرًا حتى لا تغضب زوجته الأولى. وكم من مفارقات تحدث حين تلتقي الزوجتان بالصدفة في مكان واحد أو يلتقي طفل

الزوجة الأولى مع طفل الزوجة الثانية في مدرسة واحدة ويكتشف الطفلان أن أباهما واحد.

ويبيح الإسلام للرجل أن يتزوج امرأة غير مسلمة، لكنه يحرم على المرأة الزواج إلا من رجل مسلم.

والزواج من الكتابيات ((اللائي يؤمن بالكتب السماوية الأخرى غير القرآن) أمر ثابت في الشريعة الإسلامية، ومارسه المسلمون منذ صدر الإسلام حتى اليوم. أما المرأة المسلمة فلا تستطيع أن تتزوج إلا رجلا مسلمًا، وإلا خرجت عن دينها.

وليس في المجتمع العربي ما يعرف في الغرب باسم ((الزواج المدني)). وقد استطاع المجتمع الأوروبي مع التقدم الصناعي والعلمي أن يخرج على احتكار الكنيسة للسلطة الروحية الكنسية التي كانت تستأثر بعقد الزواج بحيث إذا لم يحدث عن طريقها، ووفق مشيئتها، أي بدفع الرسوم المالية المفروضة، فإنها لا تقر الزواج ولا تعتبر عقد الزواج منعقدًا.

وحين تخلصت أوروبا من سيطرة الكنيسة شـرعت نظام الزواج المدني لكي يتزوج من شاء بمن شاء في مركز الأحوال المدنية بدون تقيد بإرادة الكنيسة.

ويعتبر الزواج المدني من المسائل المطروحـة الآن على صعيد العالم الإسـلامي والعربـي وفـي المجتمعـات المختلفة التي تضم مسلمين وغير مسلمين. والزواج المـدني ما زال ممنوعًا في الإسلام، وهو لا يعني إلا شيئًا واحدًا هو حرية المرأة المسلمة من الزواج برجل آخر غير مسلم. هذا الحق الذي يعطيه الإسلام للرجل ويمنعه عن المرأة.

وفي مصر عندنا نوع من الزواج يسـمى بـالزواج ((العرفي)) وهو نوع من الزواج الشرعي بغير عقد رسمي يتيح للرجل أن يحصل على معاش زوجته من الحكومـة، إذ أن القانون المصري يحرم المرأة من معاشها حين تتـزوج. وقد عرفت عددًا من النساء من قريبـاتي وجـاراتي ممـن تزوجن زواجًا عرفيًا وكانت الواحدة مـنهن تعـيش دائمًـا مهددة، فهي تخشى الحكومة، وهي تخشى المجتمـع، وهـي تخشى زوجها، وهي في النهاية مدفوعة إلى مصيرها هـذا بغير حماية من أحد.

إلا أن المرأة العربية الجديدة لم تعد في حاجة إلى حماية من أحد إلا نفسها، طالما أنها تعمل وتنال عن عملها أجرًا يضمن لها الاستقلال الاقتصادي والأخلاقي أيضًا. وقد أصبحت المرأة العربية العاملة بأجر في مصر والسودان وسوريا والكويت وتونس ولبنان والأردن والمغرب والجزائر واليمن بل والسعودية أيضًا أصبحت قادرة أن تعيش في بعض الأحيان بمفردها بغير زوج وأن ترفض الزواج إذا أرادت وأصبحت قادرة على اختيار زوجها، أو تركه حين ترفضه، غير مبالية بنقد المجتمع لها أو هجومه عليها طالما أنها تعول نفسها بنفسها، وطالما أن لما عملا منتجًا تحقق به ذاتها وكرامتها، كما أن الأفكار الاشتراكية الجديدة قد غزت المجتمعات العربية وقد غيرت الكثير من عقلية الرجال والنساء معًا، وبالرغم من أنها ظلت شعارات جوفاء في أحيان كثيرة إلا أنها تركت من الصدى ومن الأثر ما شجع المرأة العربية على النضال من أجل مزيد من التحرر. وفي اليمن الجنوبية والعراق وتونس والصومال قوانين جديدة تعطي المرأة بعض حقوقها المسلوبة.

ورغم المشاكل والقيود التي لا تزال تعرقل حركة المرأة العربية إلا أن خروج المرأة للعمل بأجر قد أصبح حقيقة في معظم البلاد العربية، كما أن هناك زيادة مستمرة في عدد البنات والنساء اللائي يعملن في مختلف المؤسسات والمهن. وإذا كان عملهن لم يحررهن اقتصاديًا كما يجب وإذا كانت حياتهن ما زالت خاضعة لمنطق الرجل إلا أنه لا يمكن أن ننكر أثر حصول المرأة على أجر في تغيير شخصيتها السلبية الخاضعة، واستغنائها التدريجي عن إعالة الرجل لها.

ورغم تواضع هذا الأثر بسبب الضغوط التي لا تزال تحاصر المرأة العربية إلا أنه أثر يزداد وضوحًا وقوة بمرور السنين وقد لاحظه بعض الرجال الذين يتابعون تطور الأسرة في المجتمع العربي. إن بعض هؤلاء قد لاحظ أن المرأة العربية العاملة أصبحت أقل حرصًا على الزواج وأقل خوفًا من الطلاق بسبب حصولها على أجر يضمن لها استقلالها الاقتصادي عن الرجل.

في تعداد ١٩٧٦ في مصر وجد أن نسبة الإناث اللائي لم يتزوجن قد ارتفعت إلى ١٩,٧%، وكانت في سنة

١٩٦٠، ١٢,١% فقط، كما أن نسبة المتزوجات انخفضت إلى ٦٤,٧% سنة ١٩٧٦ وكانت ٦٧,٥% سنة ١٩٦٠.

وقد أجرى في تونس إحصاء بعد مرور عشر سنوات على تنفيذ التشريع الجديد الذي ساوى بين الزوجة والزوج في حق الطلاق أمام المحكمة فاتضح أن حوادث الطلاق [1] زادت كما زادت نسبة الطلاق بين الزوجات العاملات بأجر عن الزوجات حبيسات البيوت. ويحذر كثير من الرجال العرب من هذه الظاهرة، ويسمونها ظاهرة انحلال الزواج، التي تهدد المجتمع العربي كما هددت المجتمع الغربي المتقدم. ((فالمجتمعات الصناعية في رأيهم تحولت من النمط القديم الذي اتصف بتفوق الرجال على المرأة إلى النمط الحديث المسمى بنمط المساواة بين الرجل والمرأة. وإن هذه المساواة من عوامل انحلال الزواج، فما دام الزوج في المجتمع القديم يشعر بتفوق على المرأة،

---

(١) الشيخ عبد الحميد السائح، الإسلام وتنظيم الأسرة، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية، ١٩٧١، جزء ١ ص ١٧٥.

وبمسؤولية أخلاقية تجعله يحميها، فإنه كان يتردد طويلا قبل حل الزواج بالطلاق)) [1].

ويعتقد بعض الرجال والمفكرين العرب أن ازدياد حوادث الطلاق سببه استقلال المرأة العربية اقتصاديًا حيث تحررت المرأة من قبضة الرجل بحصولها على أجر من عملها خارج البيت [2].

وهذا الاعتقاد صحيح فما الذي يدفع المرأة التي تستطيع أن تعول نفسها بنفسها إلى الخضوع والذل داخل الزواج والأسرة الأبوية؟

ويحاول كثير من الرجال العرب مقاومة التغيير الاجتماعي والحاجة الاقتصادية التي تدفع بمزيد من النساء للعمل في المجالات الإنتاج والصناعة والتجارة والمهن

---

(1) نقله عن جريدة الدستور الأردنية في عددها الصادر في يناير ١٩٧١/٩/٨، الشيخ عبد الحميد السائح، الإسلام وتنظيم الأسرة، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية ١٩٧١م. الجزء ١، ص ١٧٥ – ١٧٦، المكتب الإقليمي للشرق الأوسط وشمال أفريقيا، الجزء الأول، ص ١٧٥.

(2) سيد محمد ظفار، المصدر السابق، ص ٢١٨.

المختلفة. لكن تيار خروج النساء أقوى، وما من قوة تستطيع أن تعيد المرأة إلى حظيرة البيت.

ومن الحقائق الواضحة أن الأسرة العربية الكبيرة القديمة قد تخلت عن كثير من وظائفها لمؤسسات الدولة الحديثة. فالمجتمع العربي لم يعد قبائل أبوية. انتزعت الدولة كثيرًا من سلطات الأب والزوج في الأسرة. وسوف تتقلص وظائف الأسرة على الدوام وتتقلص معها سلطة الرجل في الأسرة.

إن الرجل العربي هو الذي كان مكلفًا بحماية أسرته وأمنها. لكن الدولة اليوم أنشأت جهاز الأمن والبوليس الذي يتولى عن الرجل الحماية والأمن وعقاب القتلة.

ومن الصراع الذي ما زال دائرًا بين الرجال والدولة هو الصراع حول الثأر الذي ما زال موجودًا في صعيد مصر. إذا قتل رجل في أسرة صعيدية فلا بد أن يقتل قاتله أو رجل آخر مقابل له في الأسرة الأخرى. والثأر عند العرب لا شأن له بالنساء مما يدل على أنهن لسن أشخاصًا حقيقيين في الأسرة بل مجرد أشياء. المرأة قد تكون سبب

النزاع الذي يولد الثأر فيما بعد، لكنها لا تكون أبدًا ((الدم)) الذي يطالب بالتعويض أو بالثأر له.

وما زال الرجل المصري الصعيد يعتقد أن من العار أن يثار بوليس الدولة له، وأن الشرف هو أن يثأر الرجل دون حاجة إلى جهاز أمن الدولة.

ومن الصراع الذي مازال دائرًا بين سلطة الزوج وسلطة الدولة هو عمل الزوجة وقد رأينا كيف تتعارض قوانين العمل وقوانين الزواج في هذا الشأن.

إلا أنه رغم ذلك فإن الأسرة الأبوية تتخلى شيئًا فشيئًا عن وظائفها القديمة مثل الإنتاج والتشريع والتعليم والعقاب وتنظيم الأسرة وغيرها [1].

وتدل الظواهر في المجتمع الغربي الصناعي المتقدم على أن الأسرة مهددة بالزوال تمامً بعد تلك التجارب المستمرة على الإنجاب الصناعي الذي سيحطم الأسس

([1]) صلاح قنصوه، ((احتمالات زوال مؤسسة الأسرة في مجتمع الدولة)) كلية الآداب، جامعة صنعاء، دراسة قدمت للحلقة الدراسية عن الأسرة والقرابة بالكويت (٢٧ – ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٧٦).

الموروثة للقرابة وعلاقات الدم. وهناك كثير من أشكال الزواج غير القانوني والعلاقات بين الرجال والنساء التي تسن لنفسها قوانينها ومبادئها الجديدة.

وكل ذلك يدل على أن الأسرة الأبوية الكبيرة أو الصغيرة في المجتمعات النامية أو المجتمعات المتقدمة إنما هي مؤسسة ذات قيم ومعايير غير ثابتة [1].

وهذه حقيقة يجب أن توضح لهؤلاء الرجال العرب الذين يتصورون أن الأسرة مقدسة وثابتة منذ الأزل وإلى الأبد، وأن أي مس بها إنما هو مساس بالمقدسات والدين.

ويلعب الدين دورا كبيرا في حماية الأسرة في البلاد العربية إلا أن الدين لم يستطع أن يمنع الدولة من أن تنزع من الرجل كثيرًا من سلطاته داخل الأسرة.

وقد انفصل الدين عن الدولة في المجتمعات الصناعية الغربية المتقدمة وتراجعت سلطة الكنيسة أمام الزحف الرأسمالي والتكنولوجي الذي أطاح بكثير من المقدسات المسيحية والإقطاعية.

---

(1) المصدر السابق.

إلا أن الدين لم يفصل عن الدولة في معظم البلاد العربية الإسلامية وهذا من الأسباب التي تبعد كثيرين من المفكرين العرب عن النقد العلمي أو التحليل الموضوعي للأسرة وما يطرأ عليها من تغيرات واضحة.

فالتفكير الحر في الدين أمر لا يزال محظورًا في معظم البلاد العربية وكذلك التفكير الحر في نظام الحكم والسياسة.

وتتصف معظم الحركات الإصلاحية للمجتمع العربي والإسلامي بأنها لا تغير جوهر المسائل وإنما السطح فحسب.

ولا يمكن أن ننكر أن تطورًا في كثير من المفاهيم التي شاعت عن الإسلام يحث على نحنو مستمر في المجتمع العربي والإسلامي بسبب حركات التجديد والاجتهاد المستنير على يد الرواد من أمثال سيد أحمد خان ١٨١٧ – ١٨٩٨ في الهند والباكستان والحاج سالم (١٨٨٩ – ١٩٥٥ م) في أندونسيا. والشيخ محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥) وطه حسين (١٨٩١ – ١٩٧٣) وقاسم أمين في العالم العربي. ونامق كمال (١٨٤٠ – ١٨٨٨) وتوفيق فكرت (١٨٧٠ – ١٩١٥) في تركيا وحسين علي رشيد في إيران، وعلى يد

الزعماء السياسيين المفكرين من الرجال المسلمين أمثال إقبال (١٨٧٦ – ١٩٣٨) وجمال الدين الأفغاني (١٨٤٧ – ١٨٩٧).

وفي رأيي أن (طه حسين) في مصر كان أكثرهم عمقًا وتحررًا في فكره لكنه اتهم من رجال الدين بالإلحاد فتراجع بعض الشيء وحاول أن يغير أفكاره.

إن سلاح ((الإلحاد)) سلاح قوي يستخدم عند اللزوم لإرهاب أي مفكر حر عميق.

وتمسك بهذا السلاح أيد متعددة. أهمها أيدي الذين ينهبون ثروات الشعوب العربية في الداخل أو في العالم الغربي.

إلا أن الفكر الغربي أصبح أكثر شجاعة في عرض ونقد المشاكل والمظالم التي تعيشها الأغلبية الساحقة من النساء والرجال. وأصبحت المرأة العربية أكثر شجاعة في مواجهة المجتمع. إن المرأة العربية تدرك أن تحررها لن يعني إلا أن تفقد سلاسلها.

إن الحرية لها ثمن، تدفعه المرأة المتحررة من صحتها وراحتها ونظرة المجتمع المعادية لها. لكن المرأة

أيضًا تدفع ثمن العبودية والخضوع من صحتها وشخصيتها ومستقبلها،والأفضل للمرأة أن تدفع الثمن وتكون حرة على أن تدفع الثمن وتظل عبدة.

وفي رأيي أن الثمن الذي تدفعه المرأة في العبودية (رغم الرضا والأمن الاجتماعي) أشد من الثمن الذي تدفعه في التحرر (رغم التهديد وعداء المجتمع) ولا شك أن استردادها لنفسها وشخصيتها وإنسانيتها الكاملة أهم من رضا المجتمع الرجولي عنها.

إن تفوق المرأة التفكر في عمل خلاق بالمجتمع الكبير أهم كثيرًا من تفوقها في الطبخ والغسل وخدمة الأسرة.

لا بد أن يزيد طموح المرأة العربية لتنشد النبوغ في المجال الفكري الذي تختاره.

رغم كل ذلك فإن المرأة العربية تسير نحو التحرر بخطي قد تكون بطيئة، لكنها تسير، وهذه حقيقة هامة لا يمكن إغفالها.

إن من يسير اليوم في شوارع القاهرة أو دمشق أو بغداد أو تونس أو الجزائر أو الرباط أو الكويت يرى هذه

الأعداد المتزايدة من البنات والنساء العاملات في المجـــالات التي كانت مقصورة من قبل على الرجال.

إنهن يسرن بأقدام قد لا تكون ثابتة تمامًا، وقد تكون مترددة بن الاستمرار في العمل أو التفرغ للزواج والبيـــت، وقد تضحي الكثيرات منهن بمستقبلهن الفكري فـــي مقابـــل زوج وبيت زوجية. لكن بعضهن رغم قلتهن أصبحن قادرات على التضحية بالزوج من أجل المستقبل الفكري والعلمي.

إن المرأة العربية مطالبة من أجل أن تتحرر أن تتخذ مواقف شجاعة في حياتها الخاصة والعامة.

عليها أن تجعل من نفسها إنسانة لها عقل يفكر وينتج ويخلق قبل أن يكون لها مهبل ورحم.

عليها أن تدرك أن وظيفتها الأساسية في الحياة هـــي الإنتاج الفكري في أي مجال تختاره.

عليها أن تحارب المنطق الـــذي يقـــول إن الرجـــل للإنتاج والمرأة للاستهلاك فالذي ينتج أكثر إنسانية وشـــرفًا وقيمة من الذي تستهلك.

وعليها أن تحارب المنطق الذي يقـــول إن الرجـــل للعمل خارج البيت والمرأة للعمل داخل البيت.

وعليها أن تحارب المنطق الذي يقول إن الرجل لــه رغبة جنسية أشد من رغبتها أو أنه الإيجابي وهي السلبية.

وعليها أن تحارب المنطق الذي يقــول إن الســبب الأساسي لقهرها وتخلفها هو الإسلام أو الثقافة الشرقية، لأن الثقافة الغربية والمسيحية والأديان الذكورية الأخرى ليســت أقل قهرًا للمرأة بل أكثر قهرًا من الإسلام.

ومن المهم للمرأة العربية أن تــدرس التــاريخ، وأن تدرس المجتمع الأمومي قبل المسيحية وقبل اليهودية لتعرف كيف كانت المرأة بحرية في الإنتاج والعمل وكيف أبعد عن عالم الإنتاج وعالم الرجال والحياة الاجتماعية.

من المهم للمرأة العربية أن تدرس التشابه والخلاف بين الأديان لتعرف أن الاختلافات بين الأديان ليست جوهرية فيما يخص المرأة. بل إن هذه الاختلافات موجود في الــدين الواحد في البلاد المختلفة. فالإسلام في الهند يختلــف عــن الإسلام في الباكستان ويختلف عن الإسلام فــي تــونس أو مراكش أو السعودية. إن كل مجتمع يفســر الــدين حســب أحواله الاقتصادية وحسب تطور نظام الحكم.

ومن المهم للمرأة العربية أن تعرف أن فقدان المرأة لحقوقها وإخضاعها ليس له أسباب دينية تتعلق بالإسلام أو المسيحية أو أي دين آخر. لكن فقدان المرأة لحقوقها جاء لأسباب اقتصادية ارتبطت بتحول النظام الأمومي إلى نظام أبوي طبقي.

ومن المهم للمرأة العربية أن تدرس الأديان القديمة في مصر والهند واليونان. وتحاول أن تفهم كيف ارتبطت فكرة الإله بالمرأة أكثر من الرجل. وإن الآلهة الأنثى كانت ترمز إلى المعرفة والعقل بمثل ما رمزت إلى الخير والوفرة والإنتاج.

من المهم للمرأة العربية أن تعيد دراسة قصة حواء وآدم لتدرك أن حواء ارتبطت بالمعرفة، وهي التي أكلت من الشجرة المعرفة (حسبت نص التوراة) واكتسبت المعرفة قبل آدم، وإن إزيس الإلهة المصرية القديمة كانت إلهة المعرفة والخلق، وهي التي خلقت أوزوريس، وأنها أو ((أثينا)) لم تولد من رأس ((زيوس)).

من المهم للمراة العربية أن تدرس لماذا فسرت مثل هذه الأساطير التاريخية تفسيرًا عكسيًا بحيث صورت المرأة

ناقصة المعرفة وناقصة العقل وزوجها هو عقلهـا. ولمـاذا اختفت حقائق كثيرة في تاريخ البشرية، ولماذا اختفت الآلهة الأنثى من الحضارة التي تعيشها حتى اليوم؟

ومن المهم للمرأة العربية ألا تشعر بـالنقص أمـام النساء الغربيات. أو تظن أن التراث أو الثقافـة الشـرقية أو الثقافة العربية أكثر اضطهادًا للمرأة من الثقافة الغربية.

إن تراثنا فيه الكثير من الإيجابيـات وفيـه أيضـًا السلبيات. وعلى المرأة العربية أن تدرس التراث. وفي تاريخ العرب وفي بدء الإسلام كثير من الأفكـار المتقدمـة فـي نظرتها للمرأة، وهناك أيضًا كثير من الأفكار المعادية للمرأة والتي يجب نقدها وكشفها بموضوعية وعلمية دون خوف من مس المقدسات.

إن أول المقدسات في حياتنا هو الإنسان، والإنسـان امرأة أو رجل. وأول المقدسات هو أن تكون المرأة إنسـانة أولا. أن تكون إنسانة كاملة العقل والجسد.

وأول اعتداء على المقدسات هـو الاعتـداء علـى المرأة، وذلك باستئصال عقلها وادعاء أنها بغيـر عقـل أو ناقصة العقل. واستئصال بعض أجزاء مـن جسـمها مثـل

استئصال العضو الجنسي من جسمها في عادات الختان الشائعة في بعض مجتمعاتنا. هذا هو الاعتداء الأول على المقدسات وهو الاعتداء على الإنسان المرأة وتحويلها إلى أداة ولادة أو جنس أو أداة خدمة أو أداة استهلاك.

ومن المهم أن تدرس المرأة العربية السياسة والاقتصاد بالإضافة إلى التاريخ، وتتابع حركات التحرير في البلاد العربية وغير العربية، لتدرك أن حروب التحرير الشعبية تسرع بتحرير المرأة. لأن حرب التحرير في الجزائر كشفت عن كثير من مشاكل المرأة الجزائرية وأسرعت بوضع بعض الحلول لها من أجل تحرير النساء في الجزائر. وحرب التحرير الفلسطينية تجعل المرأة الفلسطينية تمارس كل الأعمال خارج البيت بما فيها أعمال الحرب والقتال.

وعلى المرأة العربية أن تدرك أن قضية تحرير النساء العربيات ليست قضية إسلامية وليست قضية حرية جنسية، وليست عداء للرجل، وليست ضد التقاليد الشرقية، ولكنها قضية سياسية واقتصادية أساسًا، وهي ضد الأنظمة الاستعمارية داخل المنظمة العربية وفي العالم الخارجي. وهي ضد جميع أنواع القيود والاستغلال الاقتصادي والجنسي والاجتماعي والثقافي والأخلاقي.

الاعتداء على الطفلة البنت

جميع الأطفال حين يولدون أصحاء يشعرون أنهم قد ولدوا ((كاملين)) فيما عدا الطفلة البنت. إنها منذ تول وقبل أن تنطق تدرك من النظرات حولها أنها ولدت ((غير كاملة)) أو ((ناقصة)). ويظل السؤال في ذهنها دائرًا منذ ولادتها حتى موتها... لماذا؟ لماذا يفضلون عليها أخاها الصبي مع أنها مثله، وقد تشعر أنها أكفأ منه في نواح كثيرة أو قليلة.

إن أول اعتداء على الطفلة البنت في مجتمعنا العربي هو عدم الترحيب بقدومها إلى الحياة، وفي بعض الأسر وعلى الأخص في الريف قد يصل عدم الترحيب إلى الاكتئاب أو الحزن أو عقاب الأم بالطلاق أو الغضب بل الضرب. لقد رأيت إحدى عماتي تضرب بكف زوجها لأنها أنجبت البنت الثالثة ولم تنجب ذكرًا، وسمعت زوجها يهددها بالطلاق لو أنجبت المرة القادمة بنتًا أخرى. ومن شدة كراهية الأب للطفلة المولودة فقد كان يسب الأم إذا ما أبدت اهتمامًا بها أو حتى أرضعتها حتى تشبع.

وقد ماتت هذه الطفلة قبل أن تبلغ الأربعين يومًا من عمرها. ولا أدري هل ماتت من الإهمال أم أن الأم كتمت أنفاسها لتستريح وتريح كما يقولون.

ولا تزال نسبة وفيات الأطفال الرضع عالية في الريف وفي معظم البلاد العربية بسبب انخفاض المستوى الاقتصادي والثقافي، وتزيد هذه النسبة بين الأطفال البنات عن الذكور في بعض الأحيان بسبب الإهمال. إلا أن هذه الظاهرة تختفي باطراد باستمرار التقدم اقتصاديًا وثقافيًا [1].

وقد تحظى الطفلة البنت في الأسر المتعلمة في المدن العربية باستقبال أقل كآبة وأكثر إنسانية إلا أنها منذ أن تبدأ تحبو أو تمشي تتربى على الحذر والخوف.

وتواجه الطفلة البنت تناقض المجتمع. ففي الوقت الذي تحذر فيه من أعضائها الجنسية ومن الجنس ومن كل ما يتعلق بالرجال، تربى منذ نعومة أظفارها على أن تكون

([1]) من تقرير وزارة الصحة المصرية ١٩٧١، وفيات الأطفال الرضع كانت في عام ١٩٥٢: ١٢٧ في الألف من المواليد وقد انخفضت هذه النسبة فأصبحت في عام ١٩٦٩: ١١٨,٥ في الألف من المواليد.

أنثى، أو أداة جنس تعرف كيف تكون جسدًا فقط وكيف تزين هذا الجسد وتكسوه أو ترعاه ليجذب الرجل.

والتربية التي تتلقاها البنت في مجتمعنا العربي هي سلسلة من الممنوعات والعيب والحرام. وتكبت الطفلة رغباتها وتفرغ نفسها من نفسها وتملؤها برغبات الغير. إن تربية البنت في حقيقتها ليست إلا غلافها الجسدي الخارجي.

إن هذه البنت الفاقدة لشخصيتها وقدراتها على التفكير بعقلها هي وليس بعقل الآخرين تصبح ألعوبة في يد الآخرين وتصبح ضحية في معظم الأحيان لهؤلاء الآخرين.

ومن هم الآخرون؟ إنهم رجال أسرتها أو غير أسرتها ممن تسوقهم الظروف إلى الاحتكاك بها لسبب أو لآخر. وهؤلاء الذكور أيضًا على اختلاف أعمارهم من الطفولة إلى الكهولة ليسوا إلا ضحايا مجتمع يفضل بين الجنسين وينظر إلى الجنس كإثم وعار ويحرم على المراهقين والشباب (الذين لم تؤهلهم ظروفهم الاقتصادية بعد) أن يمارسوا الجنس إلا من خلال الأحلام الجنسية الليلية.

وهذا هو ما يكتب للمراهقين في المدارس الثانوية [1] (وفي العرف والتقاليد) حيث يحرم على الشاب الذكر ممارسة العادة السرية لأنها خطرة، وخطورتها تساوي خطورة ممارسة الجنس مع المومسات [2]، وليس على الشاب إلا أن ينتظر حتى يمتلئ جيبه ببعض المال الذي يتيح له الزواج.

وحيث إن امتلاء جيب الشاب بالمال القليل أو الكثير (حسب طبقة الشاب) أمر يستغرق بعض السنين من التعليم والعمل وخاصة في المدن حيث أصبح الزواج يتأخر بسبب المدنية، وبسبب ارتفاع الأسعار وأزمة المساكن وتزايد عدد الشباب العاجزين عن الزواج لأسباب اقتصادية. ونتج عن ذلك ازدياد المسافة بين نضوج الشاب بيولوجيًا وحاجته الشديدة إلى الجنس ونضوجه الاقتصادي وقدرته على الزواج. هذه المسافة في المتوسط لا تقل عن عشر سنوات

---

(1) وزارة التعليم المصرية ، كتاب علم النفس المقرر لتلاميذ السنة الثالثة الثانوية القسم الأدبي، تأليف د. عبد العزيز القوصي د. سيد غنيم، القاهرة ١٩٧٦.

(2) المصدر السابق، الفصل ١١، ص ١٢٣ – ١٧٤.

(من ١٥ – ٢٥ سنة) فكيف يصرف الشاب طاقته الجنسية الطبيعية خلال هذه السنوات في مجتمع يحرم العادة السرية (لأخطار صحية) ويحرم المومسات (لأخطار صحية واقتصادية وخاصة بعد أن ارتفع سعر المومسات مع ارتفاع الأسعار وزادت الأمراض التناسلية في بعض البلاد العربية بعد خروج البغاء من تحت إشراف الدولة).

إن الشباب من هؤلاء في معظم الأحيان قد لا يجد أمامه إلا أخته الطفلة البنت التي ترقد إلى جواره في سرير واحد (في الأسر المتوسطة والأسر الفقيرة) فتمتد يده إليها وهي نائمة أو هي يقظة، كلاهما سيان، لأنها حتى وهي يقظة لا تستطيع أن تعترض على أخيها الأكبر، خوفًا من سطوته المكفولة له شرعًا وقانونًا وعرفًا، أو خوفًا من الأسرة أو إحساسًا بالذنب لأنها تشعر أيضًا ببعض اللذة، أو لأنها مجرد طفلة صغيرة لا تدري مما يحدث لها شيئًا.

وتتعرض معظم البنات الأطفال لحوادث مشابهة أو مختلفة حسب ظروف كل طفلة، وقد يكون هذا الشاب الأخ أو ابن العم أو العم أو الخال أو الجد أو الأب، وقد يكون

الخادم أو البواب أو المدرس أو ابن الجيران، أو أي رجل آخر.

وقد تتم هذه الحوادث بغير عنف أو اغتصاب للبنت. وقد تكون البنت قد بلغت من العمر أو الوعي ما يجعلها تقاوم أو تعترض فيتم الاغتصاب بالقوةأو بالرقة والخداع وفي معظم الأحيان تستسلم البنت وتخشى الشكوى لأحد، لأن العقاب في مثل هذه الحالات لا يقع إلا عليها، فهي التي تفقد شرفها وعذريتها أما الرجل فلا يفقد شيئًا وأقصى عقاب يمكن أن يناله الرجل (إذا كان غريبًا عن الأسرة) هو أن يتزوج هذه البنت التي اعتدى عليها.

وإن انكشاف مثل هذه الحوادث نادر بالنسبة لعدد الحوادث التي تقع، وسبب ذلك أن البنت تكتم الأمر من الخوف والخزي. أما في الحالات التي تصرخ فيها البنت أو ينكشف الرجل صدفة أثناء الاعتداء فإن كثيرا من الأسر العربية يرفضون إعلان هذا الأمر والذهاب في قضية إلى المحكمة حرصًا على سمعة الأسرة وشرفها المهدر أن يعلن على الملأ، بل إن القضية حين تذهب إلى المحكمة فإن المحكمة ذاتها كثيرًا ما تحفظ القضية حفاظًا على سمعة البنت

الصغيرة وأسرتها وبذلك ينجو الرجل من العقاب، هذا العقاب الذي يلغي على الفور إذا أبدى الرجل استعداده للزواج من تلك البنت.

وقد سبقت تونس البلاد العربية (كما سبقتها في قوانين الزواج والطلاق والإجهاض) وطورت قانونها الخاص بالاغتصاب، إلا أن القضية تسقط ويطلق سراح الرجل إذا قرر الزواج من الضحية [1].

وفي بحث لي سنة ١٩٧٣ في كلية الطب عين شمس بالقاهرة على ١٦٠ من البنات والنساء المصريات من مختلف الأسر المتعلمة وغير المتعلمة وجدت أن نسبة مثل هذه الحوادث الجنسية التي تقع بين الرجال الكبار والبنات الصغار هي ٤٥% في حالة الأسر غير المتعلمة، وتقل النسبة في حالة الأسر المتعلمة إلى ٣٣,٧% وهذه النسبة

([1]) القانون التونسي رقم ٢١، ١٩٦٩، ٢٧ مارس المعدل للمادة ٢٢٧ (صحيفة العقوبات رقم ١٢، ٢٥- ٢٨ مارس ١٩٦٩، ص ٣٦٩) تنص على أن الرجل الذي يمارس الجنس بغير عنف مع فتاة أقل من ١٥ سنة يحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما وتقل هذه المدة إلى ٥ سنوات إذا كان عمر الرجل من ١٥ – ٢٠ عاما لكن إذا قرر الرجل الزواج من الضحية حفظت القضية وأطلق سراحه.

الأخيرة تزيد عن النسبة التي حصل عليها كينــزي Kinsey في بحثه (١٩٥٣) إذ إنه وجد أن هذه النسبة ٢٤%.

ولا يمكن لي أن أوازن هذه النسبة فـي مجتمعـات وظروف شديدة الاختلاف كالمجتمع المصـري والمجتمـع الأميركي، كما أن هناك فارقًا زمنيًـا بـين البحثـين قـدره عشرون عامًا، كما أن ظروف كل بحث وطرقته تختلف عن الأخرى.

ولا أسوق مثل هذه النسب إلا لأقول لهـؤلاء الـذي يضعون رؤوسهم في الرمال ويدعون أن مثل هذه الحـوادث لا تقع، وإنها إذا وقعت فهي نادرة جدًا، أقول لهـم إن هـذه الحوادث تقع في كل المجتمعات، وإنها تقـع فـي مجتمعنـا العربي، وإن نسبة وقوعها غير قليلة، كما أن الذي يصل إلى علمنا من هذه الحوادث ليس ألا أقل القليل مما يحـدث فـي الخفاء.

وبحكم خبرتي كامرأة وطبيبة تفـتح قلبهـا وعقلهـا لمشاكل الناس أقول بغير مبالغة إن كثيرًا من البنـات فـي مجتمعنا يتعرضن في طفولتهن المبكرة لأشكال متنوعة مـن الاعتداءات الجنسية (ابتداء مـن المـداعبات باليـد إلـى

الاغتصاب الجنسي الكامل) وقد تفقد البنت الطفولة عذريتها وهي لا تدري وتنسى الحادث تمامًا بسبب الظـاهرة التـي سميت في علـم الـنفس ((فقـدان ذكريـات الطفولـة)) lnfantiile anrnesia أو تظل تذكرة كالحلم المزعج، يعذبها ويفتك بصحتها النفسية طوال حياتها، هـذا إذا نجـت مـن العقاب الذي يتربص بها حين تكبر ويكتشف الأهل أو الزوج ليلة الزفاف أنها ليست عذراء.

وكم من طرق معروفة في المجتمعات العربية ريفًـا وحضرًا لتزييف دم العذرية، أو إصـلاح غشـاء البكـارة بجراحة عند أحد الأطباء.

لكن ما أتعس البنت الصغيرة الفقيرة التي لا تعـرف طريق الطبيب وإذا عرفته فيه لا تملك ما تدفع.

وغالبًا ما تكون هذه البنت الفقيرة مـن تلـك الفئـة الكبيرة العدد في مجتمعنا العربي التي تسمى بفئة ((خادمات المنازل)) [1] وهي غالبًا فتاة ريفية فقيرة جاءت من القريـة

---

(1) تمثل هذه الفئة الأغلبية من النساء العاملات تحـت بنـد الخدمات ٨٩,٣ بالمائة من العاملات المشتغلات في الخـدمات يقمـن بالعمل بالخدمة المنزلية كخادمات (المرأة المصرية في عشرين عامـا

إلى المدينة لتخدم في أحد بيوت الطبقة المتوسطة أو تحت المتوسطة أو فوق المتوسطة أو العالية.

وتصبح هذه البنت الصغيرة المتنفس الجنسي الوحيد لمعظم شباب بل أحيانًا أرباب هذه الأسرة. إن الشباب المراهقين يرون أنها أفضل من الأخت أو القريبة أو الزميلة (من حيث الإحساس بالذنب أو الاحترام الطبقي) ويرون أنها أفضل من المومس (من حيث إنهم لا يدفعون لها شيئًا ولا تهددهم بالمرض التناسلي).

أما رب الأسرة أو الزوج المحترم فهو أيضًا قد يتسلل إليها في الليل، حين تسافر زوجته، أو تمرض (أو في فترات الدورة الشهرية أو الحمل أو الولادة) بل أن الزوجة قد لا تكون غائبة، باردة جنسيًا، ومعظم الزوجات باردات جنسيًا بسبب التربية القائمة على الكبت النفسي والعضوي، وبسبب غياب الحب بين الزوجين أو على الأقل التجاوب أو حسن الأسرة أبوية وسلطة الرجل المستبدة تحرم الزوجين معًا من أي فرص للشعور بالتجاوب العاطفي أو الجنسي.

١٩٥٢ – ١٩٧٢)، مركز الأبحاث والدراسات السكانية ، الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء.

وتصبح هذه البنت الصغيرة المتنفس الجنسي الوحيد لمثل هؤلاء الشباب والأزواج والكهول المحـــرومين جنســيًا بشكل أو بأخر. وفي عيادتي الطبية سواء في بيتـــي أو فـــي الجيزة وفي المستشفيات العامة التي عملــت بهـــا ســنوات متعددة، كثيرًا ما صادفني تلك الخادمة الصغيرة التي لا تزيد عن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة وقد ارتفع بطنها فـــي حمل سفاح.

وتصبح هذه البنت الصغيرة في نظر المجتمع فتـــاة حاملا بغير زواج، أي فتاة ساقطة عديمة الشرف. وتواجـــه هذه الفتاة وحدها المجتمع كله، وقد تنهي حياتها بيدها أو يـــد أبيها أو أحد رجال الأسرة، وقد تموت وهي تجهض نفســـها بإحدى الطرق الريفية الخطرة (عود ملوخيـــة تدخلـــه فـــي رحمها) وإذا لم تمت فهي تحاكم لأن الإجهـــاض ممنـــوع بالقانون وإذا نجت من القانون فإنها تعيش حياة ذليلة ويعيش طفلها معها حياة أذل.

أما سيدها البيه أو الشيخ أو الأستاذ المحترم فيظل يعيش في المجتمع الواسع العريض يستمتع بحياتـــه ونجاحـــه وشـــرفه المصون في ظل حماية القانون والشرع والدين والعرف.

العدالة ليست عادلة

إن انكشاف مثل هذه الحوادث نادر جدًا بالنسبة لعدد الحوادث التي تقع وسبب ذلك أن البنت تكتم الأمر من شدة الخوف معًا ثم في الحالات التي تصرح فيها البنت أو ينكشف الرجل صدفة أثناء الاعتداء فإن معظم الأسر ترفض إعلان الأمر والذهاب إلى المحكمة حرصًا على سمعة الأسرة وشرفها.

إن شرف الأسرة كلها برجالها ونسائها وأطفالها قد يهدر لمجرد أن إحدى البنات فقدت غشاء بكارتها. وقد تكون هذه البنت قد اغتصبت ومع ذلك فإن شرف الأسرة كله يمس. لذلك تتكتم معظم الأسر على حوادث الاغتصاب التي تقع لبناتها ولا تقدم الرجل المعتدى للمحاكمة حرصًا على سمعة الأسرة وبذلك ينجو الرجل المعتدي. لكن البنت التي اعتدى عليها تصبح فتاة غير عذراء. أي فتاة بغير غشاء بكارة، وأي فتاة تفقد غشاءها لأي سبب في أي ظرف وإن كان هو الاغتصاب، وفي أي سن وأن كانت هو الطفولة المبكرة فقد حكم عليها إلى الأبد بفقدان شرفها، لأن شرفها

هو غشاؤها، والغشاء الذي ضاع لا يمكـــن أن يعــود مــرة أخرى أبدًا.

وأظن أنه لا يخفى على أحد ما تتعرض له أطفالــه البنات أحيانًا من حوادث اعتداء وقد لا تكون البنت قد بلغت السابعة أو السادسة من العمر وتفاجأ بذلك الشاب أو الرجــل الذي يعتدي عليها وقد يكون هذا الرجل خادمًا أو بوابًا، وقد يكون أحد أفراد أسرتها، وقد يكون الأخ أو العم أو الأب.

ومما يزيد المأساة أن الرجل المعتدي لا يحاول إنقاذ الفتاة إذا تعرضت للعقاب، بل إنه أحيانًا مـــا يشـــترك فـــي العقاب أو يوقعه هو بنفسه على البنت الصغيرة مـــن أجـــل حماية شرفه وشرف أسرته.

وكم سمعنا أو قرأنا عن مثل هذه المآسي التي تحدث للبنات الصغيرات، أذكر منها تلك الحادثة التي قرأناها عـــن العم الذي أحب ابنة شقيقه واتصل بها ثم قتلهـــا بالســـم لأن أخاها عرف الأمر وأرغمه على قتلها منعًا للفضيحة والعـــار

الذي يلوث شرف الأسرة لو أن هذه البنت عاشت وهي غير عذراء (١).

ويدعي هؤلاء الرجال الذين يعارضون تغيير القوانين والتقاليد الجائرة التي تحكم حياة البنات والنساء أنهم يحافظون على القيم الأخلاقية والشرف والدين. هذا في الوقت الذي يرون هذه القيم تنتهك كل يوم وليلة في حياتنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الجنسية، ومع ذلك لا يرتفع صوت أحدهم بالاعتراض، بل إن منهم من يشارك بإيجابية في انتهاك هذه القيم سرًا أو علنًا.

ولعل من السمات التي تميز مجتمعنا العربي هي تلك الازدواجية في القيم، وازدواجية الحياة، بحيث يصبح المجتمع أو للفرد حياتان، حياة علنية يدعي فيها الأخلاق والفضيلة والدين، وحياة سرية ينتهك فيها الأخلاق والفضيلة والدين.

وقد سبق لي في كتاباتي السابقة أن كشفت عن بعض التناقضات الصارخة في حياة مجتمعنا وفي حياة الأفراد من

---

(١) انظر: الأخبار، ١٠ مايو سنة ١٩٧٢ الصادرة في القاهرة صباحًا.

الرجال والنساء. لكن الأغلبية الساحقة من القراء في مصر والبلاد العربية يعلمون أن ما أكتبه وما أعرضه ليس إلا القليل من الأمراض الكثيرة المتفشية عندنا والتي لا يمكن علاجها إلا بمزيد من الشجاعة والصدق في كشفها وتشخيصها ومعرفة أسبابها الحقيقية.

وهناك بعض الناس الذي يخفون رؤوسهم في الرمال، ويدعون أن مجتمعنا ليس فيه تناقضات، وأن كل القيم الأخلاقية والقانونية والتقاليد ولله الحمد كلها على ما يرام، وكله تمام، وليس هناك أبدع مما كان.

وإلى هؤلاء أسوق هذه الحادثة التي نشرتها جريد أخبار اليوم صباح السبت ٢٣ فبراير سنة ١٩٧٤ تحت عنوان: النيابة تأسف لحفظ التحقيق مع المدرس حرصًا على مستقبل ٩ تلميذات صغيرات. وكتبت الجريدة بالحرف الواحد تقول: ((تلميذات صغيرات تتراوح أعمارهن بين السابعة وبين الثانية عشرة... وقفن أمام أمين إسماعيل مهران مدير نيابة شبرا الخيمة تروى كل منهن في براءة... واقعة بشعة: أن مدرس الرسم كان يصحبهن إلى فناء المدرسة... وفي مكان منفرد منزو.. ينفرد بكل واحدة تحت الشجرة

ويحتضنها ويقبلها.. ويأتي معها أفعالا منافية للآداب!.. وقد أمسك مدير النيابة بأوراق التحقيق وقـــرر حفــظ التحقيـــق بالنسبة للمدرس وقال في قرار الحفظ: إنه وإن كانت التهمـــة ثابتة على المتهم بشهادة المجني عليهن التلميذات الصغيرات والتي تطمئن إليها النيابة، الأمر الذي يســتوجب محاكمتـــه جنائيًا بتهمة (هتك عرض!) بنات صغيرات والمعاقب عليها قانونًا إلا أنه نظرًا لصغر سن التلميذات المجني عليهن ولعدم إقحامهن أمام محكمة الجنايات للإدلاء بشـــهادتهن وأقـــوالهن فإن النيابة حرصًا منها علـــى عـــدم تعـــرض الصـــغيرات وتجنبهن ترديد هذه القصص التي جـــرت علـــى أفـــواههن وانطبعت في نفوسهن البريئة الصافية بأثر ســـيئ لا تحمـــد عقباه.. وأمامهن مستقبل مشرق نظيف ينتظرهن! وتأســـف النيابة وهي تحفظ الدعوى الجنائية للمتهم ولسلوكه الشـــائن إزاء تلميذاته الصغيرات وما يجب أن يتصف به المخـــتص في تربية النشء والذي أجمعت الأديـــان الســـماوية والقـــيم والأخلاق الإنسانية على أنه كاد المعلم أن يكـــون رســـولا. وتطلب النيابة من المنطقة التعليمية التي تخضـــع المدرســـة

تحت إشرافها العمل فورًا على نقله من مهنة التـــدريس فـــي مدراس البنات إلى مهنة أخرى [1].

ولا بد أن كل من قرأ هذا الموضوع وفكر فيه بينـــه وبين نفسه لحظة واحدة يدرك على الفور ذلك التناقض الذي يحكم بعض القيم الأخلاقية في مجتمعنا. فكيف تثبت مثل هذه التهمة كما تقول النيابة على رجل بالغ ناضج مع أطفال بنات ثم يُطلق سراحه، وتبرر النيابة ذلك بسبب حرصها على عدم ترديد هذه القصص التي جرت على أفواه البنات الصغيرات وانطبعت في نفوسهن البريئة بأثر سيئ لا تحمد عقباه.. ومع ذلك فما زال أمامهن مستقبل مشرق نظيف ينتظـــرهن! ولا أدري كيف يكون هذا المستقبل في ظـــل الظـــروف والقـــيم الاجتماعية والأخلاقية التي تحكم حياة الأنثى في مجتمعنا!

ولا شك أن هذه الواقعة تدل بوضـــوح علـــى ذلـــك التناقض الشديد الذي يعيش فيه مجتمعنا، وتلك الازدواجيـــة في القيم الأخلاقية التي تحكم الرجال والنساء التـــي تـــروح ضحيتها حياة ومستقبل عدد غير قليل من البنات والنساء منذ

---

(1) انظر: جريدة أخبار اليوم صـــباح الســـبت ٢٣ فبرايـــر ١٩٧٤، الصفحة العاشرة.

الطفولة حتى المراهقة حتى الشباب حتى نهاية العمر. وقد يتصور بعض الناس أن مثل هذه الحوادث قليلة ولكن بحكمة مهنتي كطبيبة وبحكم الدراسات النفسية في السنوات الأخيرة التي أجريتها على مجموعات من البنات والنساء المصريات (من المتعلمات وغير المتعلمات) وكان جزء من هذه الدراسات يبحث في طفولة هؤلاء النساء والبنات، أدركت أن مثل هذه الحوادث غير قليلة، بل وشائعة ولكننا لا نقرأ عنها ولا نسمع إلا قليلا بسبب خجل البنات الصغيرات وخوفهن من التصريح بمثل هذه الحوادث، وإدراكهن أن التصريح بها لن يؤدي إلى أي أذى يتعرض له الفاعل الرجل، وإنما الأذى كل الأذى سيقع عليهن هن، فالضحية في مثل هذه الحالات لا تمس إلا البنت وأسرتها. ولذلك تفضل أغلب الأسر إخفاء مثل هذه الحوادث عن إعلانها، خاصة إذا كان الفاعل أحد أفراد الأسرة، ولهذا لا يذهب إلى القضاء إلا النادر في مثل هذه الحوادث، والذي ينشر في الصحف ونقرؤه هو نادر النادر بطبيعة الحال. إما أن تواجه مثل هؤلاء البنات المشاكل في المستقبل فهذا أمر آخر لا يشغل البال كثيرًا. فالمهم الآن هو تكتم الأمر حتى لا تتردد هذا القصص على

أفواه الصغيرات وتنطبع في نفوسهن البريئة بـأثر سـيء لا تحمد عقباه بطبيعة الحال، ولن يؤثر هذا الأثر السـيئ فـي حياة إحدى هؤلاء البنات الصغيرات! لكننا لا نهتم بكل هذا، فليذهب مستقبل هؤلاء البنات إلى الجحيم، ما دمنـا نحـافظ على الشكل العام، وما دمنا نكتم الأمـر، ونحفـظ التحقيـق والأوراق في الأدراج ونغلق عليها بالمفتـاح، أمـا الرجـل الجاني فنحن نطلق سراحه كجزء من تكتمنا وإخفائنا للحقيقة التي وقعت، فلا يهم أن يطلق سراح رجل اعتـدى علـى ٩ بنات أطفال، ولكن المهم هو أن نحفظ الموضوع طي الكتمان حتى لا تتردد هذه القصص على أفـواه الصـغيرات، إننـا نحفظه مع الأسف، ماذا تفعل كلمة ((مع الأسف)) لمسـتقبل وحياة هؤلاء البنات.

ما مصير هؤلاء البنات (وغيرهن ممـن تعرضـن لمثل هذه الحوادث الخفية المحاطة بالكتمان) لسـت أدري! بل إنني أدري ما الذي سيحدث لهن في المستقبل، وسـوف يقفن في مكانهن في صفوف النساء التعيسـات المريضـات نفسيًا أو المطلقات أو الزوجات المكتئبـات المهجـورات أو بائعات للهوى- في حالة انعدام مورد آخر للرزق.

أما الرجل الذي اعتدى عليهن فلم يحدث له أي أثـر سيئ لا تحمد عقباه. إنه مازال يعمل ويعيش ويرفـع رأسـه بين الناس كرجل محترم وله رجولة. إنه يعـيش فـي ظـل حماية القانون والقيم والأخلاق والعرف لمجرد انه رجل رغم ثبات التهمة عليه. أما البنات التعيسات فعلـيهن أن يلاقـين مصيرهن المحتوم الذي لا يعلمه إلا الله.

لقد آن الأوان لأن نطهر مجتمعنا مـن هـذا الظلـم الفادح الواقع على حياة البنت في مجتمعنـا. آن الأوان لأن تكف البنت الصغيرة عن أن تكون ضـحية رجـل يحميـه المجتمع أخلاقيًا وقانونيًا، مـع أنـه المعتـدي والمحـرض والفاعل، آن الأوان لأن نرفع رؤوسنا من الرمـال ونواجـه التناقضات الأخلاقية في مجتمعنـا بشـجاعة وصـدق، وأن نقضي على تلك الازدواجية في القيم التي لا تتفق مـع أيـة عدالة وإنسانية، ولا مع مبادئ أي دين من الأديان السـماوية أيضًا.

إن هؤلاء البنات التعيسـات سـوف يـواجهن فـي المستقبل عديدًا من المشاكل بطبيعة الحال، وأهمهـا مشـكلة العذرية والشرف. فالمجتمع غير مسئول عن الفتاة أو الطفلة

التي تفقد عذريتها أو شرفها وإن اغتصبت. لأن الضرر الواقع عليها ضرر جسدي لا سبيل لإصلاحه، والرجل الذي سيتزوجها في المستقبل يحق له أن يرفضها، بل يحق له أن يشهر بها اجتماعيًا إذا أراد.

إن المبدأ في القوانين التي تحكم المرأة هي أن الرجل غير مسئول وتسقط حقوق المرأة قانونًا وعرفًا إذا ما حدث لها حادث اغتصاب.

وتشكل مشكلة العذرية أو شرف البنت أهم المشاكل في حياة النساء المصريات والعربيات بصفة عامة وق تعرضت لهذا المفهوم الخاطئ عن الشرف في أبحاثي السابقة. إلا أنني أعود فأكرر هذه المشكلة تؤرق وتفسد الكثير من حياة الفتيات والنساء. بل إن الحكمة قد تفسخ عقد الزواج لأن الزوجة ليست عذراء.

وقد يقول بعض الناس إن مثل هذه الأفكار تسود في الريف فقط، وتنتشر بين الرجال غير المتعلمين. ولكن الحقيقة أن التعليم في المدارس والجامعات لا يغير كثيرًا من عقلية الرجل. وذلك لأخطاء في التعليم نفسه، وأخطاء في التربية، وأخطاء في النظم المسيطرة على المجتمع. ولهذا قد

يحظى الرجل بدرجات عالية في التعليم، وقد يسافر إلى الخارج في بعثات تعليمية ثم يعود إلى مصر يحمل الشهادات ودرجة الدكتوراه ويحمل معها أيضًا عقليته المتخلفة في نظرته إلى المرأة.

وكم سمعنا وقرأنا في الصحف عن حوادث القتل بسبب الشرف والعذرية ولعل آخر ما قرأته في هذا الشأن ما نشر في جريدة أخبار اليوم في ١٩٧٤/٥/١٨ الصفحة العاشرة تحت عنوان: قتل شقيقته ثم اتضح أنها عذراء [١].

عاد المهندس المصري الذي يعمل بألمانيا الغربية بعد غيبته ٥ سنوات إلى مسكن أسرته في إمبابة!

وبعد أيام من لقائه مع أسرته لاحظ انتفاخ بطن شقيقته الجميلة الطالبة بالثانوية – ١٧ سنة –.. وأخذ يتحرى الأمر، ماذا يفعل في شرف العائلة الذي لوثته شقيقته بسلوكها! وأثناء وجوده بمفرده في الشقة أخذ يبحث في غرفة نوم شقيقته فعثر في دولابها على زجاجة دواء أخذها وذهب

---

(١) انظر: جريدة أخبار اليوم الصادرة في ٦ مارس ١٩٧٦، الصفحة العاشرة تحت عنوان: ((محكمة الاستئناف تفسخ عقد زواج لأن الزوجة ليست عذراء)).

إلى إحدى الصيدليات وأخبره الصيدلي أن الدواء خاص بالسيدات الحوامل اللائي يرغبن في إجهاض أنفسهن. وصعق الشقيق وتأكدت شكوكه في سلوك أخته! وواجه المهندس شقيقته بزجاجة الدواء التي في دولابها وشكوكه.. ولم يتمالك المهندس نفسه فجرى إلى المطبخ وأحضر سكيناً وأخذ ينهال بها على شقيقته حتى سقطت تلفظ أنفاسها الأخيرة! وتولت النيابة التحقيق وأمرت بحبسه. وجاء تقرير الطبيب الشرعي بالصفة التشريحية أن شقيقته عذراء وليست حاملا!

وفي المعارضة في حبس المهندس أمام محكمة جنايات الجيزة ترافع أحمد ناصر المحامي فقال: إن المهندس كان يعيش في خط وهمي وأنه توهم أن شرفه وشرف أسرته تلوث وأكدت له الظواهر واعتراف شقيقته عدا الشك فالمهندس قتلها دفاعًا عن نفسه وشرفه.. وأمرت المحكمة بالإفراج عن المهندس بلا ضمان!

وفي الوقت الذي تفرج فيه المحاكم عن القتلة من الرجال من أمثال المهندس المتعلم، وأمثال ذلك المدرس الذي اعتدى جنسيًا على تلميذات فصله وهن ما زلن في سن

الطفولة، في الوقت الذي تفرج فيه المحاكم والقوانين عن هؤلاء الرجال وأمثالهم ممن ينتهكون الأخلاق والشرف الإنساني والعدالة في كل يوم وليلة إذا بها تتشدد في عقاب نساء بريئات أو فتيات ساذجات، أو زوجات مغلوبات على أمرهن وفي الوقت الذي يطلق فيه سراح مدرس اعتدى جنسيًا على تلميذات فصله تعاقب بشدة مدرسة لمجرد أنها دخلت على زميلتها الحمام وهي عارية دون استئذان، أو تعاقب المدرسة بشدة لمجرد أنها أخذت التلميذات أثناء رحلة وجلست بهن على الكازينوهات [١].

ولست بصدد التعرض مرة أخرى إلى المهازل الأخلاقية التي تحدث تحت ستر عقد الزواج، وكيف يبيع الآباء بناتهم الصغار باسم الزواج لرجال عجائز أو مرضى أو فاسدي الأخلاق. وكم قرأنا عن مثل هذه الحوادث التي أصبح الزواج فيها ليس إلا نوعا من البغاء المقنع بالعقد الشرعي.

---

(١) انظر: جريدة أخبار اليوم، الصفحة العاشرة الصادرة في يوم ٩ أغسطس ١٩٧٥.

ولعل آخر ما قرأته في هذا الصدد ما نشر في جريدة أخبار اليوم في ٢ أغسطس ١٩٧٥ الصفحة العاشرة تحت عنوان: ((لأن طفلة تزوجت، قبضت النيابة على الأب والأم: ثار الشك حولها عندما تقدمت بطلب استخراج جواز سفر لمصاحبة زوجها إلى الخارج! قدمت شهادة ميلاد تفيد أن سنها ١٨ سنة... في حين أنها تبدو طفلة..

طلب المقدم عادل شعبان رئيس قسم رعاية الأحداث إجراء التحريات اللازمة كلف العقيد عبد الحميد منصور مدير إدارة البحث الجنائي بالنيابة الرائد محمد شريف عبد الرازق بالذهاب إلى مركز البدرشين بالجيزة للبحث وإجراء التحريات عن الزوجة الصغيرة.

وكشفت التحريات أن أحد الأشخاص بالحوامدية أغرى والد الطفلة بتزويجها من أحد كبار السن في الخارج في مقابل مهر كبير... وقام بتزوير شهادة ميلاد الطفلة (١٢ سنة) إلى ١٨ سنة. وتبين أن نفس الشخص سبق له عقد زيجات مختلفة بنفس الطريقة)).

وكم يسيء الآباء استخدام سلطتهم على بناتهم الصغيرات أو الكبيرات، وكم يكون هذا الأمر مدمرًا لحياة

البنت أو مستقبلها خاصة في مجتمعنا حيث تكون الأسرة أبوية قانونًا وشرعًا، وحيث سلطة الأب مطلقة على ابنته، فلا يستطيع التدخل بينهما أحد ولا حتى القانون نفسه، بل كثيرًا ما يقف القانون مع الأب المخطئ ضد الابنة البريئة السلمية الموقف.

ولعل هذه الواقعة التي نشرت في جريدة أخبار اليوم في ٥ يناير ١٩٧٤ تؤكد هذه الحقيقة. كتبت الجريدة تحت عنوان: حكمت المحكمة بالطلاق لأن الفتاة تزوجت بدون موافقة الأسرة، الزوجة بلغت سن الرشد.. فتزوجت بدون رضا أهلها ولكن المحكمة حكمة بتطليقها من زوجها لأن الفتاة أحبت الشاب وتزوجته بحضور الماذون وشاهدين (أي عقد الزواج كان سليمًا من الناحية القانونية والشرعية) وتقدم والد الفتاة يطلب فسخ العقد لأنه تم بغير موافقته، وقرر الزوجان أمام النيابة بأنهما تزوجا بإرادتهما.. وقالت الزوجة أنها بلغت من العمر عشرين عامًا وأصبح لها الحق والحرية في اختيار شريك حياتها الذي رفضته أسرتها عندما تقدم إليها لأنه فقير.. وقررت النيابة حفظ التحقيق في شكوى الأب، لعدم وجود جريمة فالزوجة بلغت سن الرشد ومن

حقها أن تمارس عقد زواجها بنفسها. ولجأ الأب إلى محكمة جنوب القاهرة للأحوال الشخصية يطلب الحكم بتطليق ابنته من زوجها لأنها تزوجت بغير موافقته. وحكمت محكمة جنوب القاهرة للأحوال الشخصية برئاسة عبد الرحمن البرقوقي بتطليق الزوجة من زوجها وقالت في أسباب الحكم أنه وإن كان القانون لا يمنع مثل هذا الزواج لأن الزوجة بلغت سن الرشد وأصبح من حقها أن تباشر عقد زواجها بنفسها، لكن العرف والتقاليد في بلادنا تمنع مثل هذا الزواج المقضي عليه بالفشل لأن الفتاة تصرفت بعاطفتها دون عقلها وثم تأخذ برأي أسرتها التي ترى مصلحتها في زوج المستقبل الذي يكفل لها الحياة، وقد جرى العرف والتقاليد التي ترى مصلحتها في زوج المستقبل الذي يكفل لها الحياة، وقد جرى العرف والتقاليد في مجتمعنا الشرقي على أن يكون الأب أو العم أو أحد أسرة وكيلا لها في عقد الزواج (١).

---

(١) انظر: جريدة أخبار اليوم صباح السبت ٥ يناير سنة ١٩٧٤ – الصفحة العاشرة.

وقد يتساءل البعض أين التناقضات هنا؟ ولكن الذي يقرأ القصة مرة أخرى يدرك على الفور هذه التناقضات الواضحة.

١- التناقض بين بنود القانون الرسمي والشرعي وبين التقاليد والعرف، ففي الوقت الذي يبيح فيه القانون للفتاة البالغة الرشد اختيار زوجها بنفسها تمنع التقاليد والعرف هذا الحق للفتاة البالغة الرشد.

٢- رغم وضوح القانون فإن المحكمة لم تأخذ برأي القانون وإنما أخذت برأي العرف وحكمت بتطليق الفتاة من زوجها، وهذا اعتداء صارخ من هيئة قانونية على القانون ذاته، مما يدل على أنه فيما يتعلق بحرية المرأة وإرادتها فإن التشديد واجب إلى حد مراعاة العرف حين يبيح القانون الحرية، والالتزام بالقانون حين يبيح العرف شيئًا من هذه الحرية.

٣- التناقض بين موقف الأب وتصرفاته العملية ضد ابنته وضد مصالح حياتها بتطليقها من زوجها بعد الزواج رغم إرادتها، وهذا الموقف الذي وافقت عليه المحكمة بتناقض ومفهومنا النظري للأبوة، ومشاعر الأبوة، وحرص

الأبوة على صالح الأبناء والبنات. ولا أظن أن هناك من يقول بأنه من صالح فتاة بالغة الرشد أن تطلق رغم أنفها من زوجها الذي تحبه ويحبها لمجرد أنه زوج فقير كما قالت الزوجة.

٤- هذا الزوجة أحبت زوجها واحترمته رغم انه فقير، وهذا الموقف من الزوجة يتفق مع مبادئنا النظرية ومع أخلاقيات الدين الإسلامي، وكل الأديان السماوية، ومع ذلك فلم يكن جزاؤها على الإيمان بهذا المثل إلا التفريق بالقوة بينها وبين زوجها وفسخ عقد زواجها منه. وهذا تناقض صارخ تقع فيه كثير من أسرنا. فإن الآباء والأمهات يلقنون أطفالهم منذ الصغر مبادئ الدين الذي يساوي بين الفقير وبين الغني وأنه لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، ثم حين يأتي موعد الزواج ينسى الآباء والأمهات هذه المبادئ ولا ينشغلون إلا بالتقصي عن عدد الجنيهات التي يكسبها العريس وإذا بهم يناقضون أنفسهم ويشجعون بناتهم على قبول الغني ورفض الفقير، ويا ليت الأمر يقف عند حد التشجيع ولكنهم يتدخلون ويفرضون على البنات أزواجًا لمجرد المكسب التجاري (بعبارة أخرى يبيعون بناتهم باسم الزواج وهم

بذلك يضربون مثلا سيئًا لبناتهم يشجعونهن على بيع أنفسهن للرجل الذي يدفع أكثر وهذا هو جوهر البغاء) بل أحيانًا ما يسعون كما فعل الأب السابق إلى استغلال العرف أو القانون لتحطيم حياة بناتهم ويحدث كل ذلك تحت ستار التقاليد والقيم المتناقضة التي تغير أشكالها وألوانها حسب كل ظرف وحسب كل حالة. ولا يدفع ثمن كل هذا إلا البنت المسكينة التي يذهب مستقبلها وحياتها وسعادتها وصحتها النفسية والجسمية ضحية هذه التناقضات التي نقرؤها ونسمع عنها كل يوم ومع ذلك نفعلها ويشترك فيها أيضا كل يوم.

إن مجتمعنا المصري والعربي ملآن بالتناقضات التي تنعكس آثارها على حياة البنات والنساء أكثر من حياة الرجل. وذلك بسبب التفرقة بين الجنسين وازدواجية القيم والقوانين التي تحكم النساء والرجال سواء في العمل أو الزواج أو الحب أو الطلاق أو الشرف.

وتسبب هذه التناقضات للبنات والنساء كثيرًا من المشاكل الاجتماعية والنفسية وقد تعرضت الكثيرات منهن لأمراض نفسية وعصابية مختلفة. ولهذا علينا ألا نندهش حين نلمس ارتفاع نسبة النساء العصابيات، وخاصة بين

ذوات العقل الذكي القادرات على إدراك التناقضات والإحساس بوطأتها. وفي البحث الذي أجريته في جامعة عين شمس وجدت أن نسبة الأمراض العصابية بين الطالبات أعلى منها بين الطلبة. كما وجدت أيضًا أن الفتيات المثقفات الذكيات أكثر عرضة للعصاب من الفتيات الأقل ثقافة وذكاء.

ولا شك أن الإنسان المثقف الذكي أكثر قدرة على إدراك عيوب المجتمع، وأكثر قدرة على إصلاحها إن استطاع، وإن لم يستطع فهو أكثر عرضة للمعاناة النفسية من ذلك الشخص الآخر الذي يتصور أن عيوب المجتمع، وأكثر قدرة على إصلاحها إن استطاع، وإن لم يستطع فهو أكثر عرضة للمعاناة النفسية من ذلك الشخص الآخر الذي يتصور أن عيوب المجتمع وماسية ليست إلا إرادة الله أو حكم القضاة والقدر.

ولهذا يعاني الأذكياء في مجتمعنا من التناقضات التي تحكم المرأة، والتي تؤثر بطبيعة الحال على حياة الرجل، وحياة الأطفال، ومن ثم حياة المجتمع كله.

وقد نشرت الصحف عدة مرات عن ظاهرة هؤلاء الأذكياء من الشباب الذين تعرضوا للأمراض النفسية. وحينما

ندرس حياة بعض الشبان نجد أن تلك الحيرة وذلــك القلــق العميق إزاء ما يبدو لهم من تنــاقض بــين القــيم الدينيــة والأخلاقية وبين ما يشعرون من رغبات أو ما يمارسونه في حياتهم اليومية أو ما يشاهدونه ويسمعونه في أجهزة الإعلام وفي الحياة الاجتماعية اليومية.

وقد نشرت جريدة الأخبار [1] صباح يوم ٢٧ ينــاير سنة ١٩٧٤ موضوعًا ثم أتبعته بعدة موضوعات في الأيــام التالية تحت عنوان: أبحث عن هذا الطالب العبقري... آخــر مرة شوهد فيها طويل الذقن. حافي القدمين يتسول من الناس ليعيش. وتحكي الأخبار قصته. فهو شاب ذكي متفــوق فــي كلية الهندسة وهو كما تقول أسرته كان متدينًا جدًا لدرجة انه كان يرفض أن يصافح زميلاته أو يــتكلم معهــن لأن هــذا حرام.. ثم وقع هذا الشاب في حب زميلة له، وتصور أنهــا تبادله هذا الحب لأنها كانت تعامله بذوق ورقة وأدب. لكــن هذه الزميلة كانت تعامل كل زملائها بــذوق ورقــة وأدب، وكانت تحب رجلا آخر تزوجته وسافرت معه إلى الخــارج. وهنا حــدثت الصــدمة لهــذا الطالــب وأصــيب بمــرض

([1]) انظر: جريدة أخبار اليوم ٢٧ يناير ١٩٧٤، الصفحة الثالثة.

(الشيزوفرينيا) كما كتبت الجريدة. وفي نهاية الموضــوع تتساءل الجريدة هل هناك أمل في شفاء أحمــد؟ وتكتــب أن الأطباء النفسيين يقولون أن الأمل كبير في الشفاء من هــذا المرض ولكن مراحله الأولى... أي بعد الصدمة التي تسببت ولكن المريض الذي في حالة ((أحمد)) يحتاج إلى رعايــة مستمرة ورقابة على ممارسة أي نوع من الألعاب الرياضية وخصوصًا في فترة المراهقة حتى لا ينحرف تفكيرهم إلــى نواح قد تسبب لهم في الكبر عقدًا يصعب حلها...)).

ولست أعرف كيف يمكن (طبيًا وعلميًا) أن نعــالج التناقض بين القيم الأخلاقية والاجتماعية في عقول الشــابات والشباب الأذكياء بالرياضة البدنية ومباريات التــنس وكــرة القدم والكرة الطائرة. بل كيف يمكن أن نعــالج مثــل هــذه التناقضات الاجتماعية بالصدمات الكهربية كــالتي نوجههــا على رؤوس الشباب كجزء من العلاج النفسي. كيف يمكــن أن نترك جذور أسباب الأمراض النفسية بغيــر عــلاج، ولا نهتم إلا بعلاج الأمراض الظاهرة بالحقن والكهرباء وغسيل المخ.

إن الذي يدرس أسباب الأمراض النفسية بين الذكور والإناث في مختلف مراحل العمر في مجتمعنا يجد أمثلة متعددة لتلك القصص التي عرضتها الصحف عن الشباب الأذكياء، أمثلة متعددة بين الرجال والنساء والبنات الذكيات، وعلينا بدلا من أن نوجه العلاج إلى رأس المريض أو المريضة أن يتجه الفحص والعلاج إلى المجتمع وإلى التقاليد والقيم والقوانين المتناقضة التي يرفضها العقل الذكي وخصوصًا تلك القيم والتقاليد التي تقترب من النواحي الحساسة [1] في مجتمعنا.

إن الإنسان وحدة كاملة، وليس هناك فاصل بين العقل والجسم. ولهذا فإن الإنسان ذا العقل الشديد الذكاء يتصف بأن كل ما فيه أيضًا شديد سواء كان رغبات عاطفية أم جسمية. وبما أن الوجه الآخر للكبت الشديد أو الانفجار الذي يظهر على شكل الاضطراب النفسي فإن شدة الذكاء أحيانًا ما تكون صفة يدفع الإنسان ثمنها غاليًا جدًا خاصة إذا كان امرأة.

---

(1) انظر: جريدة الأخبار الصادرة في ٣٠ يناير ١٩٧٤، تحت عنوان: علاج طالب الهندسة العبقري في مستشفى خاص.

وإني أختلف مع هؤلاء الذين يرون أن علاج مثـل هذه المشاكل والتناقضات يكون بتحريك عضلات الجسم في الهواء المطلق أو الرياضة البدنية، ولست أعتقـد أيضـا أن العلاج هو أن نقتل في هؤلاء الأذكياء والذكيات شعلة الذكاء بالجلسات الكهربية أو غسل المخ أو بالتحليل النفسي الـذي يحاول إقناعهم بالتكيف مع هذه التناقضات والتسليم بها كنوع من القدر المحتوم الذي لا يمكن تغييره.

إن العلاج في رأيي لا يكون علاجًـا حقيقيًـا إلا إذا تناول الأسباب الحقيقية للمشاكل وأن تسعى العقول المفكـرة الناضجة الشجاعة، لإيجاد الحلول لتلك التناقضات الصارخة التي لا زلنا نعيشها.

ولا شك في أن النسـاء والبنـات أكثـر تعرضًـا للتناقضات الموجودة في مجتمعنا.

فالمرأة في معظم الأحيان هي التـي تقـع ضـحية التناقضات، وكونها أنثى بالمفهوم الأخلاقي والاجتماعي فهي فريسة تناقضات المجتمع الأخلاقيـة والاقتصـادية. ومـن المعروف أن قـيم المجتمـع الأخلاقيـة تتنـاقض وقيمـه الاقتصادية. مثلا أن جسد المرأة يجب أن يعـرى ويكشـف

بطريقة مثيرة جدًا في الإعلانات التجارية وفي الأفلام التجارية وفي الرقصات والأغاني والفنون التجارية.

ولا شك في أن النساء الفقيرات يدفعن ثمن هذا التناقض أكثر من نساء الطبقة العليا، وكثيرًا ما تنجو المرأة الثرية من أزمات أخلاقية قد تكلف المرأة الفقيرة حياتها كلها. وقد تضطر المرأة الفقيرة من أجل أن تطعم أطفالها أن تبيع جسدها. ولا يحاول أحد أن يحاسب أو يعاقب المسئولين عن الفقر أما العقاب فيقع على المرأة المسكينة وحدها.

وبرغم انتشار تجارة الجسد في مجتمعنا في السنوات الأخيرة بسبب حدة المشاكل الاقتصادية إلا أن القانون المصري ما زال حتى اليوم يعاقب النساء المشتغلات ويطلق سراح الرجال الذين يمارسون هذا العمل نفسه.

وكم قرأنا في الصحف عن هذه الحوادث، ومنها ما نشر في جريدة الجمهورية في ٢٨ أغسطس ١٩٧٥ تحت عنوان ((عندما يمارس الرجل أعمالا منافية للآداب مع المرأة، هي تدخل السجن وهو يحكم ببراءته)) : كتب فؤاد الشاذلي:

((أكثر من ٣٠٠٠ جنحة آداب بين دعارة وتحريض على الفسق وغدارة منازل للدعارة سجلتها محاضر الشرطة والنيابة في عام واحد.. وفصلت المحاكم في ٩٠% منها ولكن القضاة أنفسهم يشعرون أن الأحكام غير عادلة.. وعذرهم أنهم يطبقون القانون الذي يعتبر الرجل الشريك في الجريمة شاهدًا ولا يحكم عليه بأية عقوبة، ولنستعرض نماذج من القضايا التي نظرتها المحاكم أخيرًا.

اتصل شاب بشرطة النجدة يدعي أنه اتفق مع فتاتين من الساقطات لممارسة الجنس مقابل ٤٠ جنيهًا وطب منهما مرافقته إلى أحد الفنادق بشارع ٢٦ يوليو ولكنهما رفضتا لأنهما كانتا تعتقدان أنه ينزل بشقة مفروشة.. وطلب الشاب ((المتبجح)) معاونته في تنفيذ الاتفاق أو استرداد النقود.

وحضرت سيارة النجدة وقبضت على الفتاتين واقتادتهما إلى الشرطة التي أحالتهما إلى التحقيق فاعترفتا باحتراف الدعارة كسبيل للتعيش وقضت المحكمة بحبسهما أما الشاب فقد أخلي سبيله فورًا!

واقعة أخرى سجلتها محاضر شرطة الأزبكية.. ((الشاهدة)) فيها شاب عربي يقيم بشقة بشارع زكي اتصل

بالشرطة يستنجد من وجود فتاتين بشقته قامت بينهما مشاجرة استعملتا فيها زجاجات الويسكي الفارغة وحطمتا أثاث الشقة.. قبضت الشرطة على الفتاتين فاعترفتا باحتراف الدعارة وقالت إحداهن أنها فوجئت بزميلتها تقتحم شقة الزبون دون سابق اتفاق وأن في ذلك منافسة ((غير شريفة)) لها فلم تجد أمامها إلا ضربها..

- وأحيلتا إلى النيابة التي قدمتهما للمحاكمة فقضت بحبسهما.. أما الشاب فقد أخلى سبيله فورًا وخرج من قسم الشرطة وكأن شيئًا لم يكن!

- والعينات الغريبة من هذه القضايا لا تنتهي.. فقد ترك أحد أعيان المنيا مفتاح شقته مع بواب العمارة المملوكة له ثم توجه إلى المصيف مع أسرته.. وعاد ابنه قبل الموعد المحدد بيومين للتنبيه على البواب بتنظيف الشقة.. لكنه فوجئ بالشقة مغلقة من الداخل فكسر الباب حيث وجد البواب وصاحب محل حلاقة وأحد الشبان الخنافس ومعهم فتاة من الساقطات فأعاد إغلاق الشقة عليهم واستنجد بالشرطة التي أفرجت فورًا عن الخنفس.. وصاحب محل الحلاقة لأنهما في نظر القانون مجرد شاهدين رغم اعترافهما)).

اللا أخلاقية في القيم الأخلاقية

من الكلمات التي استخدمت على نحو خاطيء هي كلمة مومس. وقد أطلقت على المرأة التي تدفعها ظروفها الاقتصادية إلى ممارسة الجنس مع الرجل مقابل شيء من المال. واعتبرت هذه المرأة فاقدة للشرف والأخلاق مع أنها ليست إلا ضحية مجتمع ذكوري طبقي مزدوج القيم والأخلاق، ولم يدفعها إلى هذا العمل إلا المجتمع نفسه والرجال أنفسهم، والفقر نفسه.

وفي رأيي أن الآباء الذين يبيعون بناتهم بالمهر الغالي تحت ستار عقد الزواج هم الذين يجب أن يطلق عليهم اسم مومس لأنهم ينتهكون الشرف الحقيقي والأخلاق الحقيقية حين يتاجرون ببناتهم، ويفرضون عليهن أزواجًا بغير رغبتهن لمجرد قبض المهر أو الهدايا وهم أيضًا لا يتبعون الدين لأن الإسلام يقول أن أفضل الرجال أتقاهم وليس أكثرهم مالا. ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [1] والحديث

---

(1) القرآن، سورة الحجرات، الآية ١٣.

المعروف يقول:"**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه. إن لم تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**"

والشرف في جوهره ضد الإجبار وضد العبودية وضد المتاجرة في النفوس سواء كانوا عبيدًا أو نساء أو أطفالا.

الشرف في جوهره ضد تحويل الإنسان إلى أداة شيء أو بضاعة. وعلى هذا فإن قانون الزواج في مجتمعنا الأبوي الطبقي ضد الشرف الحقيقي لأنه حول المرأة إلى بضا تشترى بالمهر وتباع بالنفقة وأحيانا تباع بلا شيء على الإطلاق كما يتضح من المادة ٦٧ من قانون الزواج في مجتمعنا المصري التي تنص على الآتي: ((لا تجب النفقة للزوجة إذا امتنعت مختارة عن تسليم نفسها. كما لا تستحق النفقة إذا حسبت ولو بغير حق أو اعتقلت أو اغتصبت أو ارتدت، أو منعها أولياؤها، أو كانت في حالة لا يمكن الانتفاع بها كزوجة)).

إن وضع الزوجة هنا أقل من البضاعة، لأن البضاعة مهما حدث يظل لها ثمن، بخس أو غير بخس إلا أنه ثمن، أما الزوجة التي تحبس ولو بغير حق أو يغتصبها

رجل أو تمرض فإن من حق زوجهـا أن يطلقهـا وتسـقط نفقتها.

وحينما تطلق المرأة بسبب أو بغير سبب فإن ثمنهـا ينخفض في سوق الزواج كأي سـلعة يـنخفض ثمنهـا إذا استعملت من قبل.

لقد أهدر المجتمع الأبوي الطبقي إنسـانية الزوجـة وحولها إلى سلعة، بل إلى أبخس السلع ثمنًا. فالخادمة التـي تؤجر لتنظيف البيت أو رعاية الأطفال تنال عن عملها أجرًا أما الزوجة فلا تتقاضى أجرًا والمومس التي تعطي الرجـل اللذة الجنسية تتقاضى أجرًا أما زوجته فلا تأخذ شيئا.

ويخدع المجتمع الزوجة وذلك بأن يوهمها أنها إنمـا تعلم في بيتها وأسرتها وأطفالها ويحيط هذه الأعمال بهالة من الكلمات الجوفاء، فالبيت مملكة المرأة والأم المثالية هي التي تضحي من أجل أطفالها والزوجة المثالية هي التـي تطيـع زوجها وتخدمه. وهذا كله خداع لأن البيت والأطفال والأسرة ملك للرجل لا للمرأة، وأعمال الخدمة مـن كـنس وطـبخ وغسيل ليست أعمالا محترمة في المجتمع بدليل أن المجتمع لا يحترم من يقومون بها ولا يجزيهم عليها إلا أقل الأجـور

وأبخسها إنها أحط الأعمال في سلم الحياة الاجتماعية، وهي أعمال لا تحتاج إلى ذكاء أو مهارة، إنها أعمال قذرة تغوص فيها اليدان طوال الوقت في الماء والبصل والثوم والقذارة.

إن المجتمع يستغل الزوجة أكثر مما يستغل الأجير أو العبد نظير أنه يمنحها شرف الزواج برجل وهو شرف وهمي، لأنه قائم على الاستغلال وقائم على التجارة، وقائم على تحويل النساء في سوق الزواج إذا ما فتحن عيونهن على هذه الحقيقة، لأن الشرف الإنساني يشترط في أول شروطه أن يكون الإنسان إنسانًا وليس بضاعة تشترى وتباع بأي ثمن.

إن المجتمع الأبوي الإقطاعي أو الرأسمالي الذي يحول الإنسان إلى بضاعة مجتمع إنساني وغير شريف. وإن الإنسان الذي يقبل على نفسه أن يكون بضاعة إنما هو إنسان فقد إنسانيته وفقد شرفه.

لكن المجتمع الاستغلالي يتسم دائمًا بالقيم المعكوسة، فالشرف الاجتماعي السائد في حقيقته فقدان لأهم مقومات الشرف. والعدالة التي يتشدق بها المجتمع ليست في حقيقتها

إلا أشد أنواع الظلم، والحب الذي يترنم بـــه لـــيس إلا قمـــة الاستغلال والامتلاك.

إن هذه القيم المعكوسة هي النتيجة الطبيعية لمجتمـــع قائم على الربح. ربح الأقلية التي تملك، واستغلال الأكثريـــة التي لا تملك إلا عرقها وجسدها تبيعه أبخس ثمن في ســـوق العمل أو سوق الزواج أو سوق البغاء.

وبرغم أن قوانين السوق جميعًا غيـــر أخلاقيـــة لأن هدفها القرش وليس الإنسان إلا أن سوق البغاء وحدها هـــي التي حرمها المجتمع من الأخلاق ومن الشرف.

وهو لم يحرم السوق كله من الأخلاق والشرف، لقد حرم النساء فقط. أما الرجال فإنهم يمارسون الجنس في سوق البغاء دون أن يحرمهم المجتمـــع مـــن الشـــرف، ودون أن يعاقبهم القانون، ودون أن يطلق عليهم كلمة ((مـــومس)). أما النساء فهن وحدهن اللائي يقع عليهن العقاب والعار. بل إن العقاب والعار يمتد ليشمل الأطفال الذين يولدون في سوق البغاء أو في سوق العشق، ويطلق علـــيهم الأطفـــال غيـــر الشرعيين أو اللقطاء.

إن المجتمعات التي تفرق بين الأطفال وتعاقبهم على ما حدث قبل ولادتهم إنما هي مجتمعات بلغت أشد أنواع الظلم والاستغلال لأنها تصدر حكمًا على أبرياء صغار لم يشتركوا في الفعل الذي جاء بهم إلى الحياة.

وهذا أكبر دليل على أن مجتمعنا الذي نعيش فيه لا يمارس شيئًا من العدالة التي يتشدق بها، وإنما هي كلها كلمات جوفاء لا يراد بها إلا التغطية على الظلم والاستغلال الواقع في الحقيقة. إن مؤسسة الأطفال غير الشرعيين ليست إلا مظهرًا من مظاهر التناقض الأخلاقي والإنساني للمجتمع الذكوري الطبقي. لكن شهوة السلطة والمال تفقد الملاك والحكام المنطق وتصبح قوانينهم متناقضة وتنتج عنها ظواهر غير إنسانية وقيم عكسية. ففي الوقت الذي يدعى فيه الأب الإنسانية والأبوة والحب في علاقته بأطفاله تجد أن هذا الأب نفسه يقسو ويتنكر لأطفاله. لماذا؟ لأن أطفاله من النوع الأول ولدوا من المرأة التي اختارها الرجل للزواج أما أطفاله من النوع الثاني فقد ولدوا من المرأة التي اختارها للعشق فقط. وإن الرجل في كلتا الحالتين (الزواج أو العشق فقط) هو الذي يختار و هو الذي يحدد العلاقة زواجًا أو عشقًا فقط.

وتبرز في التاريخ ظاهرة الأطفال غيـــر الشـــرعيين كوصمة عار في جبين هذه الحضارة الذكورية الطبقية. و قد اضطرت بعض المجتمعات الرأسمالية المتقدمـــة، أن تعـــالج هذه الظاهرة بفكرة ((التبني)) التي شاعت في بعض البلاد الغربية، كما أن استغلال النساء العاملات بأجر قـــد فـــرض على بعض المجتمعات الصناعية المتقدمة أن تعطـــي لـــلأم الحق في منح اسمها لطفلها وأصبح اسم الأم يتمتع بالشـــرف والشرعية التي يتمتع بها اسم الأب.

لكن المجتمع الإسلامي يحرم التبني، وفي الإسلام لا تثبت البنوة ولا أية علاقة نسبية أخرى عن طريق التبنـــي. وأوجب الإسلام أن يدعي كل إنسان إلى أبيه تفســـيرًا لهـــذه الآية [1].

﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم، ذلك قولكم بـــأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ﴾.

([1]) القرآن، سورة الأحزاب، الآية ٤،٥.

إلا أن تونس سبقت البلاد الإسلامية في وضع نظـــام للتبني. ولا تزال قوانين الأسرة في البلاد العربية الأخـــرى تحرم التبني.

ومن كثرة الأطفال غير الشـــرعيين بســـبب حريـــة الرجال الجنسية فقد شملت قوانين النسبة و البنوة عددًا كبيرًا من هؤلاء الأطفال غير الشرعيين ضاربة قـــوانين الـــزواج بعرض الحائط بل المنطق والعدل نفسه. إن بنوة الطفل تثبت لأبيه:

أما نتيجة لاتصال الرجـــل بـــالمرأة بعقـــد شـــرعي صحيح.

أو ((بوطء)) شبهة.

أو نتيجة للإقرار.

أو نتيجة لشهادة العدلين.

١- العقد الشرعي الصـــحيح:- إذا وطـــئ الرجـــل زوجته (أي اتصل بها جنسيًا) وأنزل المني [1] (الســـائل

---

(1) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الإسلام وتنظيم الأسرة، الاتحـــاد العالمي لتنظيم الوالدية، المكتب الإقليمي لمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، ١٩٧٤، الجزء الثاني. ص ٧٧.

المنوي) بحيث يمكن أن يكون قد دخل في الرحم منه شيء (أو خلا بها خلوة صحيحة عند أهل السنة) ومضت أقل مدة الحمل وهي ستة أشهر من حين الوطء, ولم تتجاوز المرأة أقصى مدة الحمل و هي من حين الوطء (سنتان عند الأحناف، وأربع سنوات عند الشافعية والمالكية)

وقد حاول المجتمع الإسلامي الإقلال بقدر الإمكان من عدد الأطفال غير الشرعيين وذلك عن طريق تلك الفكرة التي عرفت باسم الطفل النائم Sleeping child أو الشعار الذي أطلقه الإسلام على أن الطفل ابن الفراش اتباعا للحديث النبوي ((الولد للفراش))، وفسر البعض هذا الحديث على أنه رجوع بنسب الولد إلى الأب بعد أن كان ينسب إلى الأم وفسره البعض الآخر على أن أي طفل تلده الزوجة هو ابن زوجها. وقال الإمام أبو حنيفة إن عقد الزواج وحده بصرف النظر عن مدته سبب في ثبوت نسب الأطفال للزوج. وعلى هذا فقد كان الطفل الذي تلده الزوجة رغم غياب زوجها عنها أربع سنوات يعتبر ابنًا شرعيًا لهذا الزوج.

كما أن الطفل الذي تلده الزوجة التي لم يمض على زواجها ثلاثة أو أربعة شهور يعتبر ابنا شرعيًا لزوجها، وسمي ذلك الطفل ((بالطفل النائم)).

إلا أن المعلومات الطبية الحديثة عن مدة الحمل، وعدد الشهور التي يمكن أن يحياها الجنين في رحم أمه بالإضافة إلى زيادة عدد الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين قد دعت المجتمع العربي الإسلامي إلى نقد فكرة الطفل النائم.

وكان المجتمع المصري حتى سنة ١٩٢٩، يتبع الفكرة القائمة على رأي الإمام أبي حنيفة من حيث إن عقد الزواج وحده يكفي لثبوت نسب الطفل للزوج. ثم أخذ برأي أحمد بن حنبل والشافعي ومالك الذين يقولون إن الدخلة أو الدخول لا بد أن يكون ممكنًا ليثبت النسب وقد قضت معظم البلاد العربية على فكرة الطفل النائم في قوانينها المتطورة الحديثة.

٢- وطء الشبهة: إذا وطئ الرجل امرأة بدون عقد زواج صحيح أو محرمة عليه، جاهلا ذلك، معتقدًا أنها

زوجته [1] أو عقد على عمل امرأة لا يصح العقد عليها معتقدًا صحة العقد عليها، وأحبلها، فلا يتحقق في هذه الحالات عنوان الزنا بسبب الجهل، ويلحق الولد به شرعا وتثبت أبوته للولد (مفهوم طبعًا أن الرجل هو الذي يعترف بالطفل ويعترف بصلته بأمه) ونرى هنا كيف يتساهل القانون مع الرجل بالنسبة للحرية الجنسية فهو يستطيع أن يتصل جنسيًا بأية امرأة غير زوجته، ولا يعتبر ذلك زنًا بل وينسب طفله إليه أيضًا، لأن هذا الرجل تصور أن هذه المرأة هي زوجته. ولا أدري هل هذا ممكن، هل يمكن أن يجهل الرجل مع من يمارس؟ زوجته أم امرأة أخرى؟؟

وإذا كان الرجل قد يبلغ من الغفلة إلى حد أنه لا يعرف زوجته من امرأة أخرى أفلا يمكن أن تبلغ المرأة من الغفلة أحيانًا فلا تعرف زوجها من رجل آخر؟ فهل يباح للمرأة مثل هذه الغفلة خاصة وإنها أقل من الرجل عقلا ودينًا كما أشيع، وإن الرجل أكثر حكمة وبالتالي أقل غفلة؟.

---

(1) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الإسلام وتنظيم الأسرة، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية، المكتب الإقليمي لمنطقة الشرق الأوسط شمال إفريقيا، ١٩٧٤، جزء ٢، ص ٧٧.

وإذا اتبعنا هذا المنطق، منطق الغفلة بحيث لا يعتبر زنًا كل من مارس الجنس خارج الزواج لمجـــرد أن الأمـــر اختلط عليه فلم يعرف الزوجة من غير الزوجة فعلى من إذن يسري الزنا؟.

ومن هنا يتضح لنا غياب المنطق والعدالة في مثـــل هذه القوانين التي تعالج تلك الازدواجية الأخلاقية القائمة على منح الرجل حرية جنسية خارج الزواج. وهذا القانون، قانون البنوة لوطء الشبهة ليس إلا دليلا على ذلك.

ولا شك أن هذا القانون يعالج بعض الشيء مشـــكلة الأطفال غير الشرعيين، لكنه علاج قاصر لمشكلة كبيـــرة لا يمكن أن يكون لها حل أو علاج طالما أن من حق الرجل أن يمارس الجنس مع أربع زوجـــات بالإضـــافة إلـــى الإمـــاء والجواري بالإضافة إلى أية امرأة أخرى يظن أنها زوجته أو يجهل أنها زوجته أو يجهل أنها محرمة عليه!.

٣- الإقرار:- يثبت النسب بالإقرار، فإذا أقر الرجل ببنوة طفل نفذ إقراره بشرط ألا يكون هناك رجل ينازعه هذه الأبوة، ولا يشترط تصديق الطفل إذا كان صـــغيرًا، أمـــا إذا كان كبيرًا فيشترط تصديقه.

وبهذا يصبح من حق الرجل غير المتزوج أن يكون له أطفال شرعيون. أما المرأة غير المتزوجة فأطفالها غير شرعيين إلا إذا لاح للرجل الذي مارس معها الجنس أن يقر بأن الطفل ابنه بشرط ألا يكون هناك رجل آخر ينازعه ملكية هذا الطفل.

٤- شهادة العدلين:- يثبت النسب عمومًا ومنه البنوة بشهادة عدلين. فلو شهد إخوان للميت بابن له ((وكانا عدلين)) ثبتت بنوته، والعدلان هنا رجلان من أسرة الرجل، أما الأم التي ولدت الطفل والتي هي أدرى منهما بأبي طفلها فإن نسب البنوة لا يثبت بشهادتها!.

وكما يعطى للرجل حق إقرار الطفل فيصبح ابنًا شرعيًا كذلك يعطى له حق نفي نسب الطفل إليه إذا ساورته الشكوك بأن الطفل ليس منه. وإذ علم الرجل أن الطفل ليس منه وجب عليه شرعًا أن ينفيه، ولا يجوز له شرعًا أن يقر بنوة طفل يعتقد بعدم بنوته له [1].

ويمكن للزوج أن ينفي نسب الطفل إليه في هاتين الحالتين:-

---

(1) المصدر السابق، ص ٧٩.

أ) أن يولد الطفل لأقل من ستة أشهر من حين الوطء، أو لأكثر من أقصى مدة الحمل (أقصى مدة الحمل اعتبرت واحدة).

ب) اللعان: إذا أنكر الزوج الطفل المولود الذي لم ينقص حمله عن أدنى مدة الحمل، ولم يزد حمله على أقصى مدة الحمل وكان العقد دائمًا ففي هذه الحالة لا ينتفي عنه الطفل إلا باللعان [1]. وكيفية اللعان هي أن يرفع الزوج دعوى عند الحاكم الشرعي ينفي بها الطفل، فيأمره الحاكم الشرعي بالشهادة، فيشهد أربع مرات بقوله: ((أشهد بالله أني لمن الصادقين في أن الولد ليس مني)) ثم يقول بعد تكرار الشهادة السابقة: ((لعنة الله علي إذا كنت من الكاذبين فيما رميت به زوجتي من نفي الولد))، و بعد فراغ الزوجة – بعد أن يأمرها الحاكم فتقول أربع مرات:

((أشهد بالله أن زوجي من الكاذبين في ما رماني به من الزنا)). ثم تقول بعد تكرار الشهادة السابقة ((غضب الله علي إن كان من الصادقين)). ويترتب على اللعان أحكام

([1]) المصدر السابق، ص ٧٩.

منها نفي الولد عن الرجل. ومنها التحريم المؤبد بين الرجل والمرأة [1].

ويتضح لنامن هذا القانون أن الزوج أيضًا (وليس الرجل غير المتزوج فقط له الحق ألا يعترف بشرعية طفله لمجرد استخدامه لكلمات اللعان رغم صحة عقد الزواج وصحة مدة الحمل. ورغم أن زوجته تقسم بأنه هو الأب.

لكن الحاكم الذي يحكم بينهما رجل وليس امرأة. و النظام السائد نظام رجولي أبوي فمن ذا الذي يصدق امرأة ويكذب رجلا؟ إن الرجل في حكم الشرع والقانون أكثر ميلا إلى الصدق والحق والعقل. والمرأة أكثر إلى الكذب والضلال والغفلة.

لكن الغفلة كانت من نصيب الرجل حينا كان الأمر يتعلق بحقه في الاتصال الجنسي بامرأة أخرى غير زوجته، أما الغفلة فيه الآن من نصيب المرأة لأن الأمر الآن يتعلق بحق الرجل المطلق في نسب طفله إليه أو نفي هذا النسب داخل الزواج أو خارجه.

([1]) المصدر السابق.

إن اللعان يعطي الزوج حق نفي نسب طفلـــه إليـــه لمجرد أن الشك ساوره في إخلاص زوجته له، وإن قـــانون النسب والأبوة يعطي الرجل الحق في نكران نسب طفله إليه لمجرد أنه لم يوقع عقد الزواج مع الأم.

ولنا أن نتخيل (في نظام يمنح حرية جنســية غيــر محدودة) عدد الأطفال الذين يروحون ضحية رجال مارسوا الجنس مع نساء دون أن يوقعوا معهن عقود الزواج، ولنا أن نتخيل عدد الأطفال الذي يروحون ضحية رجـــال ســاورهم الشك في أبوتهم.

إن الأب لا يلد أطفاله ولذلك لا يمكن لأي أب (مهما وثق * أن يقسم أن طفله منه وهو ليس من رجل آخر. أمــا الأمومة فيه الشيء الوحيد المؤكد لأن الأم هـــي التـــي تلــد الطفل من رحمها هي وليس من رحم امرأة أخرى.

ومنذ التاريخ القديم، منذ حل النظام الأبـــوي محــل النظام الأمومي لم تكن هناك مشكلة أكثر من مشكلة النســب والأبوة لارتباطه بالميراث و النفقة، و كلها أسباب اقتصادية لا علاقة لها بالعدالة أو الحق أو الأخلاق. فالعدالة و الحق و الأخلاق تقضي أول ما تقضي بألا يعاقب الطفل لأن أباه جل

مستهتر و العدالة و الحق و الأخلاق تقضي أول ما تقضي بأن يطالب الرجل بالإخلاص لزوجته بمثل ما تطالب المرأة بالإخلاص لزوجها.

ولا تدل قوانين ثبوت أو عدم الطفل لأبيه في الماضي أو الحاضر إلا على المحاولات اليائسة التي حاول بها الرجل إثبات أبوته البيولوجية، هذه الأبوة التي لا يمكن إثباتها بحال من الأحوال إلا إذا ضمن الرجل إخلاص زوجته له مائة في المائة، و هو أمر يكاد يكون مستحيلا في أحيان غير قليلة و لا في الاستحالة إلا أن تضمن الزوجة إخلاص زوجا لها مائة في المائة.

إن فقدان الثقة أمر شائع بين الزوجين لأن الزواج في معظم الحالات لم يقم على أساس إنساني ومشاعر حرة حقيقية متبادلة بين شخصين متبادلة بين شخصين ناضجين مستقلين، وإنما يحدث لأسباب اقتصادية نفعية، وتدفع البنات بالإكراه للزواج من رجال أكبر سناً لمجرد المال، وتتحول المرأة إلى سلعة أو بضاعة تشترى بالمهر و تباع بأبخس ثمن أو بلا ثمن. و علاقة الزوجة بزوجها في ظل القوانين

الأبوية هي علاقة العبد بسيده، و هي علاقة نفعية استغلالية لم تقم على أساس من الاختيار أو الحرية أو المساواة.

و قد وجدت في البحث الذي أجريته على ١٦٠ امرأة مصرية عام ٧٣ – ١٩٧٤ م. أن ٧٥,٦% مــن الزوجــات تزوجن بغير حب، و هذا الرقم في رأيي أقل من الحقيقة لأن الزوجة المصرية أو العربية بصفة عامة تخاف من التقاليــد التي تفرض عليها الطاعة وعدم التذمر أو الشكوى. و كم من زوجة تكره زوجها و تتمنى له الموت في أعماقها بكراهيتها لزوجها لأنها تخاف منه و تخاف من الطلاق لو أنها اعترفت بما تطويه في صدرها. و هذا هو السبب الذي جعلني أضــع في بحثي سؤالا آخر عن مباشر ليدلني على مدى الحــب أو على الأقل الراحة التي تشعر بها الزوجة تجــاه زوجهــا. و كان هذا السؤال هو: هل تتزوجين زوجك هذا نفسه لــو أن السنين عادت إلى الوراء و أصبحت بنتا ولك حرية اختيــار زوجك؟ وقد أجابت ٨٤,١% من الزوجات بأنهن لا يختــرن أزواجهن لو أن الماضي عاد و أصبحت الواحدة منهن لهــا حرية أو الفرصة لاختيار زوج آخر.

أما العلاقات الجنسية خارج الزواج فقد اعترفت لـــي ١٦,٧% في المتوسط من الزوجات بأن لهن علاقـــات مـــع رجال غير أزواجهن.

و قد ارتفعت هذه النسبة إلـــى ٢٢,٤% فـــي حالـــة المتعلمات العصابيات والطبيعيات، و انخفضت إلى ١١,٤% في حالة النسب على الحقيقة كلها لأن الزوجة العربية بصفة عامة مهما تعلمت و استقلت فإنها تجد صعوبة في الاعتراف بأية علاقة بينها و بين رجل آخر غير زوجهـــا، فمـــا بـــال العلاقة الجنسية. إن مثل هذه العلاقة تسمى خيانة زوجيـــة، والقانون يعاقب الزوجة على الخيانة الزوجية أشد مما يعاقب الزوج فالزوجة التي تخون زوجها القانون المصري تعاقـــب بالحبس سنتين. أما الزوج فهو لا يعاقب إذا خان زوجته في بيت آخر غير بيت الزوجة أما إذا مارس الخيانة فـــي بيـــت زوجته فإنه يعاقب بالحبس ستة شهور فقط [1].

هذا بالإضافة إلى أن العرف يعاقب المرأة وحـــدها، فخيانة المرأة لزوجها محرمة شرعًا وقانونـــًا وعرفـــًا، أمـــا

([1]) المجلة الجنائية القومية، مارس ١٩٦٥، ص ١١٩، ضمن مقـــال سمير الجنزوري عن الجرائم ضد العائلة و ضد الأخلاق الجنسية.

خيانة الرجل لزوجته فهي مباحة بالمستويات نفسها، ذلك أن خيانة الزوجة لزوجها معناهااختلاط النسب أو الميراث الذي هو الدعامة الأساسية لنشوء و استمرار الأسرة الأبوية!

و في رأيي أن أكبر خيانة هي أن يخون الأب ابنته ويكرهها على الزواج برجل لا تريده من أجل المهر، و إن أكبر خيانة هي أن يقطع المجتمع أعضاء البنات الجنسية ليفرض عليهن العذرية والعفة (عملية ختان البنات). وإن أكبر خيانة هي أن يربى الأطفال على الخوف والكبت و الطاعة العمياء. و إن أكبر خيانة هي أن يعاقب الطفل و يوصم بالعار والتشرد لأن أباه هرب بعد انقضاء لذته الجنسية ورفض الزواج من أمه. وإن أكبر خيانة هي أن يملك الرجل المرأة بعقد الزواج كما يملك قطعة من الماشية. و أن أكبر خيانة هي أن تحرم المرأة من العلم والمعرفة لتتفرغ لغسل الصحون و الملابس. لكن المجتمع يتغاضى عن كل هذه الخيانات الكبرى و لا يفتح عينه إلا على تحركات الزوجة. إن أي حركة من الزوجة أو أي ابتسامة في وجه رجل غير زوجها تملأ المجتمع دفاعًا عن شرفه

(و إن كان الأمر مجرد شك) لا ينال عقابًا أو ينال عقابًا مخففًا لأن الدفاع عن الشرف واجب الرجل الشريف.

و كم من رجل شريف يتسلل ليلا أو نهارًا من بيت الزوجية ليذهب إلى عشيقته أو مومس، و من كثرة الخيانات الزوجية فقد نص قانون نابليون (عنه أخذ القانون المصري) على حق الرجل في خيانة زوجته ما دام لا يحضر عشيقته إلى منزل الزوجية.

و في رأيي أن نظام تعدد الزوجات و حق الرجل في ممارسة الجنس مع السراري و الجواري أو حقه في أن يخلط بين زوجته و امرأة أخرى جهلا أو تجاهلا ليس إلا أنواعًا مختلفة من الخيانات الزوجية التي يمارسها الرجل في ظل حماية الأخلاق و الشرع و القانون و كلها مظاهر الازدواجية الأخلاقية التي يتسم بها النظام الأبوي و يبيح للرجال ما لا يبيحه للنساء.

رغم كل هذه الخيانات، ورغم أن النظام الأبوي هو الذي خلق فئة المومسات و رغم أن الرجل هو الذي يذهب إلى المومس و هو الذي يستمتع بها، و هو الذي يدفع لها، إلا

أن المجتمع لم يطلق كلمة مومس إلا على المرأة فقط و لـــم يفرض العقاب إلا على المرأة وحدها.

إن الرجل في القانون المصري إذا ضـــبط يمـــارس الجنس مع مومس فهو لا يحبس وإنما يكون شاهدًا عليها، أما المرأة فهي تحبس وحدها.

وقد كان البغاء في مصر قانونيًا و تحـــت إشـــراف الدولة حتى سنة ١٩٥١ ثم ظهر قانون يمنعه و يعتبر البغاء في معظم البلاد العربية اليوم غير قانوني، إلا أنـــه يمـــارس سرًا وعلنًا في بعض الأحيان.

و كم من بغايا يتسترن تحت أنواع مختلفة من الفنون الرخيصة و غير الرخيصة و كم سمعنا عن هذه الراقصـــة التي تتجول في البلاد العربية فترقص في الملاهي و ترضي الرغبات الجنسية في أوكار الغرام المملوكة للرجال الأثرياء وأصحاب السلطة. و كم عرفنا عن صلة أجهزة المخـــابرات في بعض الدول بمثل هؤلاء البغايا لاستخدامهن عند اللـــزوم

لإغراء شخص هام أو إرهابه عن طريــق تصــويره فــي أوضاع جنسية مع امرأة [1].

و في سجن القناطر قسم النساء التقيت ببعض هؤلاء، و قالت لي واحدة منهن أثناء بحث حالتها النفسية: أكاد أجن يا دكتورة فأنا أمارس هذا العمل منذ سنوات، و الكل يعرف ذلك، فلماذا قبضوا علي الآن و أدخلــوني الســجن؟ و قــد أصيبت هذه المرأة بحالة من العصاب Nearosis لأنها لــم تفهم سر حبسها المفاجئ.

و كم من قصص أليمة لهــؤلاء النســاء المســميات بالمومسات واللائي لسن إلا ضحايا مجتمع مزدوج الأخلاق. و كم من قصص أليمة عن حياة الأطفال الذين عرفوا باســم الأطفال غير الشرعيين.

وقد أصبح التناقض واضحًا بين القيم الدينية المنتشرة في كل مكان و بين الإعلانات التجارية القائمة على الجســد العاري للمرأة و زجاجات الويسكي. إن من يســير فــي أي

(١) انظر: قصة إحسان عبد القدوس في جريدة ((الأهرام)) تحــت عنوان ((الصيد في بحر الأسرار)) القاهرة، ٩ ديسمبر ١٩٧٦، ص ٣.

شارع من شوارع معظم العواصم العربية يرى أن جـــدران بعض المباني مغطاة بإعلانات عن خمور معتقة واليد التـــي تمسك بالكأس يد امرأة نصف عارية.. أو إعلانـــات أفـــلام تصور أجساد النساء و تعرض القصـــص لمجـــرد الإثـــارة الجنسية. و عرض رقصات البطن البعيدة عن الفن و التـــي تهدف إلى إثارة جماهير الناس المكبوتين جنسيًا. و تزيد هذه الإعلانات التجارية الجنسية بازدياد ارتبـــاط البلـــد العربـــي بالقوى الرأسمالية العالمية و المحلية و تقل بانتقاله من النظام الإقطاعي أو الرأسمالي إلى السير في طريق الاشـــتراكية و محاولة تحقيق العدالة الاجتماعية.

لقد اختفى كثير من هذه الإعلانات الجنسية التجارية من شوارع القاهرة و دمشق و بغـــداد و الخرطـــوم حـــين حاولت هذه البلاد مقاومة الاستغلال الإقطاعي والرأســـمالي وسارت بشعوبها نحو تحقيق بعض المبادئ الاشتراكية.

لكن القوى الرأسمالية العالمية لا تغفـــل أبـــدًا عـــن المنطقة العربية لما تحتويه من بترول و المواد الخام و موقع جغرافي و ميزات أخرى متعددة، و الصراع الرهيب الـــدائر بغير توقف أو هدنة، فإذا ما حاولت إحدى الـــبلاد العربيـــة

التحرر من قبضة الاستعمار الاقتصادي الرأسمالي العـــالمي حاصرتها هذه القوى العالمية من جميع الجهات ووجهت إليها الضربات الواضحة والخفية حتى تعيدها إلى حظيرة النظـــام الرأسمالي العالمي.

و بازدياد الإعلانات الجنسية التجاريـــة لتصـــريف الإنتاج الرأسمالي تزيد المواعظ و الأحكـــام الدينيـــة لكبـــت الشعوب جنسيًا وإخضاعها للسلطة.

وقد لوحظ أنه بازديـــاد الإعلانـــات التجاريـــة فـــي العواصم العربية عن الخمور وزجاجات الويسكي لتصـــريف إنتاج مصانع الخمور في لندن و نيويورك تزداد الصـــفحات الدينية في الصحف العربية و أجهزة الإعـــلام، و المطالبـــة بإصدار قوانين لتحريم شرب الخمور لأن شرب الخمور في الإسلام مكروه أو حرام و قد يصل الأمر إلى إصدار قوانين مضحكة لشدة تناقضها أو لأنها تعاقب الذي يشرب الخمر و لا تعاقب الذي يبيعه أو لأنها تعاقب الفندق الصغير في الحي الفقير و لا تعاقب الفندق الكبير في الحي الراقي.

أحد أمثلة ذلك هو قانون تحريم الخمور الذي صــدر في مصر ١٩٧٦ [1]، و الذي أباح الخمور للفنادق الكبيرة و الشقق المفروشة باعتبارها أنها أماكن سياحية مع أن معظــم هذه الشقق المفروشة ليست أمكان سياحية و لكنهــا أوكــار للبغاء و الدعارة الخفية.. و سواء كانت سياحية أو أوكــارًا للبغاء فهي فوق أرض مصرن أو فــوق أرض إســلامية و المفروض أن تحكمها المبادئ الإسلامية مثلها مثــل شــقق الطبقات الكادحة الفقيرة.

ولا أظن أن الإســلام يمكــن أن يســتثنيها لمجــرد الحصول على عدد من الــدولارات أو العملــة الصــعبة أو تنشيط السياحة.

وإذا كان تنشيط السياحة يتعارض مع مبادئ الإسلام فالمفروض (بمنطق الدين الصحيح) هو تنشــيط الإســلام على حساب السياحة وليس تنشيط الســياحة علــى حســاب الدين...

إلا أن التناقض هو سمة أي منطق استغلالي. و فــي الوقت الذي تتعرى فيه أجساد النساء على الشاشة الصغيرة و

---

(1) جريدة الأهرام، القاهرة ١٧ – ١٨ مايو ١٩٧٦.

الكبيرة و صفحات المجلات تنتشر ظاهرة الطرح و فــرض ما سمي بالزي الإسلامي على البنات والنســاء تحــت اســم الاحتشام، وإخفاء جسم المرأة لأنه ((عورة و فتنة)) ما عدا وجهها وكفيها. و لا أدري كيف تخفي الفتاة العربية شــعرها وجسمها وفتنتها على حين تحاصرها في كل لحظة إعلانات الراديو والتليفزيون التي تدعوها إلــى الفتنــة و الســحر و الإغراء بالكريمات والدهانات و الروج.. الذي يجعل شعرها متموجًا ساحرًا.. الخ.

و كم من فتيات ونساء عربيات يصــبن بــالأمراض النفسية المتعددة بسبب هذا التنــاقض الشــديد. إن الأغــاني العربية لا تكف ليل نهار عن التغني بالحب. والأدب العربي لا يكف عن النداء للحب، و لكن إذا ما استجابت فتــاة لهــذا النداء وأحبت فالويل لها. إن أقل ما يمكن أن توصف به هو أنها فتاة بغير شرف و بغير أخلاق ويرفض الزواج منها أي رجل حتى الرجل الذي أحبته.. إنه يقول لها: إنه لا يثق في الفتاة التي تحب رجلا قبل الزواج وإن كان هو هذا الرجل!..

وبازدياد الاستغلال واستنزاف قوت الشعب و بترول العرب إلى جيوب الحكام المحليين والرأســماليين العــالميين

يزداد الفقر بين الأغلبية الساحقة من الشعوب العربية، وتزداد حدة المشكلة الاقتصادية، و بانتشار السلع الأوروبية الأميركية الباهظة الأثمان في الأسواق العربية تزداد صفوف الشعب الكادح أمام الجمعيات التعاونية والمخابز الشعبية.. يقفون بالساعات الطويلة من أجل التنافس على رغيف خبز أو قطعة صابون أو باكو شاي.

إن من يسير في الشوارع يرى السلع الأجنبية المستوردة تغمر الأسواق بأثمان باهظة ويرى في الوقت نفسه طوابير الرجال والنساء الواقفين أمام الجمعيات والمخابز ومحلات البقالة الشعبية.

وبتأزم الحالة الاقتصادية للأغلبية من الناس تنتشر ظاهرة الاختلاس والسرقة و القتل... و قد ازدادت هذه الحوادث في المجتمع إلى حد مطالبة بعض الصحف بإقامة نظام القاضي الليلي [1] لحماية رجال الأمن والناس من اعتداءات حاملي الخناجر واللصوص والخاطفين.

---

(1) انظر: جريدة الأخبار، القاهرة ٢٥ أغسطس ١٩٧٥.

وانتشار ظواهر العنــف و الســرقة و الخطــف و الإدمان [1] و الاتجار بالجنس و المخــدرات علنًــا وســرًا، وانحراف الآباء الذين يبيعون بناتهم باسم الزواج وانجــذاب الشغالات والخادمات إلى مهنة الدعارة أو الرقص الرخيص أمام السياح والأثرياء، و انتشار الممارسات الجنسية الخاليــة من العواطف والإنسانية لمجرد الحصول على الرزق أو لقمة العيش.

بانتشار هذه الظواهر تنتشر ظواهر مناقضة لها هي تلك الموجات الدينية العامة التي تطالب بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية وعقوباتها الرادعة مثل عقوبة قطع يد الســارق و عقوبة الزنا (الرجم بالحجارة) وبتر مناظر الجــنس مــن الأفلام و إصدار قرارات بمنع القبل مــن الأفــلام العربيــة وتنفيذ قانون ((ممنوع)) لأقل من ١٦ سنة على مثل هــذه العروض السامة التي تفسد الأجيال الشابة وعقاب المنحرفات من النساء والمناداة بعودة المرأة إلى البيت التي تفسد الأجيال الشابة، و عقاب المنحرفات من النساء و المناداة بعودة المرأة

([1]) انظر: جريدة الأهــرام و الجمهوريــة، القــاهرة ١٩٧٥/٨/٢١، ١٧٥/٨/١٨.

إلى البيت حفاظا على أخلاقها وتشديد الرقابة علـــى البنـــات وإسقاط الجنسية المصرية عن أي امرأة من هؤلاء الفنانـــات العاريات في الصور والرقصات [١].

وقد طالب بعض الكتاب العرب باقتلاع الفقـــر مـــن المجتمع العربي قبل اقتلاع يد السارق وحل مشكلة الشباب و الكبت الجنسي قبل توقيع عقوبة الزنا إلا أن مثل هذا التفكير ((المنطقي)) ليس إلا قطرة في بحر من التفكيـــر ((غيـــر المنطقي)).

إن المنطق أشد أعداء الاستغلال والاستعمار ونهـــب الشعوب و لهذا تعمد الثقافـــة بفنونهـــا وآدابهـــا وصـــحفها وأجهزتها الإعلامية إلى إخفاء المنطق، وإلى تجهيل النـــاس بالحقائق وإلى تجاهل الأسباب الحقيقية التي تدفع كثيرًا مـــن الناس إلى الانتحار النفسي البطيء عن طريـــق الإدمـــان أو الجنس أو الجريمة.. وأيهما أقل شرفًا: المـــرأة التـــي تبيـــع جسدها لتأكل رغيفًا أم الدولة التي تبيع عقلها ومنطقها مـــن

---

(١) انظر: جريدة الأهرام، القاهرة ١٤ مايو ســـنة ١٩٧٦، ١٧ مـــايو سنة ١٩٧٦ تحت عنوان (من مفكرة يوسف إدريس ومن مفكرة نجيب محفوظ).

أجل أن تربح وتثري قلة من الأشخاص بيدهم السلطة ورأس المال؟ وأيهما يستحق العقاب الشاب الذي هرب من فقره عن طريق حبوب مخدرة أم الدولة التي فرضت عليه الفقر؟

إن أي مجتمع قائم على الاستغلال لا بد وأن تناقض فيه القيم التجارية والاقتصادية مع القيم الأخلاقية والدينية. و لهذا تتفشى التناقضات في النظم الأبوية الإقطاعية والرأسمالية، وتنتشر الازدواجية في كل شيء. ويدفع ثمن هذا التناقض المحكومون لا الحكام، والنساء لا الرجال، و الطبقات الكادحة وليست الطبقات العالية.

وتزيد هذه التناقضات حدة في المجتمعات الفقير المتخلفة. وبالرغم من أن المنطقة العربية تعتبر (بسبب البترول ومنتجاتها الزراعية) منطقة ثرية اقتصاديًا إلا أن ثراءها لا يعود إلى أبنائها وإنما إلى أبناء الدول الاستعمارية الكبرى وإلى القلة القليلة الحاكمة داخل البلد العربي. ولهذا السبب تعيش الأغلبية الساحقة من الشعوب العربية في فقر وتخلف اقتصادي و اجتماعي، و يؤدي هذا التخلف بالضرورة إلى تخلف فكري وأخلاقي.. و في ظل التخلف يزيد اضطهاد المرأة الاقتصادي و الجنسي و الأخلاقي..

فالمرأة الفقيرة تعاقب على تصرفاتها أكثر مما تعاقب المرأة الثرية، وقد يغفر الثراء فسادها الأخلاقي بل إن الثـراء قـد يحول الرذائل إلى فضائل في أحوال كثيرة ويحمـي المـال أيضًا المرأة المطلقة من التشرد والتسول أو بيع الجسد فـي سوق البغاء الرسمي أو غير الرسمي.. ويساعد المال المرأة على التخلص من الجنين غير المرغوب فيـه عنـد بعـض الأطباء رغم تحريم الإجهاض إلى غير ذلك من الأمور...

وتعاني المـرأة العربيـة مـن الاضـطهاد بسـبب الازدواجية الأخلاقية، فالاستعمار الرأسمالي و الاقتصـادي إلى جانب امتصاصية لخيرات المنطقة العربية فإنه ينقل إلى المجتمع العربي ازدواجيته الأخلاقية الناتجة عن التناقض بين قيمه التجارية وقيمه الدينية. وتعاني المرأة أكثر من غيرهـا الاضطهاد بسبب هذه الازدواجية، فجسدها يجب أن يعـرى لشد انتباه الناس وإثارتهم من أجل ترويج السلع عن طريـق الإعلانات وأجهزة الإعـلام والأفـلام والأغـاني والفنـون والصحف والمجلات.. وجسدها عورة ويجـب أن يحجـب بمنطق القيم الدينية والأخلاقية.. و تصبح المرأة أداة للعمـل التجاري.... وأداة العمل بغير أجر في البيت أو الحقـل، أو

أداة للعملين معًا داخل البيت وخارجه.. أو أداة للولادة من أجل إنتاج البشر للدولة أو أداة جنسية من أجل إشباع رغبات الرجل أو ترويج السلع.

إن إزالة الاضطهاد الواقع على المرأة العربية لا يمكن أن يتم إلا بإزالة الأسباب الحقيقية والأصلية لهذا الاضطهاد. كما أنه لا يمكن تحرير المرأة حقيقة إلا بإزالة جميع أنواع الاضطهاد سواء أكانت اقتصادية أم جنسية أم أخلاقية أم نفسية. إن تحرير المرأة اقتصاديًا فقط لا يكفي.. وخروج المرأة إلى العمل و حصولها على أجر مساو لأجر الرجل لا يقود إلى تحريرها الحقيقي إذا ظل النظام أبويًا تخضع فيه المرأة للرجل في ظل قوانين الزواج والطلاق.

وتحرير العمال والفلاحين من استغلال الرأسماليين والإقطاعيين لا يقود إلى تحرير المرأة لأن المرأة تظل عبدة لزوجها. إن تحرير الرجال المقهورين لا يقود تلقائيًا إلى تحرير النساء المقهورات.

إن القهر الواقع على الرجل من جانب واحد هو الدولة أو النظام الاجتماعي والاقتصادي الحاكم. أما المرأة

فإن القهر الواقع عليها من جانبين جانب الدولة وجانب الزوج والأسرة الأبوية.

إن تحرير المرأة العربية لن يكون حقيقة فعلية إلا إذا زال القهر الواقع عليها من الدولة من الأسرة معًا.

إن المرأة العربية لم تكن سلبية ولم تكن ضعيفة كما هو اليوم.. ونحن في حاجة إلى علم نفس جديد يدرس شخصية المرأة العربية القديمة والجديدة ويقدم لنا حقائق جديدة عن نفس المرأة. ونحن في حاجة إلى علم بيولوجي جديد يدرس جسد المرأة غير المكبوتة جنسيًا وغير مبتورة الأعضاء الجنسية ويقدم لنا حقائق جديدة عن جسد المرأة وطاقاتها.

ونحن في حاجة إلى علم تاريخ جديد يدرس تاريخ المرأة في حياة البشرية القديمة والحديثة يدرس التاريخ الحقيقي وليس التاريخ المزيف بمصالح النظام الأبوي الطبقي.

ولعل مشكلة علم التاريخ أنه كتب من وجهة نظر الحكام لا المحكومين فجاء معبرًا عن مصالح الطبقات

الحاكمة ضد مصالح الأغلبية من الكادحين، وجاء معبرًا عن وجهة نظر الرجال ضد مصلحة النساء..

وقد زيف التاريخ كثيرًا من الحقائق عن المرأة العربية. إن النساء العربيات لسن ناقصات عقل كما يدعي الرجال والتاريخ ولسن ضعيفات أو سلبيات بل العكس هو الصحيح.

إن الجمال هو أن تكون المرأة على حقيقتها فلا تزيف نفسها لترضي زوجها خوفًا من أن يطلقها، ولا تزيف شكلها لترضى الرجل حتى يتزوجها، ولا تزيف أخلاقها ورغباتها وسعادتها لترضي المجتمع حتى لا يحاربها أو يتهمها بالخروج عليه أو الشذوذ. والجمال هو جمال العقل وذكاؤه وصحة الجسم والنفس وليس الجمال تراكم الشحم وتراكم الوهم وادعاء الضعف والسلبية.

ومن هي هذه المرأة الحقيقية أو كم هو عدد هؤلاء النساء الحقيقيات في مجتمعنا العربي؟ كم عدد النساء العربيات الشجاعات اللائي يواجهن الناس بوجه نظيف مغسول بغير مساحيق.. وكم عدد النساء العربيات الشجاعات اللائي يواجهن أزواجهن أو آباءهن بحقيقة ما في صدورهن؟

كم عدد النساء الشجاعات اللائي يواجهن المجتمع العربي بحقيقة أفكارهن؟؟ ومن هي المرأة العربية التي تدلك عقلها قبل أن تدلك بشرتها؟؟.

من هي المرأة العربية التي تهتم بتنمية عقلها وذكائها أكثر من اهتمامها بتنمية شعرها ورموشها وأظافرها؟؟.

إن قلة عدد النساء والفتيات المهتمات بعقلهن أكثر من رموشهن وأظافرهن ظاهرة موجودة في المجتمع العربي. وهي ظاهرة لا تدل على أن المرأة ناقصة عقل.. ولكنها تدل على أن التربية التي تتلقاها البنت منذ طفولتها تخلق منها امرأة تافهة التفكير. فالبنت العربية تتدرب من الصغر على أن تُشغل بجسمها وملابسها وشكلها أكثر من اهتمامها بعقلها وذكائها.

وكم يتلف الذكاء أنوثة المرأة وكم يتلف جمال المرأة أن تكون رياضية قوية العضلات أو طويلة القامة شامخة مفتوحة العينين. أن الأنثى المثالية هي المنكسرة المطرقة الناعسة العينين القصيرة القامة.

إن طول القامة يعتبر عيبًا في البنت المصرية حسب بعض الكتب التي تدرس في المدارس الثانوية. أحد هذه

الكتب المقررة لتلاميذ وتلميذات السنة الثالثة الثانويـــة فـــي المدارس المصرية تقول في الفصل الخاص بالنمو في فتـــرة المراهقة إن الشكل المقبول للمراهق الذكر هـــو أن يكـــون طويل القامة قوي الجسم أما البنت فيجب ألا تكـــون طويلـــة القامة (١).

ويمثل المجتمع المصري أحد المجتمعـــات العربيـــة الذي أخذ من المدنية الغربية بعض مظاهرها الخارجية وأبقى على كثير من التقاليد القديمة. وفي بعض الأحيان تكون هذه المظاهر المدنية أشد تخلفا من التقاليد القديمة مثـــل هـــؤلاء الزوجات المصريات اللائي يقلدن الزوجات الغربيـــات فـــي حمل أسماء أزواجهن.

ولعل من نواحي التقدم النسبي في المجتمع العربـــي أن المرأة لا تفقد اسمها بعد الزواج ولا تحمل اسم زوجهـــا ولعل ذلك أحد بقايا قوة المرأة في المجتمع الأمومي القديم.

---

(١) انظر: كتاب علم النفس المقرر للصف الثالـــث الثـــانوي القســـم الأدبي، تأليف عبد العزيز القوصي وسيد غنيم، وزارة التربية والتعليم، القاهرة ١٩٧٦ – ١٩٧٧ – فصل ٢، ص ١٣٢.

وينتشر في العواصم العربية هؤلاء النساء المتفرنجات اللائي تتصور الواحدة منهن أن المدنية هي أن تعري فخذها في الميني جيب أو تدخن السيجارة أو البايب أو تشرب الويسكي وترقص الرقصات الحديثة...

إلا أنه تحت هذا المظهر ترقد الأنثى المكبوتة جنسيًا ونفسيًا و فكريًا. الأنثى التي تضع الحجاب على عقلها وأن تعري جسدها. الأنثى التي تظن أن الغرض الأساسي من حياتها هو أن تتزوج وتطيع زوجها وتخدمه وتنجب له أطفالا تريدهم ذكورًا لو استطاعت..

الإجهاض ومشكلة النسل

إن النظر إلى مشكلة السكان (وبالذات في مجتمعاتنا العربية) على أنها مجرد زيادة أو خفض المواليد إنما هي نظرة محدودة قاصرة، عاجزة عن حل مشكلة السكان بالذات مشكلة الزيادة السكانية التي تعاني منها بعض البلاد العربية وفي مقدمتها مصر.

إن أول خطوة لعلاج مشكلة الزيادة السكانية في مجتمعاتنا الفقيرة هي القضاء على الفقر. والفقر في مجتمعاتنا العربية ناتج عن التخلف. والتخلف والفقر يرجعان إلى أن مواردنا وثرواتنا الطبيعية تسلب بواسطة الاستعمار الاقتصادي الذي لا يزال جاثمًا على صدر المنطقة العربية بأسرها!

ولهذا فإن المشكلة السكانية لن تعالج إلا بتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية السليمة، هذه التنمية التي لا يمكن أن تتحقق ما دام البلد غير مستقل اقتصاديا.

ولا شك في أن التنميــة الاقتصــادية والاجتماعيــة السليمة سوف تحرر النساء أيضًا. وتسترد المــرأة حقوقهــا الإنسانية الأساسية ومنها استردادها لحقها في امتلاك جسدها، هذا الحق الذي سلب منها، لأنها هي التي تحمل الطفل وتلده.

إن المشكلة الأساسية في حياة المرأة أن جسدها هــو الوسيلة الوحيدة لإنتاج البشر ومن أجل أن تســيطر الدولــة على وسائل إنتــاج البشــر وتخضــعها لمصــلحة النظــام الاقتصادي السائد فقد سيطرت على أجساد النساء وأصبحت المرأة لا تملك جسدها وإنما الذي يملكه هــو الدولــة التــي ورثت في العصر الحديث كثيرًا من ســلطات الرجــل فــي الأسرة الأبوية البدائية...

وحيث إن الدول في العالم لم تكن فــي معظمهــا إلا دولا طبقية إقطاعية أو رأسمالية فقد أصــبح جســد المــرأة مملوكا بقوانين صارمة لصالح الإقطاع أو الرأسمالية. وكــم تتغير هذه القوانين تبعًا لحاجة الدولة لمزيد من الأيدي العاملة أو خوفها من الكثرة البشرية.

إن الحرية الجنسية وإنجاب الأطفال بكثــرة خــارج الزواج أو داخله عمل صالح تكافأ عليه الأم المتزوجة وغير

المتزوجة بالتساوي في المجتمع السويدي اليـوم. فـالمجتمع السويدي يعاني من قلة الأيدي العاملة.

أما في البلاد التي تعاني من مشكلة زيـادة السـكان مثل الهند ومصر فإن الأم المتزوجة (دع غيـر المتزوجـة جانبًا) قد تعاقب إذا ما ولدت طفلا غير طفلهـا الثـاني أو الثالث. و قد ارتفعت بعض الأصوات في مصر في السنوات الأخيرة تطالب بحرمان المرأة العاملة من بعـض الحقـوق والعلاوات الدورية إذا ما أنجبت أكثر من طفلين. وفي الهند و بلاد أخرى نماذج مختلفة من العقوبات التي قد تصيب الأم ذات الخصوبة العالية.

وفي تونس والصومال.. رغم أنهما بلدان إسـلاميان فقد أبيح الإجهاض كإحدى وسائل مكافحة الكثـرة السـكانية رغم أن معظم البلاد العربية تحرم الإجهاض بـدعوى انـه محرم في الإسلام.

إن الذي يدرس علاقة الدين بالسلطة فـي مختلـف الأنظمة والعصور يرى كيف يمكن للدين الواحد أن يجمـع بين قيم ومبادئ متناقضة تختلف باختلاف نظام الحكم وكـم تغيرت مبادئ الكنيسة في أوروبا لتساير أنظمة الحكومـات

العربية المختلفة ما بين عبودية أو إقطاعية أو رأسمالية أو اشتراكية.

ويقف رجال الدين الإسلامي بالنسبة لموضوع تحديد النسل موقفًا متناقضًا، بعضهم يرى أن الإسلام يبيح تحديد النسل والإجهاض أيضًا. وبعضهم يرى أن الإسلام يحرم الإجهاض بل يحرم أيضًا استخدام وسائل تحديد النسل.

وقد أعلن رئيس الدولة المصرية (جمال عبد الناصر) في الميثاق الوطني سنة ١٩٦٢ ضرورة تنظيم الأسرة ((لأن مشكلة تزايد السكان المطرد أهم عقبة تواجه الشعب المصري في كفاحه لرفع مستويات الإنتاج)).

وفي سنة ١٩٦٥ تأسس الجهاز الرسمي لتنظيم الأسرة تحت سمع وبصر رجال الدين ولم يعترض أحد منهم على قرار رئيس الدولة بل إن بعض المشايخ تسابقوا إلى إثبات أن الإسلام يبيح تحديد النسل. وتردد على سمعنا في الصحف وأجهزة الإعلام الأحاديث والآيات التي تدعو إلى تحديد النسل. وعمل جهاز تنظيم الأسرة عشر سنوات كاملة حتى سنة ١٩٧٥، وكان جمال عبد الناصر قد مات قبل ذلك بأربع سنوات، فإذا بقرار يذاع على الناس من المجلس

التأسيسي لرابطة العالم الإسلام يقول إن تحديد النسل حرام في الإسلام، وجاء في القرار [1] ما يأتي: ((وقد ثبت طبيًا أن تناول الدواء المانع من الحمل يلحق أضرارا بليغة بالأمهات أو بأولادهن إذا لم ينفع في منع الحمل وولدن. ولا يعتد بالأسباب الواهية التي يذكرها أنصار تحديد النسل كخوفهم من كثرة السكان وتعذر التغذية وفساد التربية ففي الآية الكريمة الجواب على ذلك: ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم** ﴾ فالرزق على الله وهو مكفول: ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ [2].

إلا إن جهاز تنظيم الأسرة في مصر لم يتوقف عن العمل، فهناك آراء أخرى في الإسلام أيضًا تعارض الرأي السابق. وهناك بلاد إسلامية أباحت تحديد النسل مثل المغرب وتونس وإيران وتركيا وتوسعت بعض البلاد إلى حد إباحة الإجهاض.

---

(1) نشر هذا القرار في جريدة الأهرام ١٨ أبريل ١٩٧٥، الصفحة ١١.

(2) القرآن، سورة الإسراء، الآية ٣١.

ومن ناحية جوهر الإسلام هلا يوجد شيء في القرآن يؤيد منع الحمل و يعارضه، ويعتبر القرآن الأســاس الأول للفقه الإسلامي، ويليه في ذلك أحاديث الرسول محمــد، ثــم إجماع العلماء والقياس. هذه هي الأسس الثلاثة بعد القــرآن، وللرسول محمد أحاديث تدعو إلى التكاثر والتناسل، وأحاديث أخرى تدعو إلى قلة العيال. وبالمثــل أيضــا آراء العلمــاء والفقهاء وهذا التناقض في أحاديث الرسول يدل على أن هذه الأحاديث نزلت في ظروف مختلفة وكان لها أسباب مختلفة. وآيات القرآن نفسه بعضها قد يناقض البعض الآخــر لأنهــا جاءت في ظروف مختلفة ولأسباب مختلفة. فالدين لا يمكــن أن يفهم كنصوص متفرقة ولكن الدين يفهم كلا متكــاملا ولا بد من دراسة الظروف والمجتمعات التي عاش فيها.

في بداية الإسلام كان الرسول محمد في حاجة إلــى إنشاء الدولة الإسلامية وتقوية الأمة الإسلامية فــدعا النــاس إلى التناسل فالكثرة العددية في تلك العهود كانت تؤدي إلــى القوة وازدياد عدد الجيوش المحاربة. ولذلك نجــد أحاديــث محمد تقول ((تناكحوا تكاثروا، فإني مباه بكم الأمــم يــوم

القيامة)) [1] ويستند بعض الفقهاء على بعض الآيات القرآنية لتحريم تحديد النسل، مثل آية: ﴿ **وكأين من دابة لا تحمل رزقها، الله يرزقها وإياكم** ﴾ [2]. وآية ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده** ﴾ [3]. وأيضا ﴿ **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ [4].

تأييدا لهذا الرأي كثيرا ما يشار إلى تأكيد النبي على أنه حين يمضي على الجنين في بطن أمه مائة وعشرون يومًا ((يبعث الله ملكًا فيؤمر له بأربع)): ((برزقه وأجله، وشقي أو سعيد)) [5]. إلا أن محمد كان يرمي إلى أن الكثرة العددية يجب أن تقترن بالصحة والقوة وليس بالضعف والتفكك وعدم الفائدة.

وهذا تفكير أي شخص يقود شعبًا محاولا أن يقويه ويساعده على الانتصار على أعدائه.

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، القاهرة ١٩٣٩، ص ٢٢.

(٢) القرآن: سورة العنكبوت، الآية ٦٠.

(٣) القرآن الكريم: سورة العنكبوت الآية ٦٢.

(٤) القرآن: سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

(٥) حجج البخاري، جزء ٧ ، ص ١٩٦ .

وقال محمد في حديثه المعروف: ((جهد البلاء كثرة العيال مع قلة الشيء)) وهذا الحديث هو الذي اتخذه جهاز تنظيم الأسرة في مصر كشعار خاص به. وللرسول حديث آخر يقول فيه: توشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ((فقال قائل)) أومن قلة نحن يومئذ؟ فقال: لا، بل أنتم كثير، ولكنكم كغثاء السيل [١].

ويعني بذلك أن كثرة عدد البشر غير المفيدة وغير القوية كالزبد الذي تقذفه المياه بغير نفع لأحد.

وكان المسلمون يمارسون تحديد النسل في عهد محمد بواسطة العزل، أي بواسطة القذف خارج الرحم.

وجاء في الصحيحين عن جابر ((كنا نعزل على عهد رسول الله والقرآن ينزل)) [٢]. وفي صحيح مسلم قال: كنا نعزل على عهد رسول الله فبلغ ذلك الرسول فلم ينهنا[٣].

([١]) أحمد الشرباصي ، الإسلام وتنظيم الأسرة ((الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية ١٩٧٤ جـ ٢ ، ص ١١.

([٢]) صحيح البخاري، جزء ٧ ، ص ٤٢ صحيح مسلم ، ١٠/ ١٤ ، القرمزي ، ٧٤/٥ ، ترتيب مسند أحمد بن حنبل ١٦/ ٢١٩ .

([٣]) صحيح مسلم ، ١٠ / ١٤ مع شرح النووي.

وقال الإمام الغزالي: ((والصحيح عندنا أن ذلك (العزل) مباح [1]).

وينص فقهاء المذهب المالكي على جواز العزل لمنع الحمل واشترطوا إذن الزوجة بذلك صغيرة كانت أو كبيرة[2].

والمذهب المنتشر في اليمن (عن الإمام زيد بن علي زين العابدين) يبيح العزل إذا وافقت الزوجة. وأجاز الإمام يحيي بن زيد العزل لمنع الحمل صراحة [3]، وفي العراق وباكستان وأفغانستان وسورية ينتشر الشيعة الجعفرية الذين تبيح كتبهم العزل لمنع الحمل على أن توافق الزوجة عند عقد الزواج [4].

([1]) الغزالي، الأحياء جزء ٢ ، المكتبة التجارية بمصر ، ص ٥١ – ٥٢.

([2]) حاشية الدسوقي وشرح الدردير على متن خليل، جزء ٢ ، ص ٢٦٦ .

([3]) كتاب البحر الزخار ، مطبعة أنصار السنة المحمدية ، ١٩٤٨ ، جزء ٣ ، ص ٨٠ – ٨١ .

([4]) كتاب الروضة البهية ، شرح اللمعة الدمشقية ، مطبعة دار الكتاب العربي بمصر ، جزء ٢ ، ص ٦٨ .

وعن الرسول محمد أنه نهي أن يعزل عن الحرة إلا بإذنها [1] وأتباع عبد الله بن أباض التميمي (يعرفون بالأباضية) في عمان في شرق الجزيرة العربية وبعض مناطق في شمال إفريقيا يبيحون العزل برضا الزوجة وقالوا: ((إن العزل يباح للفرار من الولد خشية العيال وإدخال الضرر على الرضيع)).

وأباح بعض فقهاء الإسلام وسائل أخرى لمنع الحمل غير العزل، ومنها أن تسد المرأة فم رحمها منعًا وصول الماء (السائل المنوي) لأجل منع الحمل. وذلك ما نقله ابن عابدين عن صاحب البحر، أحد فقهاء المذهب الحنفي، وقد اشترط لجواز ذلك موافقة الزوج [2].

وقد تكلم الزركشي عن إسقاط الجنين باستخدام دواء ثم قال: ((هذا كله في استعمال الدواء بعد الإنزال فإما استعمال ما يمنع الحمل قبل إنزال المني حالة الجماع مثلا مانع منه)) [3].

---

(1) كتاب دعائم الإسلام ، دار المعارف جزء ٢ ، ص ٢١٠ .

(2) نظرة الإسلام إلى تنظيم النسل ، ص ٨٠ .

(3) الرملي ، نهاية المحتاج ، جزء ٨ ص ٤١٦ .

وقالت لجنة الفتوى في الأزهـــر: إن اســـتعمال دواء لمنع الحمل مؤقتًا لا يحرم على رأي عند الشافعية، وبه تفتي اللجنة لما فيه من التيسير على الناس ورفع الحرج، ولا سيما إذا خيف من كثرة الحمل أو ضعف في المرأة مـــن الحمـــل المتتابع والله تعالى يقول:﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ [1]. وكان الأطبـــاء المســـلمون طـــوال العصـــور الوسطى يقدمون للناس المعلومات عن وسائل منع الحمـــل. فمن هؤلاء أبو بكر الرازي الطبيب المسلم الفارسي الذي ولد قرب طهران في منصف القرن التاسع، وهو يعتبـــر أعظـــم الأطباء السريريين في الإسلام، وأعظـــم أطبـــاء العصـــور الوسطى. وقد ذكر في كتابه ((الحاوي)) وســـائل مختلفـــة لمنع الحمل وكتب يقول: ((إن من المهم أحيانًا منع المنـــي من دخول الرحم –حين يكون الحمل خطـــرًا علـــى المـــرأة مثلا.. وهناك عدة طرق لمنع دخولـــه: أولهـــا أن ينســـحب الرجل من المرأة في لحظة القذف فلا يقتـــرب المنـــي مـــن مدخل الرحم، والطريق الثانية هي منع القذف وهي طريـــق

([1]) القرآن : سورة البقرة ، الآية ١٨٥ ، وفتوى الأزهر في ١٠/ ٣/ ١٩٥٣.

يمارسها البعض، أما الطريقة الثالثة فهي وضع نوع من العقاقير عند فم الرحم قبل الإدخال، فإما أن يسد العقار مدخل الرحم أو يطرد المنى فيحول دون الحمل، مثل أقراص أو تحاميل الكرنيب، والحنظل، والقار، ومرارة الثور، والمادة الشمعية التي تفرزها أذن الحيوان، وروث الفيل وماء الكلس ثم إن هذه المواد قد تستعمل منفردة أو مجموعة)) [1].

ومن أكبر أطباء عهد الخلافة العباسية على بن العباس المجوسي الذي كتب خلال منصف القرن العاشر يقول: ((إن الأدوية التي تمنع الحمل، وإن كان واجبًا ألا تذكر لئلا يستعملها بعض النساء السيئات السمعة، إلا أنه لا مفر من إعطائها للنسوة ذوات الرحم الصغير أو اللائي يعانين مرضًا يجعل الحمل خطرًا إلى حد تعريض الحامل للموت أثناء الوضع)) [2].

ورغم تفوق علي بن العباس في معلوماته الطبية عن وسائل منع الحمل إلا أنه لم يكن متفوقًا في معلوماته عن المجتمع والأسرة الأبوية، ومأساة الأطفال غير الشرعيين،

([1]) أبو بكر الرازي ، الحاوي ، فصل ٢٤ .

([2]) علي بن العباس المجوسي، كامل الصناعة الطبية ، فصل ٢٨.

لأنه لو كان ملمًا ببعض هذه المعلومات ربما كان قد رأى أن هؤلاء النساء اللائي أطلق عليهن اسم سيئات السمعة (لا بد أنه كان يعني المومسات)، هن في أشد الحاجة من غيرهن إلى وسائل منع الحمل حماية لأطفالهن من التشرد والعار والموت، وحماية لصحة المرأة أيضًا ونفسيتها من عب طفل غير شرعي، لم يكن إلا نتيجة اتصال الرجال بها، هذا الاتصال المفروض عليها بسبب ظروفها الاقتصادية والاجتماعية التعيسة في ظل مجتمع طبقي أبوي.

ومن أشهر علماء الإسلام ابن سينا الذي مات سنة ١٠٣٧، الذي كتب في كتابه القانون [1] عشرين طريقة لمنع الحمل على نحو ممتاز بالنسبة لعصره، وقد استعملت قرونًا وفاقت طرقه علميًا ما كتبه كثيرون من الذين جاءوا بعده. لكنه ككل الأطباء في الماضي والحاضر كان يصف وسائل منع الحمل لأسباب طبية فقط كمرض الرحم أو ضعف المثانة، أما الأسباب الاقتصادية والاجتماعية فلم يرد ذكرها إلا نادرًا جدًا.

([1]) ابن سينا ، القانون في الطب ، (المجلد) ٢ ، ص ٣٧٥ .

وقد أخذت أوروبا عن هذه الكتب وعن هؤلاء الأطباء المسلمين كثيرًا من معلوماتها الطبية الحديثة، وأخذت أيضًا عن الإرشاد لابن الجامع، وتذكرة داوود الأنطاكي وإسماعيل الجرجاني والكتاب الملكي.

ويظن بعض الناس أن وسائل منع الحمل وفكرة تحديد النسل نبعت من الغرب وبعض الناس يتصورون أن الحاجز المطاطي الذي يستخدمه الرجل لمنع الحمل من ابتكار علماء الغرب مع أن الإمام الغزالي ذكر ما سماه ((قراب الذكر)) أو ((الحجاب الواقي)) وكان يصنع قديمًا من الأمعاء.

وتختلف البلاد العربية الإسلامية في نظرتها إلى موضوع تحديد النسل حسب مشكلة السكان وعلاقتها بالإنتاج أو الموارد الاقتصادية المادية. ففي الكويت والسعودية (المملكة العربية السعودية) لا تنصح الحكومة بمنع الحمل إلا لأسباب طبية فقط. أما في البلاد العربية مثل مصر وتونس فإن الحكومة تتبنى مشروعات لتحديد النسل. وكذلك الأمر أيضًا في بلاد إسلامية مثل باكستان وتركيا وإيران.

فالمسألة إذن ليست مسألة دينية، ولكنها مسألة اقتصادية أساسًا.

ولقد أثير موضوع تحديد النسل في الصحافة المصرية منذ أعوام طويلة، في ٢٩ يناير ١٩٣٧ [1] حين طلب من مفتي الديار المصرية الإدلاء برأي الدين المحدد بشأن منع الحمل والإجهاض من الناحيتين الطبية والاجتماعية. وقد كان رد المفتي كالآتي:-

١- للزوجين أن يتخذا الإجراءات الضرورية لمنع الحمل لأسباب طبية واجتماعية أخرى. فإذا ما فشلت الوسيلة في منع الحمل وحدث الحمل أصبح عليها أن تسعى إلى الإجهاض غير القانوني، مما يعرضها لأخطار الإجهاض غير الطبي السليم، أو لجشع بعض الأطباء الذي يتاجرون بعملية الإجهاض لعدم قانونيته.

ولا تزال عمليات الإجهاض في معظم البلاد العربية ومنها مصر غير قانونية متخفية في الظلام، وليس هناك

---

(١) علي شعبان ، منع الحمل في الإسلام ، مقال في كتاب الإسلام وتنظيم الأسرة ، الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية ، ١٩٧٤ ، جزء ٢ ، ص ٢١١ .

بيانات دقيقة عن عدد عمليات الإجهاض، ولكن هناك بيانات تقريبية عن العدد الكلي لهذه العمليات الصادرة من مختلف المستشفيات.

وقد لوحظ أن عدد عمليات الإجهاض التي تجرى بسبب الأمراض الخطيرة في انخفاض مستمر، وعلى العكس من ذلك تزايد العمليات التي ترجى لأسباب نفسية أو ما يسمى طبيًا ((تهدد الأم)) [1] وذلك لمجرد استيفاء المتطلبات القانونية فالأسباب النفسية ليست إلا الأسباب الاجتماعية والاقتصادية وهي الأسباب التي لا يعترف القانون بوجاهتها لإجراء الإجهاض.

وقد لوحظ أن عمليات الإجهاض تجرى لنساء الطبقات القادرة اقتصاديًا بزيادة قدرها ثلاثة أضعاف العمليات التي تجرى للنساء الفقيرات، ومن هنا يظهر تحايل بعض الأطباء على القانون بسبب المال، وأن الأطباء (كما كتب الدكتور إسماعيل رجب رئيس قسم أمراض النساء بكلية

---

(1) انظر: د. إسماعيل رجب، مقال بعنوان الجنين المشوه والحمل الخطأ، مجلة الصحة القاهرة، العدد ٢٣ يناير سنة ١٩٧٣ ، ص ٤٤ – ٤٧.

طب عين شمس): ينقسمون إلى قسمين بالنسبة لموقفهم من الإجهاض:- قسم أصغر يقوم بهذه العملية ويتحايل على القانون بشتى الطرق لأسباب مادية في معظم الأحوال، وقسم آخر أكبر يرفض القيام بالعملية ذاتها ولكنه يحول حالات الإجهاض إلى الأطباء الذين يقومون بهذه العمليات غير القانونية، بالرغم من أن هذا التحويل في حد ذاته خرق لقانون الإجهاض.

إن عملية الإجهاض لا تزال في مجتمعنا العربي تعاني من التناقضات في القيم والازدواجية التي هي السمة الأساسية لأي مجتمع أبوي طبقي.

ورغم قانون التحريم فالإجهاض غير القانوني منتشر في مجتمعاتنا وتدل البيانات التقديرية في مصر على أن حالة حمل واحدة منكل أربع حالات حمل تجهض بطريقة غير قانونية. وينتج من هذا مئات المضاعفات الخطرة سنويًا وبالذات في حالة الأمهات الفقيرات. وقد أصبح الإجهاض غير القانوني يمثل في مصر السبب الرئيسي الأكبر لوفيات الأمهات.

ولا شك في أن حالة الأم غير المتزوجة تصبح أشد خطورة، لا من الناحية الطبية فحسب، وإنما من الناحية الأخلاقية والاجتماعية، ومعظم هؤلاء من الخادمات الصغيرات اللائي تعرضن لاغتصاب بواسطة أزواج وأبناء الأسر العالية وفوق المتوسطة. وقلة منهن من البنات الصغيرات الغريرات اللائي صدقن وعود الرجال الكاذبة بالزواج. على أن انتشار وسائل منع الحمل قد خفض من نسبة هذه الحالات.

ومن المعروف أن حالات الإجهاض التي تحدث في مصر ليست هي حالات الأمهات غير المتزوجات لأن ٩٠ % على الأقل من حالات الإجهاض غير القانوني هن لأمهات متزوجات يتراوح عمرهن بين ٢٥ – ٣٥ سنة، وإن أكثر من ٨٠ % من هؤلاء أمهات أنجبن من قبل طفلين أو أكثر، وليس في مقدور أسرهن تحمل الأعباء الاقتصادية والاجتماعية لطفل جديد.

إن إباحة الإجهاض في مصر أو في غيرها من البلاد العربية لن تزيد العدد الضخم لحالات الإجهاض غير القانوني، ولكنها ستخرج عمليات الإجهاض من السوق

السوداء. وتمنح الأمهات الفقيرات إجهاضًا طبيًا نظيفًا كالذي تتمتع به النساء القادرات ماديًا، وخاصة بعد ظهور جهاز الشفط للإجهاض من الذي يجهض الجنين في بضع دقائق بغير ألم وبغير تخدير الأم. وقد أباح اليوم عدد من البلاد الغربية الإجهاض تحت ضغط الأعداد المتزايدة من النساء الواعيات المتحررات وكذلك فعلت أيضًا البلاد الشرقية كالهند كحل لمشكلة السكان.

إن الأم وحدها هي صاحبة الحق الأول والأخير في تقرير بقاء الجنين في جسدها أو إسقاطه، وهذا شيء طبيعي لأن الجنين قبل أن يولد ليس إلا جزءًا من جسد الأم. وليس هناك من هو أحق من الأم بامتلاك هذا الحق. والمفروض أن كل إنسان يمتلك جسده، والمفروض أن تمتلك المرأة جسدها لأنها إنسان. فهذا أول حقوق الإنسان.

وإنني أعتقد أن مشكلة الزيادة السكانية ليست هي مجرد خفض المواليد بوسائل منع الحمل أو إباحة الإجهاض، ولكنها مشكلة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتحرير نصف المجتمع وهن الإناث، وتحرير المجتمع كله من الاستغلال والفقر عن طريق الاستقلال السياسي والاقتصادي وخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية السليمة التي ترفع من مستوى الفرد ماديًا وفكريًا.

الخاتمة

قال الإمام أبو حنيفة: ((إن الحجر على الإنسان بنفسه أشد ضررًا من الحجر عليه حفظًا لمالهن فالمال غاد ورائح، أما الحجر عليه نفسه فيؤدي إلى هدر آدميته، والأهلية الآدمية هي أعظم نعم الله)).

هذا كلام مقنع جميل يجب أن لا يسري على الرجل فقط، ولكن على المرأة أيضًا. فالمرأة إنسان كالرجل تمامًا، لها أهليتها الآدمية التي هي أعظم نعم الله التي يجب ألا تهدر.

إن إهدار الأهلية الآدمية للمرأة إنما هو اعتداء على أوامر الله وعلى مبادئ الدين الذي يدعو إلى الحق والحرية واحترام الإنسان.

ولكن كم تهدر الأهلية الآدمية لأغلبية النساء والبنات في بلادنا العربية دون أن يرتفع صوت بالاحتجاج أو الغضب، إلا في حالات نادرة قليلة.

إن المرأة العربية منذ ثلاثة عشر قرنًا وفي حياة الرسول محمد كانت أكثر إنسانية وأكثر آدمية من المرأة

العربية اليوم. أليس ذلك سببًا كافيًا لبذل الجهود والتضحيات من أجل الكشف عن الأسباب الحقيقية التي تسلب المرأة آدميتها وإنسانيتها؟ بل وتسلب الرجل أيضًا.

إن الإسلام يتضمن كثيرًا من الإيجابيات التي يجب أن نظهرها ونفهمها فهمًا صحيحًا نابعًا من المراجع المعترف بها. وأنا من الناس الذين يحاولون فهم الدين بعقلي أنا وليس بعقول بعض رجال الدين. ذلك أنه لا يوجد في الإسلام رجل دين.

إن رجل الدين لفظ كهنوتي بعيد عن الإسلام والعلم بالدين واجب عليَّ، لأنني أنا الوحيد المسئولة أمام الله عما أفهم من ديني، وغيري ليس مسئولا عني.

إنني إذا أخطأت، وكان خطئي ناتجًا عن اجتهاد أحد رجال الدين فإن هذا الرجل لن يتحمل المسئولية عني أمام الله. فالإنسان المسلم (رجلا أو امرأة) مسئول مسئولية شخصية عن فهمه لدينه.

وأول مبادئ الإسلام هو أن الناس سواسية كإنسان المشط لا فرق بين ذكر وأنثى ولا فقير ولا غني ولا حاكم ولا محكوم.

وأول مبادئ الإسلام هو أن يستخدم الإنسان عقله ويفكر فيما حوله من ظواهر ومشاكل بحرية وصدق وهذا هو ما حاولت أن أفعله وأنا أكتب هذا الكتاب.